الفرق بين الموت والقتل ، كلاهما يلتقى فى أنه سلب للحياة ، وكلمة « سلب الحياة » قد تكون مرة بنقض البنية ، كضرب واحد لآخر على جمجمته فيقتله ، هذا لون من سلب الحياة ، ولكن بنقض البنية . أما الموت فلا يكون بنقض البنية ، إنما يأخذ الله الروح ، وتبقى البنية كما هى ، ولذلك فرق الله فى قرآنه الحكيم بين « موت » و« قتل » وإن اتحدا معا فى إزهاق الحياة .

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إن الموت والقتل يؤدى كل منهما إلى انتهاء الحياة ، لكن القتل ينهى الحياة بنقض البنية، ولذلك يقدر بعض البشر على البشر فيقتلون بعضهم بعضا . لكن لا أحد يستطيع أن يقول : « أنا أريد أن يموت فلان » ، فالموت هو ما يجريه الله على عباده من سلب للحياة بنزع الروح . إن البشر يقدرون على البنية بالقتل ، والبنية ليست هى التى تنزع الروح ، ولكن الروح تحل فى المادة فتحيا ، وعندما ينزعها الله من المادة تموت وترم أى تصير رمة .

إذن ، فالقتل إنما هو إخلال بالمواصفات الخاصة التى أرادها الله لوجود الروح فى المادة ، كسلامة المخ أو القلب . فإذا اختل شىء من هذه المواصفات الخاصة الأساسية فالروح تقول : « أنا لا أسكن هنا » . إن الروح إذا ما انتزعت ، فلأنها لا تريد أن تنتزع . . لأى سبب ولكن البنية لا تصلح لسكنها . ونضرب المثل ولله المثل الأعلى :

إن الكهرباء التى فى المنزل يتم تركيبها ، وتعرف وجود الكهرباء بالمصباح الذى يصدر منه الضوء . إن المصباح لم يأت بالنور ، لأن النور لا يظهر إلا فى بنية بهذه المواصفات بدليل أن المصباح عندما ينكسر تظل الكهرباء موجودة ، ولكن الضوء يذهب . وكذلك الروح بالنسبة للجسد . إن الروح لا توجد إلا فى جسد له مواصفات خاصة . وأهم هذه المواصفات الخاصة أن تكون خلايا البنية مناسبة ، فإن توقف القلب ، فمن الممكن تدليكه قبل مرور سبع ثوان على التوقف ، لكن إن

فسدت خلايا المخ ، فكل شيء ينتهى لأن المواصفات اختلت .

إذن ، فالروح لا تحل إلا فى بنية لها مواصفات خاصة ، والقتل وسيلة أساسية لهدم البنية ؛ وإذهاب الحياة ، لكن الموت هو إزهاق الحياة بغير هدم البنية ، ولا يقدر على ذلك إلا الله سبحانه وتعالى . ولكن خلق الله يقدرون على البنية ، لأنها مادة ولذلك يستطيعون تخريبها .

إذن ، « فمتوفيك » تعنى مرة تمام الشيء ، « كاستيفاء المال » وتعنى مرة « النوم » . وحين يقول الحق : « إنى متوفيك » ماذا يعنى ذلك ؟ إنه سبحانه يريد أن يقول : أريدك تاما ، أى أن خلقى لا يقدرون على هدم بنيتك ، إنى طالبك إلى تاما ، لأنك فى الأرض عرضة لأغيار البشر من البشر ، لكنى سآتى بك فى مكان تكون خالصا لى وحدى ، لقد أخذتك من البشر تامًا ، ومعنى « تاما » ، أى أن الروح فى جسدك بكل مواصفاته ، فالذين يقدرون عليه من هدم المادة لن يتمكنوا منه .

إذن ، فقول الحق : « ورافعك إلىّ » هذا القول الحكيم يأتى مستقيما مع قول الحق : « متوفيك » . وقد يقول قائل : لماذا نأخذ الوفاة بهذا المعنى ؟ نقول : إن الحق بجلال قدرته كان قادرا على أن يقول : إنى رافعك إلىّ ثم أتوفاك بعد ذلك . ونقول أيضا : من الذى قال : إن « الواو » تقتضى الترتيب فى الحدث ؟ ألم يقل الحق سبحانه :

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة القمر)

هل جاء العذاب قبل النذر أو بعدها ؟ إن العذاب إنما يكون من بعد النذر . إن « الواو » تفيد الجمع للحدثين فقط . ألم يقل الله فى كتابه أيضا :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

إن « الواو » لا تقتضى ترتيب الأحداث ، فعلى فرض أنك قد أخذت « متوفيك » أى « مميتك » ، فمن الذى قال : إن « الواو » تقتضى الترتيب فى الحدث ؟ بمعنى أن الحق يتوفى عيسى ثم يرفعه . فإذا قال قائل : ولماذا جاءت « متوفيك » أولا ؟ نرد على ذلك : لأن البعض قد يظن أن الرفع تبرئة من الموت . ولكن عيسى سيموت قطعا ، فالموت ضربة لازب . ومسألة يمر بها كل البشر . هذا الكلام من ناحية النص القرآنى . فإذا ما ذهبنا إلى الحديث وجدنا أن الله فوّض رسوله صلى الله عليه وسلم ليشرح ويبين ، ألم يقل الحق :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة النحل)

فالحديث كما رواه البخارى ومسلم : (كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم) ؟ .

أى أن النبى صلى الله عليه وسلم بين لنا أن ابن مريم سينزل مرة أخرى . ولنقف الأن وقفة عقلية لنواجه العقلانيين الذين يحاولون إشاعة التعب فى الدنيا فنقول : يا عقلانيون أقبلتم فى بداية عيسى أن يوجد من غير أب على غير طريقة الخلق فى الإيجاد والميلاد ؟ سيقولون نعم . هنا نقول : إذا كنتم قد قبلتم بداية مولده بشىء عجيب خارق للنواميس فكيف تقفون فى نهاية حياته إن كانت خارقة للنواميس ؟ . إن الذى جعلكم تقبلون العجيبة الأولى يمهد لكم أن تقبلوا العجيبة الثانية . إن الحق سبحانه يقول :

﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة آل عمران)

إنه سبحانه يبلغ عيسى إننى سأخذك تاما غير مقدور عليك من البشر ومطهرك من خبث هؤلاء الكافرين ونجاستهم ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة . وكلمة « اتبع » تدل على أن هناك « مُتبِعًا » يتلو مُتبعا . أى أن المتبَع هو

الذى يأتى بعد ، فمن الذى جاء من بعد عيسى بمنهج من السماء ؟ إنه محمد صلى الله عليه وسلم . ولكن على أى منهج يكون الذين اتبعوك ؟ أعلى المنهج الذى جاؤا به أم المنهج الذى بلغته أنت يا عيسى ؟ إن الذى يتبعك على غير المنهج الذى قلته لن يكون تبعا لك ، ولكن الذى يأتى ليصحح الوضع على المنهج الصحيح فهو الذى اتبعك .
وقد جاء محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحح الوضع ويبلغ المنهج كما أراده الله . « وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » . فإن أخذنا المعنى بهذا ؛ فإن أمة محمد صلى الله عليه وسلم هى التى اتبعت منهج الله الذى جاء به الرسل جميعا ، ونزل به عيسى أيضا ، وأن أمة محمد قد صححت كثيرا من القضايا التى انحرف بها القوم . نقول ليس المراد هنا من « فوق » الغلبة والنصر ، ولكننا نريد من « فوق » الحجة والبرهان . وذلك إنما يحدث فى حالة وجود قوم منصفين عقلاء يزنون الأمور بحججها وأدلتها وهم لن يجدوا إلا قضية الإسلام وعقيدة الإسلام .

إذن ، فالفوقية هى فوقية ظهور دليل وقوة برهان . ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وفى موقع آخر من القرآن الكريم ، يؤكد الحق ظهور الإسلام على كافة الأديان وهو الشاهد على ذلك :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الفتح)

ومعنى ذلك أن الله قد أراد للإسلام أن يظهر على كل الأديان . وقد يقول قائل : إن فى العالم أديانا كثيرة ، ولم يظهر عليها الإسلام ، والموجودون من المسلمين فى العالم الآن مليار وأضعاف ذلك من البشر على ديانات أخرى . نقول لمثل هذا القائل : إن

الله أراد للإسلام أن يظهره إظهار حجة ، لا من قِبَلِكم أنتم فقط ولكن من قِبَلِهم هم كذلك . والناس دائما حين يجتمعون ليشرعوا القوانين وليحددوا مصالح بعضهم بعضا ، يلجأون أخيرا إلى الإسلام . فلننظر إلى من يشرع من جنس تشريع الأرض ولنسأل أرأيت تشريعا أرضيا ظل على حاله ؟ لا ، إن التشريع الأرضى يتم تعديله دائما .

لماذا ؟ لأن الذى وضع التشريع الأول لم يكن له من العلم ما يدله على مقتضيات الأمور التى تجدّ ، فلما جدّت أمور فى الحياة لم تكن فى ذهن من شرع أولا ، احتاج الناس إلى تعديل التشريع . ولنمسك بأى قانون بشرى معدل فى أى قضية من قضايا الكون ، ولننظر إلى أى اتجاه يسير ؟ إنه دائما يتجه إلى الإسلام ، وإن لم يلتق مع الإسلام فإنه يقرب من الإسلام . وعندما قامت فى أوربا ضجة على الطلاق فى الإسلام ، ما الذى حدث ؟ جاء التشريع بالطلاق فى إيطاليا تحت سمع وبصر الفاتيكان . هل شرعوا الطلاق لأن الإسلام أباح الطلاق ؟ لا ، إنما شرعوه لأن أمور الحياة أخضعتهم إلى ضرورة تشريع الطلاق ، فكأنهم أقاموا الدليل بخضوعهم لأمور الحياة على أن ما جاء به الإسلام قبل التجربة كان حقا . بدليل أن أوربا لجأت إلى تشريع الطلاق لا كمسلمين ولكن لأن مصالح حياتهم لا تتأتى إلا به .

وهل هناك ظهور وغلبة أكثر من الدليل الذى يأتى من الخصم ؟ تلك هى الغلبة . لقد وصلوا إلى تشريع الطلاق رغم كراهيتهم للإسلام كدليل على صدق ما جاء به الإسلام . وفى الربا ، الذى يريد البعض هنا أن يحلله ، تجد أوربا تحاول التخلص منه ، لأنهم توصلوا بالتجربة إلى أن المال لا يؤدى وظيفته فى الحياة إلا إذا انخفضت الفائدة إلى صفر. أى أنهم عرفوا أن إلغاء الربا ضرورى حتى يؤدى المال وظيفته الحقيقية فى الحياة ، والذى ألجأهم إلى الوصول إلى هذه الحقيقة هو أن فساد الحياة سببه الربا ، فأرادوا أن يمنعوا الربا . لقد وصلوا إلى ما بدأ به الإسلام من أربعة عشر قرنا . أتريد غلبة ، وتريد فوقا ، وتريد ظهورا ، أكثر من هذا بالنسبة لدين الله ؟

إذن ، ففهم الخصوم ما يصلح أمر الحياة اضطرهم إلى الأخذ بمبادىء الإسلام . ونتابع بالتأمل قول الحق : « وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » . أى أن الحق جاعل الذين ساروا على المنهج الأصيل القادم من الله فوق الذين كفروا . فالذين يقولون فيك يا عيسى ابن مريم ما لا يقال من ألوهية ، هل

اتبعوك ؟ لا . . لم يتبعوك .

إن الذى يتبع عيسى هو الذى يأتى على المنهج القادم من الله . إن عيسى ابن مريم رسول إلى بنى إسرائيل . وديانات السماء لا تأتى لعصبيات الجنس أو القومية أو الأوطان أو غير ذلك ، ولكن المنهج هو الذى يربط الناس بعضهم ببعض ، ولذلك جاء لنا الحق بقصة سيدنا نوح لنتعرف على هذه المعانى . لقد وعد الله سيدنا نوحا أن ينجى له أهله . وعندما دعا نوح عليه السلام ابنه ليركب معه : ولكن ابن نوح رفض ، فقال نوح عليه السلام لله :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة هود)

فهل الأهلية بالنسبة للأنبياء هى التى قالها نوح هل أهلية الدم ؟ لا ، لأن الحق قال :

﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة هود)

لماذا ؟ لأن أهل النبوة هم المؤمنون بها.فالذين اتبعوا المنهج الذى جاء به المسيح من عند الله ليس من يطلق على نفسه النسب للمسيح ، ومن يطلق على نفسه أنه يهودى إن هذه أسماء فقط . إن المتبع الحق هو من يتبع المنهج المنزل من عند الله . إن الأنبياء ميراثهم المنهج والعلم . ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم على سلمان وهو فارسى لا يجتمع مع رسول الله فى أرومة عربية :

(سلمان منا آل البيت)[1] .

(١) هذا الحديث رواه الحاكم والطبرانى فى الكبير .

وهكذا انتسب سلمان إلى آل البيت بحكم إيمانه ، وبنص حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذن : « وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » ، أى أن الحق سبحانه قد جعل الفوقية للذين يتبعون المنهج الحق القادم من عند الله . والذى يصوب منهج عيسى هو محمد رسول الله. هل تكون الفوقية هى فوقية مساحة جغرافية ؟ لأن رقعة من الأرض التى تتبع الديانات الأخرى غير الإسلام أكبر مساحة من رقعة أرض المؤمنين بالإسلام ؟ لا . . فالفوقية تكون فوقية دليل .

وقد يقول قائل : إن الدليل لا يلزم . نرد قائلين : كيف لا يلزم الدليل ؟ ونحن نرى الذين لا يؤمنون به يدللون عليه . كيف يدللون عليه ؟ إنهم يسيرون فيما يقننون من قوانين البشر إلى ما سبق إليه تقنين السماء . ومادام هنا فى هذه الآية كلمة « فوق » وكلمة « كفروا » وهناك أتباع ، إذن ، فهناك قضية وخصومة ، وهناك حق ، وهناك باطل ، وهناك هدى، وهناك ضلال . فلابد من الفصل فى هذه القضية . ويأتى الفصل ساعة ألا يوجد للإنسان تصرف إرادى لا على ذات نفسه ولا على سواه .

إن الظالمين يستطيعون التصرف فى الأرض ، لكن عندما يكون المرجع إلى الله فالله يقول : أنا ملكتكم وأنتم عصاة لى فى كثير من الأسباب ، لكن هناك وقت تزول فيه ملكيتكم للأسباب . إذن . . فالظالم قد يتحكم على الأرض وكذلك الباطل لأن الله أوجد لنا جميعا إرادات ومرادات اختيارية . لكن فى يوم القيامة فلا إرادات إلا إرادة الله :

﴿ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة غافر)

(إذن فالحكم قادم بدون منازع . . والذى يدل على ذلك قوله الحق :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ

﴿١٦٦ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ١٦٧﴾

(سورة البقرة)

إن الذى اتبع واحدا على ضلال يأتى يوم القيامة ليجد أن صاحب الضلال يتبرأ منه ، فيقول المتبعون سائلين الله : يارب ارجعنا إلى الدنيا لننتقم ممن خدعونا . هذا من ناحية علاقة البشر بالبشر . أما من ناحية الجسد الواحد نفسه ، فسوف تجد شهادة الجلود والألسنة والأيدى ، بعد أن تسقط عنها إرادة الإنسان ويسقط تسخير الحق لهذه الجوارح والحواس لخدمة الإنسان ، تقول الجوارح والحواس : لقد كانت لصاحبى إرادة ترغمنى على أن أفعل ما لا أحب ، لكن ها هوذا يوم القيامة ، فلا قهر ولا إرغام ولا تسخير لأن الملك كله لله . . لذلك تشهد الألسنة والجلود ولهذا يقول الحق : « ثم إلىّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون » .

إن الحق يحكم فيما كانوا فيه يختلفون لتكون ثمرة الحكم هى ماذا ؟ هل هناك تكليف بعد ذلك ؟ لا . . لكن ثمرة الحكم هى الجزاء . ففى الآخرة لا عمل هنالك ، والحكم فيها للجزاء . وكما قلنا : مادام هناك متبعون وكافرون ، وجماعة فوق جماعة ، وإلى الله مرجعهم ، فلابد لنا أن نرى ما هو الحكم الذى سوف يكون ؟ ها هوذا القول الحكيم :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ٥٦ ﴾

لماذا لم يأت الله بالحكم على المؤمنين أولا ؟ لأن المؤمنين يؤمنون بذلك تماما ، إنهم بإيمانهم يعرفون ذلك ويعونه . ولنتنبه هنا إلى أن الحكم لا يشمل العذاب فى الآخرة فقط ولكنه يشتمل على العذاب فى الدنيا أيضا ، فعذاب الدنيا سيكون قبل الحكم ،

وكأن الحق يقول لنا : لا تعتقدوا أن تعذيبى إياهم فى الدنيا يعفيهم من تعذيبى إياهم فى الآخرة ، لأن التعذيب فى الدنيا فقط قد يصيب من آمن بى .

أما من كفر بى ، فإنى أعذبه فى الدنيا وأعذبه فى الآخرة. إننى لا أؤجل العذاب للكافرين إلى الآخرة فقط ولكن سأضم عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة .

إن الحصيلة بعد كل شيء هى أن يعذب الكافر فى الدنيا وفى الآخرة . ويقول الحق عن هذا العذاب : إنه عذاب شديد ؛ لأن الحدث حين يقع لابد أن تلحظ فيه القوة التى تناسب من أحدث . ولنضرب هذا المثل ولله المثل الأعلى :

إن الطفل قد يكسر شيئا فى حدود قوته كطفل ، والشاب قد يكسر شيئا مناسبا لقوته . إذن فالحدث يجب أن نأخذه قياسا بالنسبة لفاعله ؛ فإذا كان الفاعل هو الله ، فهل لأحد طاقة على عذاب الله ؟ لا أحد يتصور ذلك ، وليس لأحد من هؤلاء من ناصر ، لأن الذى يهزمه الله ويعذبه لا ناصر له ؛ وبعد ذلك يأتى الحق بالمقابل :

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

أى فمادام الذين كفروا سينالون العذاب الشديد من الله ، فالذين آمنوا سينالون النعيم المقيم بإذن الله .

﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾

يقول الحق تبارك وتعالى :

« ذلك » إشارة لما سبق من الأحداث ، في شأن امرأة عمران ، ومريم ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، وكان لكل واحد من هؤلاء قضية عجيبة يخرق فيها ناموس الكون ، وكلها آيات ، أي عجائب . وقد نقلت إلينا هذه العجائب من واقع ما رآه الذين عاصروا تلك الأحداث ، وجاء الخبر اليقين بتلك العجائب في قرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو الكتاب الحق الموصوف من الله بأنه « الذكر الحكيم » فاطمئنوا - أيها المؤمنون - إلى أن ما وصلكم عن طريق القرآن ، إنما حكى واقعا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فما جاء به من أخبار عن تلك الآيات هو ما يطابق الواقع الذي عاصره الناس وحكوه.

وبعد ذلك يعرض الحق لنا سبحانه قضية سيدنا عيسى عليه السلام ، وهي قضية يجب أن نتنبه إليها تنبها جديدا فنعرض وجهة نظر الذين يضعونه في غير الموضع الذي أراده الله ، كما نعرض وجهة نظر الذين يضعونه في الموضع الذي يريده الله ، فالمسألة ليست انتصارا منا في الدنيا على فريق يقول : كذا ، وليست انتصارا لفريق آخر في الدنيا ليقول : كذا ، لأنها مسألة لها عاقبة تأتي في الآخرة ويحاسبنا عليها الحق تعالى ، لذلك كان من المهم جدا أن نصفيها تصفية يتضح فيها الحق ، حتى لا يظلم أحد نفسه .

لقد جاء عيسى عليه السلام على دين اليهودية ، أي طرأ على دين اليهودية ونحن نعلم أن دين اليهودية قد تم تحريفه من اليهود تحريفا جعله ينحاز إلى الأمور المادية الصرفة ، دون أدنى اعتبار للأمور الروحية والإيمان بالغيب ، فهم ماديون ، وتتمثل ماديتهم في أنهم قالوا لموسى عليه السلام ما حكاه القرآن الكريم :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إنهم لم يلتفتوا إلى أن بعضا من كمال وجلال الله غيبٌ ؛ لأنه لو كان مشهودا محسا ، لحدد ـ بضم الحاء وكسر الدال ـ وحُيِّزَ ، ومادام قد حُدِدَ وحُيِّزَ فى تصورهم فذلك يعنى أنه سبحانه قد يوجد فى مكان ولا يوجد فى مكان آخر ، والحق سبحانه منزه عن مثل ذلك لأنه موجود فى كل الوجود ، ولا نراه بالعين ، لكن نرى آثار أعماله وجميل صنعه فى كل الكون .

إذن فكون الله غيبا هو من تمام الجلال والكمال فيه .

لكن اليهود قد صوروا الأشياء كلها على أنها حسية ، حتى أمور اقتيات حياتهم وهى الطعام ، لقد أرادها الله لهم غيبا حتى يريحهم فى التيه ، فأرسل عليهم المنّ والسلوى ، كرزق من الغيب الذى يأتى إليهم ، لم يستنبتوه . ولم يستوردوه ، ولم يعرفوا كنهه ، ولم يجتهدوا فى استخراجه ، إنه رزق من الغيب ، ومع ذلك تمردوا على هذا الرزق القادم لهم من الغيب وقالوا كما أخبر الله عنهم :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

إنهم يريدون أن يكون طعامهم كما ألفوا ، وأن يروا هذا الطعام كأمر مادى من

أمور الحياة ؛ لذلك تشككوا فى رزق الغيب ، وهو المن والسلوى ، وقالوا : « من يدرينا أن المن قد لا يأتى ، وأن السلوى قد لا تنزل علينا » فلم تكن لهم ثقة فى رزق وُهب لهم من الغيب ؛ لأنهم تناولوا كل أمورهم بمادية صرفة . ومادامت كل أمورهم مادية فهم فى حاجة إلى هزة عنيفة تهز أوصال ماديتهم هذه ؛ لتُخرجهم إلى معنى يؤمنون فيه بالغيب .

ونحن نعلم أن الفكر المادى لا يرى الحياة إلا أسبابا ومسببات ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يخلع منهم ذلك الفكر المادى ، لذلك جاء بعيسى عليه السلام على غير طريق الناموس الذى يأتى عليه البشر ، فجعله من امرأة دون أب ، حتى يزلزل قواعد المادية عند اليهود . لكن الفتنة جاءت فى قومه ، فقالوا ببنوته للإله ، وسبحانه منزه عن أن يكون له ولد .

ولنا أن نسأل ما الشبهة التى جعلتهم يقولون بهذه البنوة ؟

قالوا : إن الأمومة موجودة والذكورة ممتنعة ، والشبهة إنما جاءت من أن الله نفخ فيه الروح ، فالله هو الأب .

نقول لهم : لو أن الأمر كذلك لوجب أن تفتنوا فى آدم أولى من أن تفتنوا فى عيسى ؛ لأن عيسى عليه السلام كان فى خلقه أمومة ، أما آدم فلا أمومة ولا أبوة ، فتكون الفتنة فى آدم عليه السلام أكبر ، وإن قلتم : « إن الحق قال : إنه نفخ فيه من روحه » ، فلكم أن تعرفوا قول الله فى آدم عليه السلام :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن فالنفخ هنا فى آدم موجود ، فلماذا سكتم عن هذه الحكاية منذ آدم وحتى مجىء عيسى عليه السلام ، وهكذا يتم دحض تلك الحجة ونهايتها ، وبعد ذلك نأتى إلى قضية أخرى ، وهى توفيه أو وفاته ، إلى القضيتين معا - توفيه ووفاته - حتى

نُبَيِّن الرأيين معا . وهنا نتساءل : لماذا فتنتم فى ذلك ؟ يقولون : لقد أحيا عيسى الموتى ، ونقول لهم : ألم تأخذوا تاريخ إبراهيم عليه السلام حينما قال الله له :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فمجال الفتنة فى إبراهيم عليه السلام كبير ، وكذلك ، ألم يجىء موسى عليه السلام بآية هى العصا ؟ . إنه لم يجىء ميتا كانت فيه حياة ، إنما أجرى الله على يديه خلق الحياة فيما لم تثبت له حياة ، فأصبحت العصا ـ وهى جماد ـ حية تسعى لماذا إذن لم تفتنوا فى عصا موسى عليه السلام ؟

وهكذا نعرف أنه لا يصح أن يفتن أحد فى المعجزة التى جاءت بعيسى عليه السلام ، أو فى إحيائه الموتى بإذن الله ، وأتباع عيسى عليه السلام يتفقون معنا أن الله سبحانه وتعالى غيب ، ولكنهم يختلفون معنا فيقولون : إن الله أراد أن يؤنس البشر بصورة يتجلى لهم فيها بشرا فجاء بعيسى عليه السلام ليتحقق لهم ذلك الأنس .

ونقول لهم : سنبحث هذه المسألة بدون حساسية ، وبدون عصبية ، بل بالعقل ، ونسأل « هل خلق الله عيسى ليعطى صورة للإله ؟ . إن عيسى كان طفلا ، ثم كبر من بعد ذلك ، فأى صورة من صوره المرحلية كانت تمثل الله ؟

إن كانت صورة طفل فهل هى صورة الله ؟ وإن كانت صورة كهل فهل هى صورة الله ؟ إن لله صورة واحدة لا نراها ولا نعرف كنهها فهو سبحانه « ليس كمثله شىء » ، فأية صورة من الصور التى تقولون : إنها صورة الله ؟

وإن كان الله على كل هذه الصور فمعنى ذلك أن لله أغيارا ، وهو سبحانه منزه عن ذلك . ولو كان على صورة واحدة لقلنا : إنه الثبات والأمر كذلك فهو

- سبحانه - الحق الذى لا يتغير إنهم يقولون : إن الله أراد أن يجعل صورته فى بشر ليؤنس الناس بالإله ، فتمثل فى عيسى .

ولنا أن نسأل : كم استغرق وجود عيسى على الأرض ؟ والإجابة : ثلاثين عاما أو يزيد قليلا . وهكذا تكون فترة معرفة الناس بالصورة الإلهية محدودة بهذه السنوات الثلاثين طبقا لتصوركم . ولابد أن نسأل « ما عمر الخلق البشرى كله ؟» إن عمر البشرية هو ملايين السنين . فهل ترك الله خلقه السابقين الأولين بدون أن يبدى لهم صورته ، ثم ترك خلقه الآخرين الذين قدموا إلى الحياة بعد وفاة عيسى - أى تمام مهمته - ورفعه ، بدون أن يعطيهم صورة له ؟ . إن هذا تصور لإله ظالم ، وسبحانه وتعالى منزه عن الشرك والظلم . فلا يعقل أن يضن بصورته فلا يبقيها إلا ثلاثين عاما ؟ إن هذا قول لا يقبله عقل يثق فى عدالة الله المطلقة .

ثم إنهم يقولون : إن عيسى عليه السلام قد صلب ، وهم معذورون والحق سبحانه وتعالى قد عذرهم فى ذلك فأورد التاريخ الحق العادل ، حين يقول :

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ ﴾

(سورة النساء)

لقد جعل الله لهم عذرا فى أن يقولوا : إنه قتل أو صلب ؛ لأنه شبه لهم وكان من المعقول أن يلتمسوا من الإسلام حلا لهذه المشكلة ، لأن الإسلام جاء ليقول : « لا ، لقد شبه لكم ، فما قتلوه وما صلبوه ؛ لأن هذا الفعل - القتل أو الصلب - ينقض فكرتهم عن أنه إله أو ابن إله . لأن المصلوب لو كان إلها أو ابن إله ، لكانت لديه القدرة التى تغلب الصالب ، فكيف يعقل الإنسان أن ينقلب الإله - أو ابن الإله - مقدورا عليه من مخلوق ؟ والإسلام عندما يقول : إن عيسى ابن مريم لم يصلب فقد كرمه الله . وهكذا ترى أن الإسلام قد جاء ليصفى العقائد كلها من عيوب التحريف التى قام بها المتبعون لتلك الأديان .

وبعد ذلك يأتى الحق سبحانه وتعالى ليعرض علينا قضية جدلية حدثت فى أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى يخرج الناس - مسلمين ونصارى ويهودا - من هذه البلبلة ، وأن يتم ذلك فى مودة ، لأنهم كلهم مؤمنون بالعبودية لمعبود واحد . فقد جاء وفد من نصارى نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، والتقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان لهؤلاء القوم جدل مع اليهود ، ولهم جدل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما كان لليهود والنصارى معا جدل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والجدل بين اليهود والنصارى مصدره أن لليهود والنصارى قولا متضاربا فى بعضهم بعضا يرويه لنا الحق :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فاليهود يقولون : « كان إبراهيم يهوديا » والنصارى يقولون لا ، كان إبراهيم نصرانيا ، وأما الجدل بين النصارى وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسببه أنهم قد أرادوا أن يتكلموا فى مسألة عيسى ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يصفى القضية تصفية نهائية حتى لا تظل معلقة تلوكها الألسنة وتجعلها مثارا للفتن . فلما اجتمع نصارى نجران تحت لواء رؤسائهم ، ومن هؤلاء الرؤساء من اسمه السيد ، ومنهم من يسمى العاقب صاحب المشورة ، ومعهم قسيس ، فقال لهم صلى الله عليه وسلم : ماذا تقولون فى عيسى ؟ قالوا : إنه ابن الله . وقال لهم الرسول : إن عيسى عليه السلام قال : « إنى عبدالله » وهو عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول ، فغضبوا وقالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : هل رأيت إنسانا قط من غير أب ؟ . إن كنت قد رأيت مثل ذلك فأخبرنا به .

وهنا نزلت الآية الكريمة :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾

لقد جاء القول الفصل بالحجة الأقوى ، فإذا كان عيسى عليه السلام قد جاء بدون أب ، فإن آدم عليه السلام قد جاء بدون أب ، وبدون أم ، وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : تعلمون أنى رسول الله وأننى نبى هذه الأمة ، فقالوا : أنظرنا غدا نتكلم فى هذه المسائل ، ودعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان فقالوا : لا .

وعندما يعرض الحق سبحانه صراع قضية حق مع قضية باطل فهو يقول :

﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(سورة سبأ)

أى إن طرفا واحدا على هدى ، والطرف الآخر على ضلال مبين ، لماذا ؟ لأن القضيتين متناقضتان ، ولا يمكن أن يجتمعا ، ودعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يجتمع بهم فى مكان ظاهر ، ويدعو الطرفان الأبناء والنساء ، ويبتهل الجميع إلى الله الحق أن تُستنْزَل لعنة الله على الكاذبين ، وفى هذا جاء القول الكريم :

﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾

لقد جاء الحق البيّن والقول الفصل من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فلا مجال للشك أو المراء، ومن يُرد أن يحتكم إلى أحدٍ فليقبل الاحتكام إلى الإله العادل الذى لن يحكم بالباطل أبدا، فهو سبحانه الحق، ويجيء هذا القول: « تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم، ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ». إن الطرفين مدعوان ليوجها الدعوة لأبنائهم ونسائهم، فالرسول صلى الله عليه وسلم مدعو لدعوة أبنائه ونسائه، ومن له الولاية عليهم؛ وبحضوره هو صلى الله عليه وسلم، وهم مدعون لدعوة أبنائهم ونسائهم وأنفسهم للابتهال.

وقد يسأل سائل: ولماذا تكون الدعوة للأبناء والنساء؟ والإجابة هى: أن الأبناء والنساء هم القرابة القريبة التى تهم كل إنسان، وإن لم يكن رسولا، إنهم بضعة من نفسه وأهله. فكأن الرسول صلى الله عليه وسلم مأمور بأن يقول لهم: « هاتوا أحبابكم من الأبناء والنساء لأنهم أعزة الأهل وألصقهم بالقلوب وادخلوا معنا فى مباهلة » «والمباهلة»: هى التضرع فى الدعاء لاستنزال اللعنة على الكاذب، فالبهلة ـ بضم الباء ـ هى اللعنة، وعندما يقول الطرفان: « يارب لتنزل لعنتك على الكذاب منا » فهذا دعاء يحمل مطلق العدالة؛ فالإله الذى يستطيع أن ينزل اللعنة هو الإله الحق. وهو سينزل اللعنة على من يشركون به، ولو كانت اللعنة تنزل من الآلهة المتعددة فسوف تنزل اللعنة على أتباع الإله الواحد.

ولهذا كانت الدعوة إلى المباهلة والبهلة ـ كما قلنا ـ وهى ضراعة إلى القوة القاهرة التى تتصرف فى الأمر لتنهى الخلاف، ثم صار المراد بالمباهلة هنا مطلق الدعاء،

فنحن نقول : « نبتهل إلى الله » ، أى ندعو الله .

إذن فالرسول صلى الله عليه وسلم جاءهم بالأمر المنزل من عند الله الحق بدعوة الأبناء والنساء والأنفس ، لكنهم قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : « أنْظِرْنا إلى غد ونأتى إليك » .

ثم أرسلوا فى الصباح واحدا منهم ليرى ماذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وهل هو مستعد لهذا الأمر حقيقة ، أو هو مجرد قول منه أراد به التهديد فقط ؟ ووجد رسولهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاء ومعه الحسين والحسن وفاطمة وعلى بن أبى طالب ، لذلك قالوا : « لا لن نستطيع المباهلة » ، والله ما باهل قوم نبيا إلا أُخذوا ، وحاولوا ترضية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : « لنظل على ديننا ويظل محمد وأتباعه على دينه » لقد ظنوا أن الدعوة إلى المباهلة هى مجرد تهديد لن ينفذه الرسول ، لكن صاحب اليقين الصادق جاء ومعه أهله استعدادا للمباهلة ، ولن يُقبل على مثل هذا الموقف إلا من عنده عميق الإيمان واليقين ، أما الذى لا يملك يقينا فلن يقبل على المباهلة بل لابد أن يرجع عنها . وقد رجعوا عن المباهلة ، وقالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : لنتفق معا ألا تغزونا أو تخيفنا على أن نرسل لك الجزية فى رجب وفى صفر وهى من الخيل وغير ذلك ! لقد فروا من المباهلة لمعرفتهم أنهم فى شك من أمرهم ، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان على يقين بما أنزله الله عليه وكان العرب إذا خرجوا إلى الحرب يأخذون نساءهم معهم ، وذلك حتى يخجل الرجل من الفرار ، وحتى لا يترك أولاده ونساءه لكيلا يذلوا من بعد موته ، فإن قُتِل قتلوا معه هم أيضا .

إذن إن أردنا نحن الآن أن ننهى الجدل فى مسألة عيسى عليه السلام فلنسمع قول الحق سبحانه وتعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ، الحق من ربك فلا تكن من الممترين » إنه الحق القادم من الربوبية فلا تكن أيها السامع من الشاكين فى هذه المسألة . ومن أراد أن يأتى بحجة مضادة للحجة القادمة من الله فلنا أن نحسمها بأن نقول : « تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » .

ولن يجرؤ واحد منهم على ذلك . لماذا ؟ لأن السابقين عليهم قد فروا من المباهلة

ولأن الله ـ سبحانه ـ يريد أن يزيد المؤمنين إيمانا واطمئنانا إلى أن ما ينزله على رسوله هو الحق قال ـ جل شأنه ـ :

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾

وقوله الحق : « إن هذا لهو القصص الحق » يلفتنا إلى أن ما يرويه الحق لنا هو الحق المطلق ، وليس مجرد حكاية أو قصة ، أو مزج خيال بواقع ، كما يحدث فى العصر الحديث ، عندما أخذت كلمة القصة فى العرف الأدبى الحديث ـ القادم من حضارة الغرب ـ إن القصة بشكلها الحديث المعروف إنما يلعب فيها الخيال دورا كبيرا ، لكن لو عرفنا أن كلمة « قصة » مشتقة من قص الأثر لبحث أهل الأدب فيما يكتبون من روايات وخيالات عن كلمة أخرى غير « قصة » ، فالقصص هو تتبع ما حدث بالفعل لا تبديل فيه ولا أخيلة .

وها هو ذا الحق سبحانه وتعالى يقول : « إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله » فإذا جاء القصص من الإله الواحد فلنطمئن إلى أنه لا يوجد إله آخر سيأتى بقصص أخرى ، ولأن الله الواحد هو «العزيز الحكيم » أى الغالب على أمره ، ومع أنه غالب على أمره فهو حكيم فى تصرفه .

لكن هل اتعظ القوم الذين جادلوا ؟ لا ، إن الحق يقول :

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾

إن قوله « فإن تولوا » يدل على أن الله قد علم أزلا أنهم لن يقبلوا المباهلة ، وهكذا حكموا على أنفسهم بأنهم المفسدون ، فصدق الحق سبحانه فى قوله : « فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين » ومع ذلك فقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يدعوهم إلى الدين الكامل لأنهم مؤمنون بالإله ، وبالسماء ، وبالكتاب ، لذلك يقول الحق :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾


٦٤

إنها دعوة إلى كلمة مستوية لا التواء فيها « ألا نعبد إلا الله » وهذا أمر لا جدال فيه ، ثم « ولا نشرك به شيئا » أى لا ندخل معه من لا يقدر على الارتفاع إلى جلال كماله ، فالعقول السليمة ترفض كلمة « الشرك » ؛ لأن الشرك يكون على ماذا ؟ هل الشرك على خلق الكون ؟ إن كل مخلوق أشركوه فى الألوهية إنما جاء من بعد أن خلق الله الكون . أو يكون الشرك على إدارة هذا الكون ؟

إذا كان هذا هو السبب فى الشرك فهو أتفه من أن يكون سببا لأن الحق سبحانه قادر على إدارة الكون ، وأنزل منهجا إذا ما اتبعه الإنسان صار الكون منسجما . إذن فأى شرك لا لزوم له . وإن كان ـ والعياذ بالله ـ له شريك وتمتع إله ما بقدرات خاصة فهذه القدرات تنقص من قدرات الإله الثانى . وهذا عجز فى قدرة هؤلاء الآلهة ، ولهذا يحسم الحق هذا الأمر بقوله الكريم :

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

إذن فمسألة الشركاء هذه ليست مقبولة ، وبعد ذلك يقول الحق : « ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » . أى ألا نأخذ من بعضنا كهنوتا وكهنة ، يضع الواحد منهم الحلال لنا أو الحرام علينا؛ فالتحليل والتحريم إنما يأتى من الله ، وليس لمخلوق أن يحلل أو يحرم . ثم يقول الحق : « فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون » أى إن من لا يقبل عبادة الإله الواحد الذى لا شريك له ولا أرباب تحلل أو تحرم ، إنما يريد أربابا وشركاء ، وهذا معناه أن قلبه غير مستعد لتقبل قضية الإيمان ؛ لأن قضية الإيمان تتميز بأن مصدرا واحدا هو الذى له مطلق القدرة ، وهو مصدر الأمر فى الحركة وهو الواحد الأحد ، فلا تتضارب الحركات فى الكون .

إن حركاتنا كلها وهى الخاضعة لمنهج الله بـ « افعل » و« لا تفعل » فلو أن هناك إلها قال : « افعل » وإلها آخر قال : « لا تفعل » ، لكان معنى ذلك والعياذ بالله أن هؤلاء الآلهة أغيار لها أهواء . والحق سبحانه يحسم هذا بقوله :

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

وهكذا كانت دعوة الله على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهد بأنا مسلمون » ، إنها آية تحمل دعوة مستوية بلا نتوءات ، فلا عبادة إلا لله ، ونحن لا نأخذ « افعل » و« لا تفعل » إلا من الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا كهنوتا أو مصدرا للتحليل أو التحريم ، فإن رفضوا وتولوا ، فليقل المؤمنون : «اشهدوا بأنا مسلمون » أى أنه

لا يوجد إلا إله واحد ، ولا شركاء له ، وبعضنا لا يتخذ بعضا أربابا ، وتلك شهادة بأن الإسلام إنما جاء بالأمر المستوى الذى لا عوج ولا نتوء فيه ونحن متبعون ما جاء به .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

إن الحق يسألهم : لماذا يكون جدالكم فى إبراهيم خليل الله ؟ إن اليهود منكم ينسبون أنفسهم إلى موسى ، والنصارى منكم ينسبون أنفسهم إلى عيسى ، وإبراهيم عليه السلام لا يمكن أن يكون يهوديا كما يدعى اليهود ، فاليهودية قد جاءت من بعد إبراهيم والنصارى لا يمكنهم الادعاء بأن إبراهيم كان نصرانيا ، لأن النصرانية قد جاءت من بعد إبراهيم عليه السلام ، فلم المحاجة إذن ؟ لقد أنزلت التوراة والإنجيل من بعد إبراهيم فكيف يكون تابعا للتوراة والإنجيل ؟

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

أى لقد جادلتم فيما بقى عندكم من التوراة وتريدون أن تأخذوا الجدل على أنه باب مفتوح ، تجادلوا في كل شيء ، وأنتم لا تعلمون ما يعلمه الخالق الرحمن علام الغيوب .

ويوضح الحق هذا الأمر فيقول :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

وبذلك يتأكد أن إبراهيم عليه السلام لم يكن يهوديا ، لأن اليهودية جاءت من بعده . ولم يكن إبراهيم نصرانيا ، لأن النصرانية جاءت من بعده ، لكنه وهو خليل الرحمن « كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » ونحن نفهم أن كلمة « حنيفا » تعني الدين الصافي القادم من الله ، والكلمة مأخوذة من المحسات ، فالحنف هو ميل في الساقين من أسفل ، أي اعوجاج في الرجلين ، ثم نقل الحنف إلى كل أمر غير مستوٍ .

وهنا يتساءل الإنسان ، هل كان إبراهيم عليه السلام في العوج أو في الاستقامة ؟ وكيف يكون حنيفا ، والحنف عوج ؟ وهنا نقول : إن إبراهيم عليه السلام كان على الاستقامة ، ولكنه جاء على وثنية واعوجاج طاغ فالعالم كان معوجا . وجاء إبراهيم ليخرج عن هذا العوج ، ومادام منحرفا عن العوج فهو مستقيم ، لماذا ؟ لأن الرسل لا يأتون إلا على فساد عقدى وتشريعى طاغ . والحق سبحانه وتعالى ساعة ينزل منهجه يجعل في كل نفس خلية إيمانية . والخلية الإيمانية تستيقظ مرة ، فتلتزم ، وتغفل مرة ، فتنحرف ، ثم يأتى الاستيقاظ بعد الانحراف ، فيكون الانتباه ، وهكذا توجد النفس اللوامة ، تلك النفس التى تهمس للإنسان عند الفعل الخاطىء : إن الله لم يأمر بذلك .

ويعود الإنسان إلى منهج الله تائبا ومستغفرا ، فإن لم توجد النفس اللوامة صارت النفس أمارة بالسوء ، وهى التى تتجه دائما إلى الانحراف ، وحول النفس الواحدة توجد نفوس متعددة تحاول أن تقاوم وتقوّم المعوج ، وهى نفوس من البيئة والمجتمع ، فمرة يكون الاعتدال والاتجاه إلى الصواب بعد الخطأ قادما من ذات الإنسان أى من النفس اللوامة ، ومرة لا توجد النفس اللوامة ، بل توجد النفس الأمارة بالسوء ، لكن المجتمع الذى حول هذا الإنسان لا يخلو من أن يكون فيه خلية من الخير تهديه إلى الصواب ، أما إذا كانت كل الخلايا فى المجتمع قد أصبحت أمارة بالسوء فمن الذى يعدلها ويصوبها ؟

هنا لابد أن يأتى الله برسول جديد ، لأن الإنسان يفتقد الردع من ذاتية النفس بخلاياها الإيمانية ، ويفتقد الردع من المجتمع الموجود لخلوه كذلك من تلك الخلايا الطيبة ، وهكذا يطم الظلام ويعم ، فيرسل الله رسولا ليعيد شعلة الإيمان فى النفوس . والله سبحانه وتعالى قد ضمن لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ألا يأتى لها نبى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا فمن الضرورى أن يوجد فيها الخير ويبقى ، فالخير يبقى فى الذات المسلمة ، فإن كانت الغفلة فالنفس اللوامة تصوب ، وإن كانت هناك نفس أمارة بالسوء فهناك قوم كثيرون مطمئنون يهدون النفس الأمارة إلى الصواب .

وهكذا لن تخلو أمة محمد فى أى عصر من العصور من الخير ، أما الأمم الأخرى السابقة فأمرها مختلف ؛ فإن الله يرسل لهم الرسل عندما تنطفىء كل شموع الخير فى النفوس ، ويعم ظلام الفساد فتتدخل السماء ، وحين تتدخل السماء يقال : إن السماء قد تدخلت على عوج لتعدله وتقومه .

إذن فإبراهيم عليه السلام جاء حنيفا ، أى مائلا عن المائل ، ومادام مائلا عن المائل فهو مستقيم ، فالحنيفية السمحة هى الاستقامة . وهكذا نفهم قول الحق : « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » .

إن إبراهيم هو أبو الأنبياء ، ولو لم تكن اليهودية قد حُرفت وبدلت ، وكذلك النصرانية لكان من المقبول أن يكون اليهود والنصارى على ملة إبراهيم ؛ لأن الأديان لا تختلف فى أصولها ، ولكن قد تختلف فى بعض التشريعات المناسبة للعصور ،

ولذلك فسيدنا إبراهيم عليه السلام لا يمكن أن يكون يهوديا باعتبار التحريف الذى حدث منهم ، أى لا يكون موافقا لهم فى عقيدتهم ، وكذلك لا يمكن أن يكون نصرانيا للأسباب نفسها ، لكنه « كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » أى أنه مائل عن طريق الاعوجاج .

قد يقول قائل : ولماذا لم يقل الله : « إن إبراهيم كان مستقيما » ولماذا جاء بكلمة « حنيفا » التى تدل على العوج ؟ ونقول : لو قال : « مستقيما » لظن بعض الناس أنه كان على طريقة أهل زمانه وقد كانوا فى عوج وضلال ولهذا يصف الحق إبراهيم بأنه « كان حنيفا مسلما » وكلمة « مسلما » تقتضى « مسلما إليه » وهو الله ، أى أنه أسلم زمامه إلى الله ، ومُسْلَمًا فيه وهو الإيمان بالمنهج .

وعندما أسلم إبراهيم زمامه إلى الله فقد أسلم فى كل ما ورد بـ« افعل ولا تفعل » وإذا ما طبقنا هذا الاشتقاق على موكب الأنبياء والرسل فستجد أن آدم عليه السلام كان مسلما ، ونوحا عليه السلام كان مسلما ، وكل الأنبياء الذين سبقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا مسلمين .

كان كل نبى ورسول من موكب الرسل يلقى زمامه فى كل شىء إلى مُسْلَم إليه ؛ وهو الله ، ويطبق المنهج الذى نزل إليه ، وبذلك كان الإسلام وصفا لكل الأنبياء والمؤمنين بكتب سابقة ، إلى أن نزل المنهج الكامل الذى اختتمت به رسالة السماء على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بـ« افعل ولا تفعل » ولم يعد هناك أمر جديد يأتى ، ولن يشرع أحد إسلاما لله غير ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لقد اكتملت الغاية من الإسلام ، ونزل المنهج بتمامه من الله . واستقر الإسلام كعقيدة مصفاة ، وصار الإسلام علما على الأمة المسلمة ، أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهى التى لا يُستَدرك عليها لأنها أمة أسلمت لله فى كل ما ورد ونزل على محمد صلى الله عليه وسلم . لذلك قال الحق :

﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا

﴿ النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

ولنا أن نلحظ أن كل رسول من الرسل السابقين على سيدنا رسول الله إنما نزل لأمة محددة ، فموسى عليه السلام أرسله الله إلى بنى إسرائيل ، وكذلك عيسى عليه السلام ، قال تعالى : « ورسولا إلى بنى إسرائيل » أى رسولا مسلما فى حدود تطبيق المنهج الذى جاء به ونزل إلى هؤلاء الرسل ، فلما تغير بعض من التشريع وتمت تصفية المنهج الإيمانى بالرسالة الخاتمة ، وهى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وهى عامة لكل البشر فقد آمن بعض من أهل تلك الأمم برسالته عليه الصلاة والسلام ، كما آمن بها من أرسل فيهم سيدنا رسول الله ، واستمر موكب الإيمان بالدين الخاتم إلى أن وصل إلينا . وهكذا صارت أمة محمد صلى الله عليه وسلم هى خاتمة الأمم الإسلامية ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء والمرسلين .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين »[1] .

وحين يقولون : إن إبراهيم عليه السلام كان يهوديا أو نصرانيا . إنما أوردوا ذلك لأن إبراهيم عليه السلام فيه أبوة الأنبياء . وهم قد أرادوا أن يستحضروا أصل الخلية الإيمانية فى محاولة لأن ينسبوها إلى أنفسهم وكأنهم تناسوا أن المسألة الإيمانية ليست بالجنس أو الوطن أو الدم ، أو أى انتماء آخر غير الانتماء لمنهج الله الواحد ، ولذلك فأولى الناس بإبراهيم ليسوا من جاءوا من ذريته ، بل إن أولى الناس بإبراهيم هم الذين اتبعوه ، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد اتبع إبراهيم عليه السلام ، لذلك فلا علاقة لإبراهيم بمن جاء من نسله ، ممن حرفوا المنهج ولم يواصلوا الإيمان ، لقد حسم الله هذه القضية مع إبراهيم عندما قال سبحانه :

(١) رواه البخارى ومسلم .

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

لقد امتحن الحق إبراهيم بكلمات هى الأوامر والنواهى ، فأتمها إبراهيم عليه السلام تماما على أقصى مايكون من الالتزام ، ولم يكن مجرد إتمام يتظاهر بالشكلية ، إنما كان إتماما بالشكل والمضمون معا .

والمثال على تمام الأوامر والنواهى بالشكل فقط هو رؤيتنا لمن يتلقى الأمر من الله بأن يصلى خمسة فروض ، فيصلى هذه الفروض الخمسة كإجراء شكلى ، لكن هناك إنسانا آخر يصلى هذه الفروض الخمسة بحقها فى الكمال مضمونا وشكلا ، إنه يتم الأوامر الإلهية إتماما يرضى عنه الله .

ولقد أدى إبراهيم عليه السلام الابتلاءات التى جاءت بالكلمات التكليفية من الله على أكمل وجه . ألم يأمر الله إبراهيم عليه السلام على أن يرفع القواعد من البيت ؟ أما كان يكفى إبراهيم عليه السلام لينفذ الأمر برفع بناء الكعبة إلى أقصى ما تطوله يداه ؟ إنه لو فعل ذلك لكان قد أدى الأمر ، لكن إبراهيم عليه السلام أراد أن يوفى الأمر بإقامة القواعد من البيت تمام الوفاء ، فبنى الكعبة بما تطوله يداه ، وبما تطوله الحيلة أيضا ، فجاء إبراهيم عليه السلام بحجر ليقف من فوقه ، ويزيد من طول جدار الكعبة مقدار الحجر ، لقد أراد أن يوفى البناء بطاقته فى اليدين وبحيلته الابتكارية أيضا ، فلم يكن معروفا فى ذلك الزمان « السقالات » وغير ذلك من الأدوات التى تساعد الإنسان على الارتفاع عن الأرض إلى أقصى ما يستطيع .

ولو أن إبراهيم عليه السلام قد رفع القواعد من البناء على مقدار ما تطوله يداه ؛ لكان قد أدى تكليف الله ، لكنه أراد الأداء بإمكاناته الذاتية الواقعية ، وأضاف إلى ذلك حيلة من ابتكاره ، لذلك جاء بالحجر الذى يقف عليه ليزيد من جدار الكعبة ، وهذا ما نعرفه عندما نزور البيت الحرام بـ « مقام إبراهيم » فلما أتم إبراهيم الكلمات

هذا الإتمام قال الحق سبحانه لإبراهيم :

﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

أى إنك يا إبراهيم مأمون على أن تكون إماما للناس فى دينهم لأنك أديت « افعل ولا تفعل » بتمام وإتقان . ولنر غيرة إبراهيم عليه السلام على منهج ربه ، إنه لم يرد أن يستمر المنهج فى حياته فقط ، ولكنه طلب من الله أن يظل المنهج والإمامة فى ذريته ، فقال الحق سبحانه على لسان إبراهيم طالبا استمرار الأمانة فى ذريته :

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

إن سيدنا إبراهيم قد امتلأ بالغيرة على المنهج وخاف عليه حتى من بعد موته ، لكن الحق سبحانه وتعالى يُعلم الخلق جميعهم من خلال إبراهيم فيقول سبحانه :

﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

أى أن المسألة ليست وراثة ، لأنه سيأتى من ذريتك من يكون ظالماً لنفسه ويعدل فى المنهج بما يناسب هواه ، وهو بذلك لا تتوافر فيه صفات الإمامة . إن الحق يعلمنا قواعد إرث النبوة ، إن تلك القواعد تقضى أن يرث الأنبياء من هو قادر على تطبيق المنهج بتمامه دون تحريف ، والمثال على ذلك ما علمه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال لسلمان الفارسى : « سلمان منا آل البيت »[1]

إن سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم لم يقل لسلمان الفارسى « أنت من العرب » لا . بل نسبه لآل البيت ، أى نسبه إلى إرث النبوة بما يتطلبه هذا الإرث

(١) رواه الحاكم فى مستدركه ، والطبرانى فى معجمه الكبير .

من تطبيق المنهج بتمامه ، لقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما علّمه الحق سبحانه لسيدنا إبراهيم عليه السلام عن إرث النبوة ، فليس هذا الإرث بالدم ، إنما بتطبيق المنهج نصا وروحا ، كما تعلم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مما علّمه له الحق عن نوح عليه السلام ، لقد وعد الحق نوحا بأن ينجيه وأهله من الطوفان . ويرى نوح عليه السلام ابنه مشرفا على الغرق ، فيتساءل « ألم يعدنى الله أن ينجى أهلى ؟» فينادى نوح عليه السلام ربّه ، بما أورده القرآن الكريم حين قال :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة هود)

فيقول الحق ردا على طلب نوح نجاة ابنه :

﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة هود)

ولننظر إلى التعليل القرآنى لانتفاء الأهلية عن ابن نوح عليه السلام « إنه ليس من أهلك » ؟ لماذا ؟ « إنه عمل غير صالح » . إن الحق لم يقل « إنه عامل غير صالح » ـ الذاتية ممنوعة ـ لأن الفعل هو الذى يحاسب به الله ؛ فالإيمان ليس نسبا ، ولا انتماء لبلد ما ، أو انتماء لقوم ما ، إنه العمل ، فمن يعمل بشرع أى رسول يكون من أهل هذا الرسول ، إنّ النسبة للأنبياء لا تأتى للذات التى تنحدر من نسب النبى ، بل يكون الانتساب للأنبياء بالعمل الذى تصنعه الذات .

وفى موقع آخر يعلمنا الحق عن سيدنا إبراهيم موقفا يصور رحمة الخالق بكل خلقه من آمن منهم ومن كفر . لقد طلب إبراهيم عليه السلام سعة الرزق لأهل بيته الذين جعل إقامتهم بمكة ، كما جاء فى الكتاب الكريم :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة البقرة)

فهل استجاب الحق لدعوة إبراهيم برزق الذين آمنوا فقط من أهل مكة ؟ لا ، بل رزق المؤمن والكافر . وعلم إبراهيم ذلك حينما قال له :

﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة البقرة)

إن الرزق المادى مكفول من الحق لكل الخلق ، مؤمنهم وكافرهم ، والاقتيات المادى مكفول من قبل الله لأنه هو الذى استدعى المؤمن والكافر إلى هذه الدنيا . أما رزق المنهج فأمر مختلف ، إن اتباع المنهج يقتضى التسليم بما جاء به دون تحريف . وهذا المنهج لم يتبعه أحد ممن جاءوا بعد إبراهيم عليه السلام إلا القليل ، فمن آمن برسالة موسى عليه السلام دون تحريف هم قلة .

ثم جاء عيسى عليه السلام برسالة تبعد بنى إسرائيل عن المادية الصرفة إلى الإيمان بالغيب ، لكن رسالة عيسى عليه السلام تم تحريفها أيضا ، وعلى ذلك فأولى الناس بإبراهيم عليه السلام هم الذين اتبعوا المنهج الخاتم الصحيح والمصفى لكل ما سبق من رسالات ، وهؤلاء هم الذين آمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، والله ولى المؤمنين جميعا من آمن منهم برسالة إبراهيم خليل الرحمن ، إيمانا صحيحا كاملا ، ومن آمن برسالة محمد عليه الصلاة والسلام . . بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

إن معنى « ودت » هو « تمنت » و« أحبت » . ولماذا أحبوا أن يُضلوا المؤمنين ؟ لأن المنحرف حين يرى المستقيم ، يعرف أنه كمنحرف لم ينجح فى أن يضبط حركته على مقتضى التكليف الإيمانى لـ « افعل » و« لا تفعل » ، أما الملتزم المؤمن فقد استطاع أن يضبط نفسه ، وساعة يرى غير الملتزم إنسانا آخر ملتزما ، فإنه يحتقر نفسه ، ويقول بينه وبين نفسه حسدا للمؤمن : لماذا وكيف استطاع هذا الملتزم أن يقدر على نفسه ؟

ويحاول المنحرف أن يأخذ الملتزم إلى جانب الانحراف ، وعندما لا يستطيع جذب الملتزم إلى الانحراف فهو يسخر منه ، ويهزأ به ، ويحاول أن يحتال عليه ليأخذه إلى جانب الانحراف . ألم يقل الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ
﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ
لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة المطففين)

وهذا ما يحدث الآن عندما يرى أهل الانحراف إنسانا مؤمنا ذا استقامة ، فيسخرون منه بكلمات كالتى تسمعها « خذنا على جناحك » أو يحاولون النيل من إيمانه وعندما يعود أهل الانحراف إلى أهلهم فهم يروون بتندر كيف سخروا من المؤمنين ، وكأنهم يحققون السعادة لهؤلاء الأهل بحكايات السخرية من الإنسان المؤمن ، ويطمئن الحق المؤمنين بأن لهم يوما يضحكون فيه من هؤلاء الكفار :

﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

(سورة المطففين)

ويسأل الحق أهل الإيمان :

﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾

(سورة المطففين)

أى قد عرفتم كيف اجازى بالعقاب اهل الكفر .

لذلك فأولى الناس بإبراهيم هم المؤمنون برسالة محمد عليه الصلاة والسلام . ولا يفتأ بعض من أهل الكفر من محاولة جذب المؤمنين إلى الضلال . إنهم يحبون ذلك ويتمنونه ، ولكن ليس كل ما يوده الإنسان يحدث ، فالتمنى هو أن يطلب الإنسان أمرا مستحيلا أو عسير المنال ، هم يحبون ذلك ولكن لن يصلوا إلى ما يريدون ، يشير إلى ذلك قوله تعالى : « ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون » .

إنهم يتمنون إضلال المؤمنين ، لكن هل يستطيعون الوصول إلى ذلك ؟ لا : والمثال على ذلك هو ما فعله بعض أهل الكتاب من اليهود عندما ذهبوا إلى معاذ بن جبل وإلى حذيفة الصحابيين الجليلين ، وذهبوا أيضا إلى عمار الصحابى الجليل وحاولوا فتنة معاذ وحذيفة وعمار لكنهم لم يستطعوا .

وعلينا أن نعرف أن « الضلال » يأتى على معان متعددة ، فقد يأتى الضلال مرة بمعنى الذهاب والفناء فى الشىء ، مثل قوله الحق :

﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴾

(سورة السجدة)

لقد تساءل المشركون « أبعد أن نذوب فى الأرض وتتفكك عناصرنا الأولية نعود ثانية ، ونُبعث من جديد ؟ » . وقد يأتى الضلال مرة أخرى بمعنى عدم اهتداء الإنسان إلى وجه الحق ، كما قال الحق وصفا لرسوله صلى الله عليه وسلم عندما رفض عبادة الأصنام وظل يبحث عن المنهج الحق .

﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾

(سورة الضحى)

أى أنك يا محمد لم يعجبك منهج قريش فى عبادة الأصنام ، وظللت تبحث عن المنهج الحق ، إلى أن هداك الله فأنزل إليك هذا المنهج القويم . لقد كنت ضالا تبحث عن الهداية ، فجاءتك النعمة الكاملة من الله .

وهناك لون آخر من الضلال ، وهو أن يتعرف الإنسان على المنهج الحق ، لكنه ينحرف عنه ويتجه بعيدا عن هذا المنهج مثل قول الحق : « ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم » .

ونتساءل : كيف يحدث إضلال النفس ؟ وتكون الإجابة هى : أن الضال الذى يعرف المنهج وينكره إنما يرتكب إثما ، ويزداد هذا الإثم جُرمًا بمحاولة الضال إضلال غيره ، فهو لم يكتف بضلال ذاته بل يزداد ضلالا بمحاولته إضلال غيره . وهذا القول الكريم قد حل لنا إشكالا فى فهم قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾

(من الآية ١٨ من سورة فاطر)

وفى فهم قوله ـ جل شأنه ـ :

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة النحل)

وهكذا نعرف أن الوزر فى آية فاطر هو وزر الضلال فى الذات والأوزار فى سورة النحل هى لإضلال غيرهم فهؤلاء الضالون لا يكتفون بضلال أنفسهم ، بل يزيدون من ضلال أنفسهم أوزارا بإضلال غيرهم فهم بذلك يزدادون ضلالا مضافا إلى أنهم يحملون أوزارهم كاملة . « وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون » .

إنهم لا يشعرون بالكارثة التى سوف تأتى من هذا الضلال المركب الذى سينالون عليه العقاب . ولو أنهم تعمقوا قليلا فى الفهم لتوقفوا عن إضلال غيرهم ، ولو بحثوا عن اليقين الحق لتوقفوا عن ضلال أنفسهم .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠ ﴾

إن الحق يسألهم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم لم تكفرون بآيات الله العجيبة وأنتم تشهدون ؟ وهنا قد يسأل سائل هل شهد أهل الكتاب الآيات العجيبة فى زمن رسول الله ؟ .

والإجابة هى : ألم يستفتح اليهود على من يقاتلونهم بمجىء نبى قادم ؟ إنهم كانوا يدعون الله قائلين : إنا نسألك بحق النبى الأمىّ الذى وعدتنا أن تخرجه لنا فى آخر الزمان إلا تنصرنا عليهم فكانوا يُنصرون على أعدائهم فلما بعث ـ صلى الله عليه وسلم ـ كفروا به بغيا وحسدًا قال الله تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَـٰبٌ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَـٰفِرِينَ ٨٩ ﴾

(سورة البقرة)

لقد كفروا من أجل السلطة الزمنية . فقد كانوا يريدون الملك والحكم . وهذا عبدالله بن سلام الذى كان يهوديًا فأسلم قد قال عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد عرفته حين رأيته كمعرفتى لابنى ومعرفتى لمحمد أشد » .

إذن فمعرفتهم بنعت رسول الله ووصفه موجودة فى آيات التوراة ولقد شهدوا الآيات البينات ، لكنهم أنكروا الآيات طمعا فى السلطة الزمنية حتى ولو تطلب ذلك أن يُحرِّف بعضهم منهج الله سبحانه وتعالى ويحوّلوا هذا التحريف إلى سلطة زمنية فاسدة كهؤلاء الذين باعوا صكوك الغفران ولذلك قال الحق عن هؤلاء الذين يحرفون منهج الله :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن العذاب هو مصير هؤلاء الذين يحرفون كلام الله ومنهجه .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

ومعنى « تلبس » هو إدخال شىء فى شىء ، فنحن عندما نرتدى ملابسنا ، إنما ندخل أجسامنا فى الملابس ، وبهذا يختلف منظر اللابس والملبوس .

وفى مجال الدعوة إلى الله نجد دائما الحق وهو يواجه الباطل ، إنهم يخلطون الحق بالباطل فهذه الآية تتحدث عن محاولة من بعض أهل الكتاب لإلباس الحق بالباطل ، وقد حدث ذلك عندما حرفوا التوراة والإنجيل وأدخلوا فيها ما لم يأت به موسى عليه السلام أو عيسى عليه السلام ، وكانت هذه هى محاولة ضمن محاولات أخرى لإلباس الحق بالباطل ، ثم جاءت أكبر المحاولات لإلباس الحق بالباطل وهو

إنكارهم للبشارة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، رغم أنها وردت فى كتبهم السماوية .

لقد أعلنوا الإيمان بموسى أو عيسى ، ولم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لقد أنكروا بشارة موسى وعيسى برسالة محمد الخاتمة ، وكان ذلك قمة إلباس الحق بالباطل ، لأنهم أعلنوا الإيمان برسولين ثم أنكروا الإيمان بالنبى الخاتم وذلك لأنهم كانوا يعلمون أن الإسلام الذى جاء به محمد رسول الله هو الدين الحق ، وكانوا إذا ما خلوا إلى أنفسهم عرفوا ذلك ولكنهم يجحدونه .

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾

(من الآية ١٤ سورة النمل)

ومع ذلك فهم يحاولون العثور على حيلة ليبتعد بها الناس عن تلك الرسالة الخاتمة ، تماديا منهم فى الكفر ، ونزل قول الحق :

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

لقد أراد بعض من أهل الكتاب أن يشككوا المسلمين فى أمر المنهج ، لذلك اصطنعوا تلك الحيلة ، فالمؤمنون من العرب وقريش فى ذلك الزمن كانوا أميين وكانوا يعرفون أن أهل الكتاب على علم بمناهج السماء ، ولم يكن القرآن كله قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإذا ما آمن بعض منهم برسالة رسول الله وجه النهار وكفروا به آخر النهار فهذا خلط للحق بالباطل . وفى هذا خداع للمؤمنين .

ولنا أن نعرف أن « وجه النهار » مقصود به ساعات الصباح والظهر ، فالوجه هو أول ما يواجه فى أى أمر ، ونحن نأخذ ذلك فى أمثلة حياتنا اليومية ، فنقول عن بائع الفاكهة : « لقد صنع وجها للفاكهة » ، أى أنه قد وضع أنضج الثمار فى واجهة العربة ،وأخفى خلف الثمار الصالحة الناضجة ثمارا أخرى فاسدة . وعندما يفعل التاجر مثل هذا الفعل فمقصده الغش والخداع ، لأن الإنسان إذا ما اشترى أى مقدار من هذه الفاكهة فسيجد ربع ما اشترى هو من واجهة الفاكهة ، والباقى من الثمار الفاسدة .

وكذلك حاول بعض من أهل الكتاب أن يخدعوا المؤمنين بإعلان الإيمان أول النهار ثم إعلان الكفر آخر النهار ، والهدف بطبيعة الحال هو إشاعة الشك وزراعة البلبلة فى نفوس المؤمنين بخصوص هذا الدين ، فقد يقول بعض من الأميين : « لقد اختبر أهل الكتاب هذا الدين الجديد وهم أهل علم بمناهج السماء ولم يجدوه مطابقا لمناهج السماء » .

أو أن الآية قد نزلت فى مسألة تحويل القبلة إلى الكعبة ، فإذا كان الحق سبحانه قد أمر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ، فالكافرون من أهل الكتاب أرادوا نقض ذلك ، وقالوا : « فلنسمع أول النهار كلام محمد ونتوجه فى الصلاة إلى الكعبة ثم نصلى آخر النهار ونجعل قبلتنا بيت المقدس » .

وكأن الحق قد أراد بذلك أن يكشف لنا أن كل أساليب الكفر هى من تمام قلة الفطنة وعدم القدرة على حسن التدبر ، لقد أرادوا إشعال الحرب النفسية ضد المسلمين ، لعل بعضا من المسلمين يتشككون فى أمر الدين الجديد ، لكنهم دون أن يلحظوا أنهم قد فضحوا أنفسهم ، واعترفوا دون قصد منهم بأن الذين آمنوا بالقرآن هم المؤمنون حقا بينما هم قد أخذوا لأنفسهم موقف الكفر الذى هو نقيض للإيمان ، قال سبحانه حكاية عنهم : « آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره » فهم قد ارتضوا لأنفسهم الكفر .

لقد أعلن هؤلاء المشككون التصديق بالإسلام ؛ وذلك ليعرف الناس عنهم ذلك ، ولكونهم أهل كتاب فهم قادرون على الحكم عليه ، فإذا ما رجعوا عن

الإسلام من بعد معرفته ، فسيقولون : إن رجوعنا ليس بسبب الجهل أو التعصب ، إنما بسبب اختبارنا لهذا الدين ، فلم نجده مناسبا ولا متوافقا مع ما نزل على رسولنا . وهذا من أساليب الحرب النفسية .

والحق سبحانه وتعالى يكشف ذلك المكر والخداع للذين حاولوا أن يكتموا خداعهم ولعبتهم الماكرة ، والتي أرادوا بها التشكيك والخداع . فينزل على رسوله هذا القول الحق :

﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

إن الحق سبحانه يكشف للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين به من الأميين لعبة إيمان بعض من أهل الكتاب بالإسلام وجه النهار والكفر به آخر النهار ، لقد طالب المتآمرون بعضهم بعضا أن يظل الأمر سرا حتى لا يفقد المكر هدفه وهو بلبلة المسلمين من الأميين ، ولذلك قال هؤلاء المتآمرون بعضهم لبعض : « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم » أى لا تكشفوا سر هذه الخدعة إلا لمن هو على شاكلتكم ، لكن الحق يكشف هذا الأمر كله بنزول هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلاغه إياها للمؤمنين ، وبذلك فسد أمر تلك البلبلة ، وارتدت الحرب النفسية إلى صدور من أشعلوها ، ويستمر القول الكريم فى كشف خديعة هؤلاء البعض من أهل الكتاب فيقول سبحانه : « قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم » .

إن الحق سبحانه يكشف فعل الماكرين من أهل الكتاب الذين أرادوا إعلان الإيمان أول النهار كلون من « هدى النفس » لكنه من صميم الضلال والإضلال وذريعة له ، ولم يكن هدى من الله ؛ لأن هدى الله إنما يوصل الإنسان إلى الغاية التى يريدها الله ، وهؤلاء البعض من أهل الكتاب أرادوا بالخديعة أن يجعلوا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم دون أتباع يؤمنون بالإسلام ؛ لقد تواصى هؤلاء القوم من أهل الكتاب بأن يكتموا اتفاقهم على تمثيل الادعاء بالإيمان وجه النهار والكفر به فى آخره ، وألا يعلنوا ذلك إلا لأهل ديانتهم حتى لا يفقد المكر هدفه ، وهو بلبلة المسلمين .

لقد أخذهم الخوف ؛ لأن الناس إن أخذوا بدين محمد صلى الله عليه وسلم لأوتوا مثلما أوتى أهل الكتاب من معرفة بالمنهج ، بل إن المنهج الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو المنهج الخاتم ، وأهل المكر من أهل الكتاب إنما أرادوا أن يحرموا الناس من الإيمان ، أو أنهم خافوا أن يدخل المسلمون معهم فى المحاجة فى أمر الإيمان ، وكان كل ذلك من قلة الفطنة التى تصل إلى حد الغباء .

لماذا ؟ لأنهم توهموا أن الله لا يعرف باطن ما كتموا وظاهر ما فعلوا ، إنهم تناسوا أن الحق يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وتطابق ذلك مع سابق فعلهم عندما خرجوا من مصر ، وذهبوا إلى التيه أثناء عبور الصحراء ، وادعوا أن الله قال لموسى عليه السلام : « علموا بيوتكم أيها الإسرائيليون ، لأنى سأنزل وأبطش بالبلاد كلها » . وكأنهم لو لم يضعوا العلامات على البيوت فلن يعرفها الله ، إنه كلام خائب للغاية بل هو منتهى الخيبة والضلال ، ويبلغ الحق رسوله الكريم : « قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » .

ومادام الفضل بيد الله فلن تستطيعوا يا أهل المكر بالمسلمين أن تأخذوا أناسا كما تودون ، وبعد ذلك تريدون أن تخدعوهم ؛ لأن الفضل حين يؤتيه الله لمن آمن به فلن ينزعه إلا الله .

فالحيلة لن تنزع فضل الإيمان بالله مادام قد أعطاه الله ، والله واسع بمعنى أنه قادر على إعطاء الفضل لكل الخلق ، ولن ينقص ذلك من فضله شيئا ، والحق سبحانه عليم بمن يستحق هذا الفضل لأن قلبه مشغول بربه .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾

إن أحدا ليس له حق على الله ؛ فكل لحظة من لحظات الحياة هى فضل من الله ، وهو سبحانه يعطى رحمته بالإيمان بمنهجه لمن يشاء وهو صاحب الفضل المطلق .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

إنه مطلق الإنصاف الإلهى ، فإذا كان الحق قد كشف للرسول بعضا من مكر أهل الكتاب فذلك لا يعنى أن هناك حملة على أهل الكتاب وكأنهم كلهم أهل سوء ، لا ، بل منهم مَنْ يتميز بالأمانة ، وهذا القول إنما يؤكد إنصاف الإله المنصف العدل .

إن الحق سبحانه يخاطب النفوس التى يعلمها ، فهو يعلم أن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، قد نزلت رحمة للناس أجمعين ، ويخاطب بها العالم كله بما فيه من أهل الكتاب ، وهم الذين يعرفون الآيات والعلامات التى تدل على مجىء رسالة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومنهم أناس قد جعلوا دعوة محمد صلى الله عليه وسلم فى بؤرة شعورهم ليدرسوها ويؤمنوا بها . ولو أن الله قد جعل الحملة على كل أهل الكتاب ، لقال الذين فكروا فى الإيمان برسول الله : « كنا نفكر فى أن نؤمن ، ونحن نريد أن ننفذ تعاليم الله لنا لكن محمدا يشن حملة على كل أهل الكتاب ونحن منهم » .

فساعة يقول الله إن بعضا من أهل الكتاب يتميزون بالأمانة فإن من تراوده فكرة الإسلام يقولون : إن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يتكلم إلا عن نور من ربه ، لكن لو عمم القرآن الحكم على الكل ، لتساءل الذين ينشغلون برغبة الإيمان بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم « لماذا يعم الحكم الجميع ونحن نسير فى الطريق إلى الإيمان ؟ » .

ولهذا يضع الحق القول الفصل فى أن منهم أناسًا يتجهون إلى الإيمان :

﴿ لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وفى هذا ما يطمئن الذين شغلوا أنفسهم بدراسة هذا الدين والتفكير فى أن يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم .

لو كان القرآن قد نزل بلعنتهم جميعا لقال الذين يفكرون منهم فى الإيمان « نحن لسنا كذلك ولا نستحق اللعنة ، فلماذا يأتى محمد بلعنتنا ؟ » .

لذلك نرى القول بأن « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك » العدل المطلق فى الإنصاف :

وقد قال بعض المفسرين : إن القرآن يقصد هنا من « أهل الكتاب » النصارى ؛

لأن منهم أصحاب ضمير حى ، ونحن نعرف أن المقصود بأهل الكتاب هم اليهود والنصارى ، وفى هذا التفسير إنصاف للنصارى فصفة الخير لهم لا ينكرها الله ، بل يشيعها فى قرآنه الذى يُتلى إلى يوم الدين ، وذلك ليصدق أيضا أهل الكتاب أىَّ أمر سىء تنزل فيه آيات من القرآن ، لأن القرآن منصف مطلق الإنصاف . فمادام قد قال خصلة الخير فيهم فلابد أن يكون صادقا عندما يقول الأمور السيئة التى اتصفوا بها . وعندما يقول الحق سبحانه : « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك » فالقنطار هنا للمبالغة فى القدر الكبير من المال ، وكلمة الأمانة حينما نستعرضها فى كتاب الله عز وجل تجد أنها مرة تتعدى بالباء ، كمثل هذه الآية « من إن تأمنه بقنطار » ومرة تتعدى بـ « على » :

﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة يوسف)

وقوله الحق :

﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة يوسف)

إن مادة الأمانة تأتى متعدية مرة بالباء ، ومرة متعدية بـ « على » .

وكل حرف من هذين الحرفين له حكمة ، فالمتكلم هو الله .

إن الأمانة هى شىء يأتمن فيه مؤتمِن على مؤتمَن ولا حجة لصاحب الشىء المؤتمَن عليه إلا ذمة المؤتمَن ، فإن كانت العلاقة بينهما محكومة بإيصال أو عقد ، أو شهود فهذه ليست أمانة ، إنما الأمانة هى ما يعطيها إنسان لآخر فيما بينهما ، وبعد ذلك فالمؤتمَن بعد ذلك إما أن يُقرّبها وإمّا لا يقرّبها .

وقلنا سابقا : إن على المؤمن الحق أن يحتاط للأمانة ، لأن هناك وقتًا تتحمل فيه الأمانة ، وهناك وقت آخر تؤدى فيه الأمانة إن طلبها صاحبها .

ومثال تحمل الأمانة كأن يعرض عليك إنسان مبلغا من المال ، ويقول : « احفظ

هذا المبلغ أمانة عندك » فتقول له : نعم سأفعل . وتأخذ المبلغ ، إن هذا الفعل يسمى « التحمل » ، وعندما يأتى صاحب المال ليطلبه فهذا اسمه « الأداء » والكل يضمنون أنفسهم وقت التحمل ، وقد تكون النية هكذا بالفعل ، ولكن المؤمن الحق لا يأمن ظروف الأغيار ، فمن المحتمل أنه عندما يأتى صاحب المال ليطلبه من المؤتمن يجد المؤمن نفسه وقد انشغل بالأغيار ، فقد تكون ظروف الحياة قد داهمته مما دفعه ليتصرف فى الأمانة أو أن تكون نفسه قد تحركت ، وقالت له : وماذا يحدث لو تصرفت فى الأمانة ؟ إن المؤمن الحق لا يضمن نفسه وقت الأداء ، وإن ضمن نفسه وقت التحمل .

إذن يجب أن نلحظ فى الأمانة ملحوظتين هما « الأداء » « والتحمل » . والذين يأخذون الأمانة وفى نيتهم أن يؤدوها ضمنوا أنفسهم وقت التحمل ، لكنهم لا يضمنون أنفسهم وقت الأداء لذلك فالمؤمن المحتاط يقول لنفسه : ولماذا أعرض نفسى لذلك ، فقد يأتى وقت الأداء فلا أستطيع ردّها لصاحبها .

لذلك يقول لصاحب الأمانة : أرجوك ابتعد عنى فأنا لن أحمل هذه الأمانة .

إنه خائف من وقت الأداء وذلك ما حدث فى أمانة التكليف والاختيار والتى قال عنها الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

إن السماء والأرض والجبال طلبوا ألا يكون لهم اختيار وأن يظلوا مقهورين ؛ لأنهم لا يضمنون لحظة الأداء ، أما الإنسان فلأنه ظلوم جهول فقد قال : « لا ، إننى عاقل وسأرتب الأمور » فالإنسان ظلوم لنفسه ، وجهول لأنه لم يعرف ماذا يفعل وقت الأداء .

لذلك نرى هنا القول الحق : « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار » ونجد الأمانة متعدية بالباء ، فمعنى الباء ـ فى اللغة ـ الإلصاق ، أى التصق القنطار

بأمانته ، فأصبح هناك ارتباط وامتزاج ، وإياك ساعة الأداء أن تفصل الأمانة عن القنطار ، فساعة يغريك قنطار الذهب ببريقه فعليك أن تلصق الأمانة بالقنطار ، وإياك أن يغريك القنطار فتترك أمانتك لأنك إن نظرت إلى القنطار دون أن تنظر إلى الأمانة فهذه هي الخيبة .

أما استعمال « على » مع الأمانة ، فـ « على » في اللغة تأتي للاستعلاء والتمكن ، أي اجعل الأمانة مستعلية على القنطار ، وبذلك تصير أمانتك فوق القنطار ، فساعة تحدثك نفسك بأن تأخذ القنطار لأنه يدير لك حركة حياتك ، ولأنه يخرجك إلى دنيا عريضة مغرية فتذكر عز الأمانة ، ولهذا نجد الفقهاء قد قالوا بقطع يد السارق في ربع دينار ، وجعلوا دية قطع يد إنسان لم يسرق خمسمائة دينار وتساءل البعض قائلا :

يد بخمس مئين عسجد وديت ما بالها قطعت في ربع دينار

فقال فقيه ردا على ذلك المعترض :

عز الأمانة أغلاها ، وأرخصها ذل الخيانة ، فافهم حكمة الباري

إذن قول الحق سبحانه وتعالى : « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك » هذا القول جاء بالباء ليلصق الأمانة بالمؤتمن عليه ، وجاء بالمؤتمن عليه وهو القنطار وهو أضخم شيء في عالم الموازين وكان من الذهب وهو أثمن المعادن وأغلاها ليؤكد على كل مؤتمن أن يلصق الأمانة بما اؤتمن عليه ولا يفصل بينهما أبدا لأنه لو فصل الأمانة وعزها عن القنطار ربما سولت له نفسه أن يأخذ القنطار ويترك الأمانة .

وكذلك عندما تأتي الأمانة متعدية بعلى، تكون الأمانة فوق الشيء المؤتمن عليه ، فالأمانة يجب أن تكون مستعلية على الشيء مهما غلت قيمته ، ويقول الحق من بعد ذلك : « ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائما » أي أن تكون دائم السؤال عن دينارك الذي ائتمنت عليه ذلك الإنسان ، وأن تلح في طلب دينارك .

ومن بعد ذلك يقول الحق : « ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل » وقد قام بعض من بني إسرائيل على عهد رسول الله ، بخديعة الأميين من العرب المؤمنين

فأنكروا حقوقهم . والمقصود بالأميين هنا المؤمنون الذين لم يكونوا من أهل الكتاب ، أو هم المنسوبون إلى الأم كما قال الحق :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

أو أن يكون المقصود « بالأميين » أهل مكة ، فقد كانوا يسمونهم كذلك لأنهم منسوبون إلى أم القرى « مكة المكرمة » .

من أين جاء أهل الكتاب إذن بهذا الأسلوب المزدوج فى معاملة الناس ؟ ومن الذى وضع هذا المنهج الذى يقضى بخديعة المؤمنين الأميين ؟ وهل الفضائل ومنازل الخلق تختلف فى المعاملة من إنسان إلى آخر ؟ وهل يقضى الخلق القويم أن يأخذ إنسان الأمانة وينكرها إذا كانت لرجل أمى ؟ ويرد الأمانة ويعترف بها إن كانت ليهودى ؟ هل يصح أن يقرض إنسان أمواله بالربا لغير اليهود ، ويقرض اليهود دون ربا ؟ إذن تكون هذه المعاملات مجحفة ، هنا فضيلة ، وهناك لا فضيلة ، لا ، إن القضية يجب أن تكون مستوية ومكتملة فى كل وقت وكل زمان ولكل إنسان ، ولا ينبغى أن تتنوع .

من أين إذن جاءوا بهذا القول وهم أهل كتاب ؟ إن هذا ضد منهج الكتاب الذى أنزله الله عليهم بل هو من التحريف والتحوير لقد خدعوا أنفسهم وألصقوا بالتشريع ما ليس فيه ، فالكتاب السماوى الذى نزل عليهم ليس به تصنيف البشر صنفين : صنف هم أهل الكتاب ولهم معاملة خاصة ، وصنف هم الأميون ولهم معاملة أخرى ، وكان عليهم أن يتعلموا من عدالة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى معاملتهم .

لقد أرخ لهم رسول الله بالنص المنزل عليه من الله التأريخ الصادق والعادل ، فى هذا القول الكريم الذى نتناوله بالخواطر إنما يسجل تاريخ اليهودية مع الإسلام . وهذا التأريخ لم يصدر فيه الله حكما واحدا يشملهم جميعا ، بل أنصف أصحاب الحق منهم ، وإن كانوا على دين اليهودية ، وبذلك استقر فى أذهان المنصفين منهم أن

الإسلام قد جاء بكل الحق ، فلو كان الإسلام قد أصدر حكما واحدا ضد كل اليهود سواء من وقف منهم ضد دعوة رسول الله أو المنصف منهم الذى تراوده فكرة الإيمان بالإسلام ، لو كان مثل ذلك الحكم العام الشامل قد صدر لقال المنصفون من اليهود : نحن نفكر فى أن نؤمن بالإسلام فكيف يهاجمنا الإسلام هذه المهاجمة ؟ لكن الإسلام جاء لينصف فيعطى كل ذى حق حقه .

وهؤلاء هم الذين يؤرخ الله لهم بالقول : « من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك » وتلك شهادة على صدق اليقين من هؤلاء ، أما الذين طغت عليهم المادية فهؤلاء هم الذين جاء فيهم القول الحكيم : « ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائما » وهذا هو التأريخ الصادق لمن طغت عليهم المادية فلا يرد الإنسان منهم ما عليه إلا بعد الملاحقة والمطاردة ، وهكذا يبلغنا القرآن التاريخ بصدق .

والعلة فى أن الذى يؤتمن على قنطار يؤديه ، والذى يؤتمن على دينار لا يؤديه هى علة واضحة . فالمؤتمن على قنطار ويؤديه هو إنسان ملتزم أمام إله موصوف باسم الحق ، ولا يريد الله من عباده إلا أن يواجهوا حركة حياتهم بالحق .

وأكرر هنا مرة أخرى ، إن كلمة « الأمانة » ترد فى القرآن الكريم مرة وهى متعدية بـ « على » ، ومرة أخرى وهى متعدية بالباء ، لأن الباء تأتى فى اللغة لإلصاق شىء بشىء آخر ، فكأنك إذا اؤتمنت أيها المسلم فلابد أن تلتصق بالأمانة حتى تؤديها ، وكذلك جاءت الأمانة متعدية بـ « على » ، أى أنك أيها المؤمن إذا اؤتمنت فعليك أن تستعلى على الشىء الذى اؤتمنت عليه . فإذا ما اؤتمنت على مائة جنيه مثلا فلا تنظر إلى ما يعود عليك من نفع إذا ما تصرفت فى هذا المبلغ ، بل يجب أن تستعلى على تلك المنفعة . فإياك أن تغش نفسك أيها المؤمن بفائدة ونفاسة الشىء الذى تختلسه من الأمانة ، بل قارن هذا الشىء بالأمانة فستجد أن كفة الأمانة هى الراجحة .

والذين استباحوا خيانة الأمانة من أهل الكتاب ، إنما عميت بصيرتهم عن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نال الشهرة بالأمانة سواء قبل الرسالة أو بعدها . وعميت أبصارهم ، إن الدين الحق لا يفرق فى أداء الأمانة بين صنف من البشر ، وصنف آخر ؛ فالدين الحق يضم تشريعا من إله خلق الجميع وهكذا نجد أن تشريعهم بالتفرقة فى أداء الأمانة هو تشريع من عند أنفسهم ، وليس من الرب المتولى شئون خلقه جميعا ، ويدحض الحق القضية التى حكموا بوساطتها أن يعاملوا الأميين

معاملة تختلف عن معاملتهم لأهل الكتاب ، فقال سبحانه : « ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » .

يعلمون ماذا ؟ يعلمون أن قولهم كذب ، فهم يعرفون الحكم الصحيح وينحرفون عنه ، ويا ليتهم قالوا : إن ذلك الحكم من عند أنفسهم ، لكنهم ينسبون ذلك إلى تعاليم دينهم ، وتعاليم الدين ـ كما قلنا ـ مأخوذة من الله ، وهم بذلك ـ والعياذ بالله ـ يفترون على الله كذبا بأنه خلق خلقا ثم صنفهم صنفين : صنفا تؤدى الأمانة له ، وصنفا لا تؤدى الأمانة له ، وهكذا كذبوا على الله وعلموا أنهم كاذبون ، وهذا هو الافتراء . وهم أيضا يعلمون العقوبة التى تلحق من يكذب على الله ورغم ذلك كذبوا .

لقد حذف الحق فى هذه الآية المفعول به فلم يقل : « يعلمون كذا » . الحق حين يحذف « المفعول » فهو يريد أن يعمم الفهم ويريد أن يعمم الحركة ، إنه سبحانه يريد أن يبلغنا بأن هؤلاء يعلمون أن قولهم هذا كذب ، ويعلمون عقوبة ذلك الكذب . . وساعة تأتى قضية منفية ثم يأتى بعدها كلمة « بلى » فإنها تنقض القضية التى سبقتها ومعنى ذلك أنها تثبت ضدها . لقد قالوا :

« ليس علينا فى الأميين سبيل » وهذه قضية منفية بـ« ليس »، والحق يقول فى الآية التالية :

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

إن قول الحق فى بداية هذه الآية « بلى » إنما جاء لينقض القضية السابقة التى ادعاها أهل الكتاب ، وكأن الحق يقول : أى عليكم فى الأميين سبيل ؛ لأن المشرع هو الله ، والناس بالنسبه له سبحانه سواء .

وبعد ذلك يأتى قول الحق بقضية عامة :

﴿ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

(من آية ٧٦ سورة آل عمران)

ما العهد هنا ؟ وأى عهد ؟

إنه العهد الإيمانى الذى ارتضيناه لأنفسنا بأننا آمنا بالله وساعة تؤمن بالإله فمعنى إيمانك به هو حيثية قبولك لكل حكم يصدر منه سبحانه ، وأن تلتزم بما يطلبه منك . وإن لم تلتزم بما يطلبه منك كان إيمانك بلا قيمة ؛ لأن فائدة الإيمان هو الالتزام . ولذلك قلنا : إن الحق سبحانه وتعالى حينما يريد تشريع حكم لمن آمن به ينادى أولا يأيها الذين آمنوا كتب عليكم كذا ، إن الحق سبحانه لا ينادى فى التكليف كل الناس ، إنما ينادى من آمن وكأنه سبحانه يقول : « يا من آمن بى إلها ، اسمع منى الحكم الذى أريده منك ، أنا لا أطلب ممن لم يؤمن بى حكما ، إنما أطلب ممن آمن » .

وهنا يقول الحق : « من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين » وقد يفهم البعض هذا القول بأن من أوفى بعهده الإيمانى واتقى الله فى أن يجعل كل حركاته مطابقة لـ « افعل ولا تفعل » فإن الله يحبه . هذا هو المعنى الذى قد يفهم للوهلة الأولى ، لكن الله لم يقل ذلك ، إن « الحب » لا يرجع إلى الذات بل يرجع إلى العمل ، لقد قال الحق : « فإن الله يحب المتقين » .

إن الإنسان قد يخطىء ويقول : « لقد أحبنى الله ، وسأفعل من بعد ذلك ما يحلو لى » ونحن نذكر صاحب هذا القول بأن الله يحب العمل الصالح الذى يؤديه العبد بنية خالصة لله وليس للذات أى قيمة . لذلك قال : « من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين » .

إن الذى أوفى بعهده واتقى سيحب الله فيه التقوى ، وإياك أن تفهم أن الحب من الله للعبد سيصبح حبا ذاتيا ، لكنه حب لوجود الوصف فيه ، فاحرص على أن يكون الوصف لك دائما ، لتظل فى محبوبية الله .

ولذلك نقول : إن الحق سبحانه وتعالى أوضح لنا أن الذات تتناسل من ذات ، والذوات عند الله متناسلة من أصل واحد . فالجنس ليس له قيمة ، إنما القيمة للعمل الصالح .

وقد ضربنا المثل قديما ، وقلنا : إن الحق سبحانه وتعالى حينما وعد نوحا عليه السلام بأن ينجيه من الغرق هو وأهله ، ثم فوجىء نوح بأن ابنه من المغرقين ، قال سبحانه حكاية عما حدث :

﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة هود)

ماذا فعل نوح عليه السلام ؟ لقد نادى ربه طالبا نجاة ابنه :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة هود)

ويعلمنا الله من خلال رده على نوح ، أن أهل الأنبياء ليسوا من جاءوا من نسلهم ، إنما أهل الأنبياء هم من جاءوا على منهجهم ، لذلك قال الحق لنوح عن ابنه :

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ﴾

(من الآية ٤٦ من سورة هود)

لماذا يكون ابن نوح ليس من أهل نوح ؟ ذلك لأن أهل النبوة هم الذين يتبعون منهج النبوة ، ولذلك لم يقل الحق لنوح عن ابنه : « إنه عامل غير صالح » لكن الحق سبحانه قال عن ابن نوح : « إنه عمل غير صالح » .. لقد نسب الحق الأمر إلى العمل .

إذن فالحكمة هي أن الله سبحانه وتعالى فى أسلوبه القرآنى يوضح لنا أن الله لا يحب شخصا لذاته ، إنما لعمله وصفاته فلم يقل : « من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحبه » ، لأن « الهاء » هنا ترجع إلى الذات ، إن فى ذلك إيضاحًا كامل البيان بأن الله يحب عمل العبد لا ذات العبد ، فإن حرص العبد على محبوبية الله فذلك يتطلب من العبد أن يظل متبعا لمنهج الله ، وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

وساعة نسمع كلمة « شراء وبيع » فلابد أن نتوقف عندها ؛ لنفهم معناها بدقة . ونحن فى الريف نرى المقايضات أو المبادلات فى الرزق الذى له نفع مباشر ، كأن يبادل طرف طرفا آخر ، قمحا بقماش ، فهذه سلعة يتم مبادلتها بسلعة أخرى ، وعلى ذلك فليس هناك شارٍ وبائع ، لأن كلا من الطرفين قد اشترى وباع . وهنا نسأل : متى يصبح الأمر إذن شراء وبيعا ؟

إن الشراء والبيع يحدث عندما نستبدل رزقا مباشرا برزق غير مباشر ، ومثال ذلك عندما يشترى الإنسان رغيف خبز بخمسة قروش ، إن هذا هو الشراء والبيع ، لأن الخمسة قروش هى رزق غير مباشر النفعية ؛ لأن النقود لا تشبعك ولا ترويك من عطشك ولا تسترك . والرغيف هو رزق مباشر النفعية لأنه يشبعك ويدفع عنك الجوع وعندما يحب الإنسان أن يشترى شيئا فإن الذى يدفعه فى الشراء يسمى ثمنا .

إذن فكيف يشترى الثمن ؟

إن الحق يوضح لنا أن الأثمان لا تكون مشتراة أبدا ، إنما مُشْتَرى بها ، ولذلك تكون أول خيبة فى صفقة الذين يشترون بعهد الله ثمنا قليلا ، أنهم اشتروا الثمن ، بينما الثمن لايُشترى ، فالذى يشترى هو السلعة . ويا ليت الثمن الذى اشتروه ثمن له قيمة ، لكنه ثمن قليل ، ومن هنا جاء تحريم الربا لأن المرابى يعطى الشخص مائة ، ويريد أن يسترده مائة وعشرة ، ويكون المرابى فى هذه المسألة قد جعل النقود سلعة ، وهكذا تكون الصفقة خائبة من بدايتها .

إذن فأول خيبة فى نفوس الناس الذين يستبدلون الهدى ويأخذون بدلا منه الضلالة ، إنهم خاسرون .

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

والحق سبحانه يقول هنا : « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا » . ونعرف أن « الباء » دائما تدخل على المتروك ، أى أنهم تركوا عهد الله والأيمان التى حلفوا بها على التصديق بالرسول ، وعلى نصرته إذا جاءهم ، أنهم اشتروا ذلك بثمن قليل ، كيف يحدث ذلك ؟ هذه المسألة واقعة حال ، وإن كان المراد عموم الموضوع لا خصوص السبب ، فلا يقولن أحد : إن هذه الآية نزلت فى الأمر الفلانى فلا شأن لى بها ، لا.فكل من يشترى بآيات الله ثمنا قليلا تنطبق عليه هذه الآية .

وواقعة الحال التى نزلت فيها الآية هى أن جماعة فى عهد جدب ومجاعة دخلت على كعب بن الأشرف اليهودى يطلبون منه الميرة ـ أى الطعام والكسوة ـ فقال لهم : هل تعلمون أن هذا الرجل رسول الله ؟ قالوا نعم ، قال : إننى هممت أن أطعمكم وأن أكسوكم ولكن الله حرمكم خيرا كثيرا وتساءلوا : لماذا حرمنا الله الخير الكثير ؟ وجاءتهم الإجابة لقد أعلنتم الإيمان بمحمد فلما وجدوا أنفسهم فى هذا الموقف ، قالوا لكعب بن الأشرف : دعنا فترة لأنه ربما غلبتنا شبهة ، فلنراجع فيها أنفسنا . وعندما مرت الفترة ، فضلوا الطعام والكسوة على الإيمان ، وقالوا لكعب بن الأشرف : لقد قرأنا فى كتبنا الموجودة لدينا خطأ ، ومحمد ليس رسولا . فأعطاهم كعب القوت والكسوة . وهؤلاء هم الذين اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا ، وهو الطعام والكسوة . وكل من يشترى بآيات الله ثمنا قليلا ، فهو يطمس حكما من أحكام الله من أجل أن يتظاهر أمام الناس أنه عصرى ، أو أنه مساير لروح الزمان ، أو يزين لأولياء الأمر فعلا من الأفعال لا يرضى عنه الله .

إذن فالذى يفعل مثل ذلك إنما يشترى بآيات الله ثمنا قليلا ، وكل من يجعل آية من آيات الله عرضة للبيع من أجل أن يأخذ عنها ثمنا يُعتبر داخلا فى هذا النص « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا » .

والمقصود هنا بعهد الله ، إما أن يكون عهد الفطرة أو العهد الذى أخذه الله على أهل الكتاب بأنهم إن أدركوا بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلابد أن يعلنوا الإيمان به وهو العهد الذى جاء به القول الحق :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ

﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾

(سورة آل عمران)

إذن فعندما جاءت صفة تكذيبهم لما أعلنوه من إيمان سابق مقابل الميرة والكسوة فهم قد تركوا عهد الله وأخذوا الثمن القليل من الميرة والكسوة ، وكان ذلك خيبة كبرى فهم قد اشتروا الثمن ، والثمن مع ذلك قليل ، ولذلك يقول عنهم الحق :

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾

(سورة آل عمران)

وكلمة « أولئك » تدل على أن الصلة وهي « يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا » تلحق بهم كل من يتصف بهذه الصفات وتجعل له المصير نفسه . فهذه الآية وإن نزلت فى هؤلاء الأشخاص الذين جرت منهم حادثة شراء الطعام والكسوة مقابل النكوص عن الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنها تشمل كل متصف بهذه الصفة وكل من كان على هذا اللون فى أى عصر ، وفى أى دين من الأديان ، ويصفهم الحق سبحانه بـ« أولئك لا خلاق لهم » .

وكلمة « خلاق » وكلمة « خُلق » وكلمة « خليقة » وكلمة « خلق » كلها تدور حول معنى يكاد يكون متقاربا ، فالخلق ـ بضم الخاء واللام ـ أن توجد صفة فى الإنسان تغلب عليه حتى تصير ملكة . فيقال : « فلان عنده خلق الصدق » أو « فلان خلقه الكرم » ومعناه : أن فلانا الأول صار الصدق عنده ملكة ولا يتعب نفسه فى أن يكون صادقا بل صار الصدق أمرا طبيعيا فيه ، وكذلك وصف فلان الثانى بالكرم أى أن الكرم صار ملكة وسجية عنده .

وهذه الملكة فى الأمور المعنوية تساوى الألية فى الأمور الحسية ؛ لأننا نعرف أن كل فعل من الأفعال يحتاج إلى دربة ليكون الإنسان متميزا فى أدائه ، وعلى سبيل المثال ، العامل الذى ينسج على آلة يحتاج إلى أن يتدرب على تحريك مكوك الخيط ، وأن يتعلم كيف يحرك المكوك بين خيوط النسيج ، وبعد ذلك يختلف الخيطان معا لتمسك

بها حركة المكوك الثانية فى ارتدادها ، وبذلك يتم النسيج ، وحين يتدرب إنسان على هذا العمل فهو يحتاج إلى وقت طويل ، ليصل إلى كفاءة الحركة .

فى بداية التدريب يكون الأمر صعبا ، ويستطيع النساج بعد أن يتقن التدريب أن يجلس أمام آلة النسيج ويداه تحرك المكوك بآلية . لقد صارت المسألة بالنسبة إلى النساج المتدرب آلية .

وسبق أن ضربت المثل بالإنسان الذى يتعلم قيادة السيارة ، فالمدرب يعلمه كيف يدير المفتاح ، وكيف ينتظر لتسخين المحرك ، وكيف يفك مكبح السيارة ، ثم كيف يحرك عصا التحكم فى اندفاع السيارة ، وكيف يوازن بين الضغط على بدال الوقود والضغط على بدال التحكم الفاصل ، وكيف يوازن بين سير السيارة بتخفيض السرعة بلمسات خفيفة لبدال المكبح .

وقد يخطىء الإنسان فى بداية التعلم ويرتبك ، ولكنه بعد تمام التدريب فإنه يعمل بآلية وبدون تفكير ، إنه عمل آلى لا يحتاج إلى تفكير ، وضربت فى السابق مثالا بالصبى الذى يتعلم حياكة الملابس ، إنه يأخذ وقتا ليضع الخيط فى سم الإبرة ، وتقع منه الأخطاء فى قياس المسافات المختلفة بين الغرز ، لكنه من بعد ذلك يتدرب على فعل هذه الأعمال التى كانت صعبة ، ويؤديها بآلية ، والعمل الآلى فى الأمور المحسة ، يقابل الملكة فى الأمور المعنوية ، فيقال : « إن الصدق عند فلان ملكة » أى أنه إنسان لا يرهقه أن يكون صادقا .

ونحن أثناء تعليم أبنائنا للنحو ـ مثلا ـ نقول لهم : « إن حكم الفاعل الرفع والمفعول به منصوب » وعندما ينطق الابن عبارة ما ، فإنه يحاول تطبيق القاعدة أثناء القراءة ، وقد ينساها ، أو يتلجلج ، وعندما يتذكرها فإنه ينطق الكلمات برسمها الصوتى الصحيح ، وبعد أن يتم التدريب على القاعدة ويقرأ الابن ، فإن أخطاءه تتلاشى ، وبذلك يصير النحو ملكة عنده .

وكذلك الخلق ، إن الخلق صفة ترسخ فى النفس ، فتصدر عنها الأفعال بيسر وسهولة ، فيقال : « الصدق له خلق » ، و« الكرم له خلق » ، و« الشجاعة له خلق » إنها الصفات التى ترسخ فى النفس فتصدر عنها الأفعال فى يسر وسهولة . والحق سبحانه يقول : « أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة » وقد فسر البعض حرمان أولئك من الخلق بأن هذا الصنف من الناس لا نصيب لهم من الخلق ، لأن الخلق

صفة راسخة فى الإنسان ، والحق يحدد الزمن بأنه « فى الآخرة » . والآخرة هى الوقت الذى لا يمكن التدارك فيه ، فالآخرة هى يوم التقييم الصحيح والنهائى .

إن الإنسان قد لا يكون له نصيب السلوك القويم فيعدل سلوكه حتى يكتسب هذا السلوك القويم فى الدنيا لكن الإنسان لا يستطيع فى الآخرة أن يجد مجالا للاستدراك ، وهذه هى الخيبة القوية .

فالإنسان فى الدنيا ، قد يقوم بعمل ما ولا يكون له نصيب من أجره أو قد لا نرى نحن الجزاء والنصيب الذى يعطيه له الله ولكن الله يعوضه فى الآخرة عن هذا العمل الذى لم يكن له نصيب منه فى الدنيا أما من لا خلاق له فى الآخرة فكيف يتم التعويض ؟ إنّ ذلك أمر مستحيل ؟

ويضيف الحق « ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهمَ يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » وقد يقول قائل : ألم يقل القرآن الكريم فى موقع آخر ، إن الله يقول للكافرين :

﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

فلماذا يقول الحق لهم مرة : « اخسئوا فيها ولا تكلمون » ، ومرة أخرى يقول الحق : « لا يكلمهم الله »؟ . ونجيب على مثل هذا القول : إن الحق لا يكلمهم كلاما ينفعهم ، أو أنه سبحانه يكلمهم بواسطة ملائكته ، ولكن كيف لا ينظر إليهم الله ؟

وساعة نجد أمرا يوجد فى الناس وله نظير منسوب لله سبحانه وتعالى ويقوله سبحانه عن نفسه ، فلابد أن نأخذ هذا الأمر فى إطار : « ليس كمثله شيء » .

إننا فى مجالنا البشرى نقول : « فلان لا ينظر إلى فلان » أى أنه لا يوجه عيونه إليه ، ويحول حدقتيه عنه ، لكن لا يمكن قياس ذلك على الله ، لأن الله منزه عن التشبيه ففى الوضع البشرى نجد إنسانا يحب صديقا له فيقبل عليه بالوجه والنظر فيقال : «فتى هو قيد العين » أى أنه شاب عندما تنظر إليه العين فهو يقيد العين

فلا تذهب عنه إلى أى مكان آخر؛ ففى هذا الشاب محاسن تجعل العين لا تذهب بعيدا عنه . وهكذا نأخذ إقبال العين بالنظر على المنظور أو على المرئى كسمة للاهتمام به ، وهذا صحيح فى الوضع البشرى .

لكن إذا ما جاء ذلك بالنسبة لله ، هنا نأخذ المسألة فى إطار : « ليس كمثله شىء » . وهكذا نفهم عدم نظر الله إلى « الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا » بأن الله يهملهم ، ولا يهتم بهم « لا ينالهم الله برحمته » ، فالحق سبحانه منزه عن كل تشبيه ، وهكذا الأمر فى عدم نظر الحق إليهم ، نأخذ الأمر أيضا فى إطار : « ليس كمثله شىء » إن ولى الأمر من البشر عندما يرغب فى عقاب أحد رعاياه ، لا ينظر إليه ويهمله ، فما بالنا بإهمال الحق سبحانه وتعالى ؟! إنه إبعاد لهم عن رحمة الله ورضوانه .

ويضيف الحق سبحانه « ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » والتزكية تأتى بمعنى التطهير ، أو بمعنى الثناء أو النماء والزيادة فنقول : « فلان زكى فلانًا » أى أثنى عليه ويقال أيضا : « فلان زكى فلانا » أى طهره ، ومن هذا تكون « الزكاة » التى هى تطهير ونماء .

وعندما يخبرنا الحق سبحانه أنه لا يكلم ذلك الصنف من البشر ولا ينظر إليهم ولا يطهرهم من أوزارهم ، فهذا مقدمة لما أعده لهم بقوله : « ولهم عذاب أليم » .

وكأن الحق سبحانه قد أورد هذا المصير بالنسبة لهذا الصنف من البشر حتى لا يقول أحدهم ليس مُهمًا أن الله لن يكلمنى ولن ينظر إلى ، ولن يزكينى ، ولكنه قد يدخلنى الجنة ، لا . لن يدخل واحد من هذا الصنف من البشر الجنة بل له ولأمثاله العذاب الأليم . وحين يقال : « ولهم عذاب أليم » فلابدِ أن نأخذ قوة الحدث بفاعل الحدث .

وفى حياتنا العادية عندما يقال : « صفع الطفل فلانا الرجل » نفهم بطبيعة الحال أن صفعة الطفل تختلف فى قوتها عن صفعة الشاب ، وكذلك صفعة الشاب تختلف عن صفعة بطل فى الملاكمة . إذن فالحدث يختلف باختلاف فاعله قوة وضعفا على المفعول به الذى هو مناط الحدث، فإذا كان فاعل العذاب هو الله فلابد أن يكون عذابا

أليما ؛ ولا حدود لألمه ، أنجانا الله وإياكم منه . ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

أى أنهم يلوون ألسنتهم بالكلام الصادر من الله ليحرفوه عن معانيه ، أو يَلْوُون ألسنتهم عندما يريدون التعبير عن المعانى . و« اللى » هو الفتل ، فنحن عندما نفتل حبلا ، نحاول أن نجدل بين فرعين اثنين من الخيوط ، ثم نفتلهم معا لنصنع حبلا ، والهدف من الفتل هو أن نصنع قوة من شعيرات الخيوط، فهذه الشعيرات لها قوة محدودة، وعندما نفتل هذه الخيوط فإننا نزيد من قوة الخيوط بجدلها معا.

إذن فالفتل المراد به الوصول إلى قوة ، وهكذا نرى أنهم يلوون ألسنتهم بكلام يدعون أنه من المنهج المنزل من عند الله ، وهذا الكلام ليس من المنهج ولم ينزل من عند الله إنّهم يفعلون ذلك لتقوية مركزهم والتنقيص من مكانة الإسلام والطعن فى الرسول كما قالوا من قبل : « راعنا » ، لذلك قال الحق مخاطبا المؤمنين :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن الحق يوضح لنا ألا نعطى لهم فرصة لتحريف كلام الله ، فهو سبحانه القائل :

﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

لقد فضحهم ـ الحق سبحانه ـ لنا ، وهم يحرفون الكلام عن موضعه، فقد قال الحق هذا القول بمعنى : أن الذى تسمعه لا يضرك لقد سجل الله عليهم أنهم قالوا سمعنا وعصينا كما قاموا بتحريف الكلمة وقالوا : « اسمع غير مسمع » أى « لا سمعت أبدا » ، تماما كما أخذوا من قبل قول الله :

﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾

(من الآية ١٦١ من سورة الأعراف)

وحرفوا هذا القول : « وقولوا حنطة » ، وهم قد فعلوا ذلك حتى نحسب هذا التحريف من الكتاب ، وما هو من الكتاب ، أى أنهم يفتلون بعضا من المعانى المستنبطة من الكلمات حتى يوهموا المؤمنين بأن هذه المعانى غير المرادة وغير الصحيحة هى معان مرادة لله ، وصحيحة المعنى ، إنهم يدعون على المنهج المنزل من السماء ما ليس فيه ، ولذلك قال سبحانه : « لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب » إنهم عندما يلوون ألسنتهم بالكتاب يحرفونه رغبة فى التلبيس والتدليس عليكم لتظنوا أنه من الكتاب المنزل من عند الله على رسولهم ، إنهم لو فعلوا ذلك فحسب لجاز أن يتوبوا ويرجعوا إلى ربهم ويندموا على ما فعلوا .

أما قولهم بعد ذلك : « هو من عند الله » فهو دليل على أنهم أحدثوا فى الكتاب شيئا وأصروا عليه فجاءوا بقولهم : (هو من عند الله) لينفوا عن أنفسهم شبهة أن يُدعى عليهم أنهم حرفوا الكتاب ، ولو لم يكونوا قد حرفوا الكتاب أكانت تخطر ببالهم ، هذه ؟ إن أمرهم جاء من باب (يكاد المريب أن يقول خذونى) إنهم بهذا القول يحتالون على إخفاء أمر حدث منهم . إن الحق ـ سبحانه ـ يؤكد أن الخيانة تلاحقهم فيقول : (وما هو من عند الله) ، فهذه الآية الكريمة تفضحهم وتكشف تحريفهم لكتاب الله ، يقول سبحانه : « ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون »

إنهم يعرفون أن ما يقولونه هو الكذب ، والكذب كما عرفنا هو أن تكون النسبة الكلامية غير مطابقة للواقع ، فالنسب فى الأحداث تأتى على ثلاث حالات :

نسبة واقعة .

نسبة يفكر فيها وهى نسبة ذهنية .

نسبة ينطق بها .

فعندما نعرف إنسانا اسمه محمد ، وهو مجتهد بالفعل فهذه نسبة واقعة

وإذا خطر ببالك أن تخبر صديقا لك باجتهاد محمد فهذا الخاطر نسبة ذهنية .

وساعة تنطق بهذا الخبر لصديق لك صارت النسبة كلامية . والصدق هو أن تكون النسبة الكلامية لها واقع متسق معها كأن يقول : « محمد مجتهد » ويكون هناك بالفعل من اسمه محمد وهو مجتهد بالفعل ، وبهذا تكون أنت الناطق بخبر اجتهاد محمدٍ إنسانا صادقا ، أما إن لم يكن هناك من اسمه محمد ومجتهد فالنسبة الكلامية لا تتفق مع النسبة الواقعية ، لذلك يصير الخبر كاذبا . والعلماء يفرقون بين الصدق والكذب بهذا المعيار . فالصدق : هو مطابقة الكلام للواقع ، والكذب : هو عدم مطابقة الكلام للواقع .

وحاول بعض من الذين يحبون التشكيك أن يقفوا عند سورة المنافقين التى يقول فيها الحق :

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾

(سورة المنافقون)

لقد قال المنافقون : نشهد إنك لرسول الله ، وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو رسول من عند الله بالفعل ، والحق سبحانه يقول : « والله يعلم إنك لرسوله » فهل علمهم كعلم الله ؟ لا ، لأن الله سبحانه قال : « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » ، فكيف يصفهم الحق بأنهم كاذبون مع أنهم شهدوا بما شهد هو به ؟

إن الحق لا يكذبهم فى أن محمدا رسول الله فهذه قضية صادقة ، ولكنه سبحانه قد كذبهم فى قضية قالوها وهى : « نشهد » ، لأن قولهم : « نشهد » تعنى أن يوافق الكلام المنطوق ما يعتقدونه فى قلوبهم ، وقولهم : « نشهد » هو قول لا يتفق مع ما فى

قلوبهم ، .ولذلك صاروا كذابين ، فلسان كل منهم لا يوافق ما فى قلبه .

إذن فقوله الحق : « ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » ، أى إنهم يقولون كلاما ليس له نسبة خارجية تطابقه ، وهم يعلمون أنه كذب ، حتى لا نقول : إنهم نطقوا بذلك غفلة ، لقد تعمدوا الكذب ، وهم يعرفون أنهم يقولون الكذب . والدقة تقتضى أننا يجب أن نفرق بين صدق الخبر ، وصدق المخبر . صدق الخبر هو أن يطابق الواقع لكن أحيانا يكون المخبر صادقا ، والخبر فى ذاته كذب ، كأن يقول واحد : « إن فلانا يستذكر طول الليل » لأنه شاهد حجرة فلان مضاءة وأنه يفتح كتابا ، بينما يكون هذا الفلان غارقا فى قراءة رواية ما ، إن المخبر صادق فى هذه الحالة ، لكن الخبر كاذب .

ولكن فى مجال الآية نحن نجد أنهم كاذبون عن عمد ، فاللسان هو وسيلة بيان ما فى النفس :

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

ونحن نعرف أن الحق سبحانه وتعالى حين ينزل منهجه ، فهو ينزله فى كتاب ، ويقتضى ذلك أن يصطفى سبحانه إنسانا للرسالة ، أى أن الرسول يجىء بمنهج ويطبقه على نفسه وبلاغ للناس ، الرسول مصطفى من الله ويختلف فى مهمته عن

النبى، فالنبى أيضا مصطفى ليطبق المنهج، وهكذا حتى لا يسمع الناس المنهج ككلام فقط ولكن يرونه تطبيقا أيضا، إذن فالرسول واسطة تبليغية ونموذج سلوكى، والنبى ليس واسطة تبليغية، بل هو نموذج سلوكى فقط.

إن الحق سبحانه وتعالى يرسل النبى ويرسل الرسول، ولذلك تأتى الآية:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة الحج)

هكذا نعرف أن الرسول والنبى كليهما مرسل من عند الله، الرسول مرسل للبلاغ والأسوة، والنبى مرسل للأسوة فقط، لأن هناك بعضا من الأزمنة يكون المنهج موجودا، ولكن حمل النفس على المنهج هو المفتقد، ومثال ذلك عصرنا الحاضر.

إن المنهج موجود وكلنا تعلم ما الحلال وما الحرام، لكن خيبة هذا الزمان تأتى من ناحية عدم حمل أنفسنا على المنهج ،لذلك فنحن نحتاج إلى أسوة سلوكية، هكذا عرفنا الكتاب، والنبوة، فما هو الحكم إذن؟

لقد جاء الحق بكلمة: «الحكم» هنا ليدلنا على أنه ليس من الضرورى أن توجد الحكمة الإيمانية فى الرسول أو النبى فقط، بل قد تكون الحكمة من نصيب إنسان من الرعية الإيمانية، وتكون القضية الإيمانية ناضجة فى ذهنه، فيقولها لأن الحكمة تقتضى هذا. ألم يذكر الله لنا وصية لقمان لابنه؟ إن وصية لقمان لابنه هى المنهج الدينى، وعلى ذلك فمن الممكن أن يأتى إنسان دون رسالة أو نبوة، ولكن المنهج الإيمانى ينقدح فى ذهنه، فيعظ به ويطبقه، وهذا إيذان من الله على أن المنهج يمكن لأى عقل حين يستقبله أن يقتنع به، فيعمل به ويبلغه.

ولابد لنا أن نؤكد أن من يهبه الله الحكمة فى الدعوة لمنهج الله وتطبيق هذا المنهج، لن يضيف للمنهج شيئا، وبحكم صدقه مع الله فهو لن يدعى أنه مبعوث من الله للناس، إنه يكتفى بالدعوة لله وبأن، يكون أسوة حسنة.

لكن لماذا جاءت هذه الآية ؟ لقد جاءت هذه الآية بعد جدال نصارى نجران مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، وأثناء الجدال انضمت إليهم جماعة من اليهود ، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ بماذا تؤمن وتأمر ؟ فأبلغهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأوامر المنهج ونواهيه ، وأصول العبادة ، ولأن تلك الجماعة كانوا من أهل الكتاب ، بعضهم من نصارى نجران والبعض الآخر من يهود المدينة ، وكانوا يزيفون أوامر تعبدية ليست من عند الله ، ويريدون من الناس طاعة هذه الأوامر ، لذلك لم يفطنوا إلى الفارق بين منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوامره ، وبين ما زيفوه هم من أوامر ، فمحمد صلى الله عليه وسلم يطلب من الناس عبادة الله على ضوء المنهج الذى أنزله عليه الحق سبحانه ، أما هم فيطلبون طاعة الناس فى أوامر من تزييفهم .

والطاعة ـ كما نعلم ـ هى لله وحده فى أصول كل الأديان ، فإذا ما جاء إنسان بأمر ليس من الله ، وطلب من الناس أن يطيعوه فيه ، فهذا معناه أن ذلك الإنسان يطلب أن يعبده الناس ـ والعياذ بالله ـ لأن طاعة البشر فى غير أوامر الله هى شرك بالله . ولهذا تشابهت المواقف على هذا البعض من أهل الكتاب ، وظنوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم يطلب منهم طاعتهم لأوامره هو ، كما كانوا يطلبون من الناس بعد تحريفهم للمنهج وقالوا : أتريد أن نعبدك ونتخذك إلها ؟

إنهم لم يفطنوا إلى الفارق بين الرسول الأمين على منهج الله ، وبين رؤسائهم الذين خالفوا الأحكام واستبدلوها بغيرها ، فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يطلب منهم طاعته لذاته هو ، ولكنه قد طلب منهم الطاعة للمنهج الذى جاء به رسولا وقدوة ، واستنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قالوه .

وأنزل الله سبحانه قوله الحق :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة آل عمران)

لقد بلغت بهم الغفلة والشرك أنهم ظنوا أن الله لم يختر رسولا أمينا على المنهج ، وظنوا بالله ظن السوء ، أو أنهم ظنوا أن الرسول سيحرف المنهج كما حرفوه هم ، فتحولوا عن عبادة الله إلى عبادة من بعثه الله رسولا ، ولذلك جاء القول الفصل « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله » .

وقد ينصرف المعنى أيضا إلى أن بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يجلونه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكل مؤمن مطلوب منه أن يجل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يعظمه ، ومن فرط حب بعض الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له : أنسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض ، ألا نسجد لك ؟

إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يطلب السجود له من أحد ، والحق سبحانه هو الذى كلف عباده المؤمنين بتكريم رسوله فقال :

﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) ﴾

(سورة النور)

إن المطلوب هو التعظيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا أن نعطى له أشياء لا تكون إلا لله . إن تعظيم المسلمين لرسول الله وتكريمهم له هو أن نجعل دعاءه مختلفا عن دعاء بعضنا بعضا .

والحق فى هذه الآية التى نحن فى مجال الخواطر عنها وحولها يقول : « ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » .

إن « لكن » هنا للاستدراك ، مثلما قلنا من قبل : إن « بلى » تنقض القضية التى قبلها وتثبت بعدها قضية مخالفة لها . إن الحق يستدرك هنا لنفهم أنه ليس لأحد من البشر أن يقول : « كونوا عبادا لى » بعد أن أعطاه الله الكتاب والحكم والنبوة ، والقضية التى يتم الاستدراك من أجلها وإثباتها هى : « كونوا ربانيين » وكلمة « رباني » ، وكلمة « رب » ، وكلمة « ربيون » ، وكلمة « ربان » ، وكل المادة المكونة من « الراء » و« الباء » تدل على التربية ، والولاية ، وتعهد المربى ، وتدور

حول هذا المعنى . أليس ربان السفينة هو الذى يقود السفينة ؟

وكلمة « الرب » توضح المتولى للتربية ، إذن فما معنى كلمة « ربانى » ؟ إنك إذا أردت أن تنسب إلى « رب » تقول : « ربىّ » . وإذا أردنا المبالغة فى النسبة نضيف لها ألفا ونونا فنقول : « ربانى » ولذلك نجد فى التعبيرات المعاصرة من يريدون أن ينسبوا أمرا إلى العلم فيقولون : « علمانى » وفى ذلك مبالغة فى النسبة إلى العلم . والفرق بين « علمى » و« علمانى » هو أن العلمانى يزعم لنفسه أن كل أموره تمشى على العلم المادى ، ونجد أن فى « علمانى » ألفا ونونا زائدين لتأكيد النسبة إلى العلم .

وقد يقول قائل : ولماذا نؤكد الانتساب إلى الله بكلمة « ربانى » ؟

ونقول : لأن الكلمة مأخوذة من كلمة رب ، وتؤدى إلى معان : منها أن كل ما عنده من حصيلة البلاغ لابد أن يكون صادرا ومنسوبا إلى الرب ؛ لأنه لم يأت بشىء من عنده ، أى أنه يأخذ من الله ولا يأخذ من أحد آخر أبدا ؛ فهو ربانى الأخذ .

وتؤدى الكلمة إلى معنى آخر : إنه حين يقول ويتكلم فإنه يكون متصفا بخلق أنزله رب يربى الناس ليبلغوا الغاية المقصودة منهم ، فهو عندما ينقل ما عنده للناس يكون مربيا ، ويدبر الأمر للفلاح والصلاح .

يقول الحق ـ سبحانه ـ : « بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » إن العلم هو تلقى النص المنهجى . والدراسة هى البحث الفكرى فى النص المنهجى .

لذلك فنحن فى الريف نقول : « ندرس القمح » أى أننا ندرس القمح بآلة حادة كالنورج حتى تنفصل حبوب القمح عن « التبن » وتكون نتيجة الدراس هى استخلاص النافع . . إذن ففيه فرق بين « تعلمون » أى تعلمون غيركم المنهج الصادر من الله وذلك خاضع لتلقى النص ، وبين « ماكنتم تدرسون » أى تعملون أفكاركم فى الفهم عن النص .

إن الفهم عن النص يحتاج إلى مدارسة ، ومعنى المدارسة هو أخذ وعطاء ، ويقال : « دارسه » أى أن واحدا قد قام بتبادل التدريس مع آخر ، ويقال أيضا : « تدارسنا » أى أننى قلت ما عندى وأنت قد قلت ما عندك حتى يمكن أن نستخلص

ونستنبط الحكم الذى يوجد فى النص .

وقد يأتى النص محكما ، وقد يأتى النص محتملا لأكثر من معنى.

ومادمت قد تعلمت ، فلابد أنك تعرفت على النصوص المحكمة للمنهج . ومادمت قد تدارست،فلابد أنك قد فهمت من النصوص المحتملة حين مدارستك لأهل الذكر حُسْن استقبال المنهج؛لذلك يجب أن تكون ربانياً فى الأمرين معاً .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

أى أنه ليس لبشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة أن يأمر الناس باتخاذ الملائكة والنبيين أربابا . إن مَن اختصه الله بعلم وكتاب ونبوة لا يمكن أن يقول : اعبدونى ، أو اعبدوا الملائكة ، أو اعبدوا الأنبياء .

لماذا ؟ ويجيب الحق سبحانه : « أيامركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون » .

وقوله الحق : « بعد إذ أنتم مسلمون » تدل على أن واقعة القضية وما معها كانت مع مسلمين كأنهم عندما جاءوا وأرادوا أن يعظموا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : نحن نريد أن نعطيك وضعا فى التعظيم أكثر من أى كائن ونريد أن نسجد لك . فَوَضَّحَ النبى صلى الله عليه وسلم لهم : أنَّ السجود لا يكون إلا لله .

إذن فالذين تكلموا مسلمون ، وكانوا يقصدون بذلك تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولو أن رسول الله وافقهم لكان معنى ذلك أنه يخرجهم عن الإسلام، ولا يتصور أن يصدر هذا عن سيدنا وحبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم أو عن غيره من الأنبياء عليهم السلام .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

هذه الآية تجعلنا نتعرف على أسباب بعث الحق لموكب الرسل ، ونعرف جميعا أن المنهج الأول قد أنزله الله على آدم عليه السلام متضمنا كل ما يجعل الحياة تسير إلى انسجام ، وبلّغ آدم أولاده هذا المنهج كما علمهم أمور حياتهم ، تماما مثلما يعلم الأب أبناءه ما يخدم أمور حياتهم ، **كما يقوم** بإبلاغ الأبناء مطلوب الدين ، والأبناء يبلغون أبناءهم ، ويتواصل البلاغ من جيل إلى جيل كي يكتمل وصول المنهج للذرية ، ولكن مع توالي الزمن وتتابعه نجد أن بعضا من مطلوبات الدين يتم نسيانها .

إن هذا دليل على أن الناس قد غفلت عن المنهج ، وهكذا نرى أن الغفلة عن المنهج إنما تتم على مراحل ، فبعد بلاغ المنهج نجد إنسانا يغفل عن جزئية ما في هذا المنهج ، وتنبهه نفسه وتلومه على تركه لتلك الجزئية ، ونسمى صاحب هذا الموقف بصاحب النفس اللوامة ، إنه يفعل السيئة لكن نفسه تعود إلى اليقظة لمنهج الله ؛ لأنه يتمتع بوجود خلية المناعة الإيمانية فيه ، وهناك إنسان آخر يستمرىء المخالفة للمنهج وتلح عليه نفسه بالمخالفة ؛ إنه صاحب النفس الأمارة بالسوء ، وتتوالى به دواعي ارتكاب السيئات ، ومثل هذا الإنسان يحتاج إلى غيره من خارج نفسه ليلفته إلى الخير .

وماذا يحدث للمجتمع إذا صار أفراده جميعا من أصحاب النفس الأمارة بالسوء ؟

إن معنى ذلك أن الفساد قد طم ، ولابد من مجيء رسول ؛ لأن مراد الحق سبحانه هو هداية الناس ، لقد خلقنا سبحانه وله كل صفات الكمال ، ولم يضف خلقُنا إليه شيئا . وها هوذا الحديث القدسي الذى رواه أبوذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال :

« يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ، يا عبادى ، كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى ، كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى ، كلكم عار ، إلا من كسوته ، فاستكسونى أكسكم ، يا عبادى ، إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفرونى أغفر لكم ، يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ، قاموا فى صعيد واحد ، فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياه ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »[1]

إن الله سبحانه وتعالى قد خلقنا وهو من الأزل إلى الأبد ، فى تمام صفات الكمال ولم يضف له هذا الخلق شيئا ، فهو القائل :

﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨ ﴾

(سورة الذاريات)

(١) رواه مسلم والترمذى وابن ماجه .

إذن فعندما يشرع لنا الحق أمرًا فهو يشرعه لمصلحتنا ؛ إنه سبحانه يحب لصنعته أن تظفر بسعادة المنهج ؛ لذلك أنزل المنهج « بافعل ولا تفعل » وحين يقول المنهج : « افعل ولا تفعل » فهو لا يريد أن يحدد حرية الحركة على الخلق إلا بما يحميهم ، إنه يحدد حرية هنا ليحمى حرية هناك . فعندما حرم الله السرقة ـ على سبيل المثال ـ فالأمر شامل لكل البشر ، فلا يسرق أحد أحدا .

إن الحق سبحانه حين منع يدَ واحدٍ من السرقة ، كان فى ذلك منع لملايين الأيدى أن تسرق من هذا الإنسان ، وفى هذا حماية لكل البشر من أن يسرق إنسان إنسانا آخر ، وفى ذلك كسب لكل إنسان ، فساعة تأخذ التشريع لا تأخذه على أنه مطلوب منك ، ولكن خذه على أنه مطلوب منك ومطلوب لك أيضا .

ومثال آخر ، لقد حرم المنهج على العبد المؤمن أن يمد عينيه إلى محارم غيره ، ولم يكن هذا التحريم لعبد واحد ، إنما لكل إنسان مؤمن ، وبذلك لا تمتد أى عين إلى محارم هذا العبد ، لقد جاء الأمر لك بغض البصر عن محارم غيرك وأنت واحد ، وكففنا من أجلك ملايين الأبصار كيلا تمتد إلى محارمك .

إذن فكل عبد مؤمن يكسب حياة مطمئنة من وجود التشريع ، وكل التشريعات إنما جاءت لصالحنا جميعا ، ولذلك كان الحق رحيما بنا لأن رَكْب الرسل قد تواصل واستمر فى الكون منذ آدم ، وإلى محمد صلى الله عليه وسلم ، والمنهج الذى جاء به كل هؤلاء الرسل لا تناقض فيه أبدا ، لأن فى هذا المنهج مصلحة للخلق ، لذلك فلا يمكن أن يكون موكب رسول قد أتى ، ليناقض موكب رسول آخر .

لكن ما الذى يأتى بالتناقض بين الأديان والمشرع واحد ؟ وكل الناس عيال له ؟

إننا نبرىء الرسل من التناقض ، وإن حاول البعض أن يصوروا الأمر كذلك فلنعلم أن أتباع الرسل هم الذين يريدون لأنفسهم سلطة زمنية يتحكمون بها فى الدنيا ، فالذين كانت لهم سلطة زمنية فى دين كاليهودية أو النصرانية فعلوا ذلك .

وعندما جاءت النصرانية على اليهودية قال أحبار اليهود : نحن لا نريد النصرانية لماذا ؟ لأن السلطة الزمنية كانت فى أيديهم ، ولو أن هؤلاء الأحبار ظلوا باقين على

ما أنزله الله عليهم من منهج لقبلوا يدى أى رسول قادم شاكرين له مقدمه ومجيئه وقالوا له : ساعدنا على أن نعمق فهمنا لمنهج الله . . إذن فالخلاف لا يحدث إلا حين توجد أهواء لها سلطات زمنية ، وموكب الرسالات من يوم أن خلق الله الإنسان هو منهج متساند لا متعاند .

وحينما يأتى رسول ليجد أناسا غير مؤمنين بإله فالمشكلة تكون سهلة ، لأنه سيلفتهم إلى إله واحد ، وبالمنهج الذى يريده الله ، لكن المشكلة تكون كبيرة مع الجماعة التى لها رسول وهم منسوبون إلى السماء ، فإذا ما جاء رسول من الله فهو يجىء وهؤلاء الأتباع قد أخذوا من ادعائهم بالانتساب لرسالة رسول سابق سلطة زمنية كما حدث مع اليهود والنصارى ، فتعصبوا للدين الذى كانوا عليه متناسين أن كبارهم قد حرفوا المنهج لحساب السلطة الزمنية .

وقد استمر موكب الرسل إلى الخلق ليحمىَ الله الخلق من سيادة الانحراف واصطفى الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم لتحمل الأمانة فلن يأتى لها رسول بعد محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الله قد ضمن بقاء الخير فى هذه الأمة ، فإذا رأيت أناسا بالغوا فى الإلحاد فثق أن هناك أناسا زادهم الله فى المدد حتى يحدث التوازن ؛ لأن الحق هو القائل :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٠٤) ﴾

(سورة آل عمران)

وفى موضع آخر من القرآن الكريم يقول الحق سبحانه :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (١١٠) ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فإن امتنع الوازع النفسي في النفس اللوامة عند فرد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فسوف يأتي أناس مسلمون ينبهونه إلى المنهج ، والحق سبحانه وتعالى لا يعصم الناس من أن يخطئوا فهو القائل :

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝ ﴾

(سورة العصر)

إن الحق جاء بكلمة « وتواصوا » ، ولم يأت بكلمة « وصوا » وذلك لنفهم أن التوصية أمر متبادل بين الجميع ، فساعة يوجد إنسان في لحظة ضعف أمام المنهج توجد لحظة قوة عند غيره فيوصيه .

وترد هذه المسألة أيضا إلى الموصي ، فقد تأتي له لحظة ضعف أمام المنهج ؛ فيجد من يوصيه وهكذا نرى أنه لا يوجد أناس مخصوصون ليوصوا ، وآخرون مهمتهم تلقي التوصية ، إنما الأمر متبادل بينهم ، وهذا هو التكافل الإيماني ، والإنسان قد يضعف في مسألة من المسائل فيأتي أخ مؤمن يقول له : ابتعد عن هذا الضعف ، إن هذه المسألة تحدث بالتناوب لمقاومة لحظات الأغيار في النفس البشرية ؛ لأن لحظات الأغيار لا تجعل الإنسان يثبت على حال ، فإذا ما رأينا إنسانا قد ضعف أمام التزام ما فعلينا أن نتواصى بالحق ونتواصى بالصبر ، وأنت أيضا حين تضعف ستجد من أخوتك الإيمانية مَنْ يوصيك .

هذا هو الحال في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أما الأمم السابقة عليها فقد كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، ولذلك كان لابد أن تتدخل السماء وتأتي برسول جديد ومعه معجزة جديدة تلفت العقول لفتا قسريا إلى أن هناك أشياء تأتي بها المعجزة ، وهي خرق ناموس الكون ، وفي ذلك لفت من الله للناس إلى مناطق القدرة .

وأخذ الله الميثاق على الأنبياء بأن يبلغ كل نبي قومه هذا البلاغ ، انتظروا أن

ترسل إليكم السماء رسلا ، وساعة يجيء الرسول المبلغ عن الله منهجه فكونوا معه ، وأيدوه .

كان الرسل عليهم جميعا السلام مأمورين أن يضعوا في المنهج . وصلبه أن السماء حينما تتدخل وتأتي برسول جديد فلابد أن يتبعه أقوامهم ، وألا يتعصبوا ضد الرسول القادم ، بل يسلمون معه ويرحبون به ؛ لأن الرسول إنما يجيء ليعاون الناس على المنهج الصحيح ، لكن الأتباع الذين يعشقون السلطة الزمنية تعمدوا التحريف ، ومن أجل أن يحمي الحقُّ خلقه من هذا المرض أنزل الميثاق الذي أخذه على النبيين ، فقال :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

قد يقول قائل : إن هذا القول يصلح عندما يأتي رسول معاصر لرسول مثلما عاصر شعيب سيدنا موسى عليه السلام ، وكما عاصر لوط سيدنا إبراهيم عليه السلام ، ونقول : هذا يحدث - أيضا - وإن لم تتعاصر الرسل ، فالحق سبحانه قد أراد لكل رسول أن يعطي لقومه البلاغ الواضح ، وإن لم يتعاصر الرسولان فلابد أن يعطي الرسول مناعة ضد التعصب ، فما داموا قد آمنوا بالرسول واتبعوه فعليهم حسنَ استقبال الرسول القادم من بعد رسولهم ، وكان على كل رسول أن يبلغ قومه : كونوا في انتظار أن تتدخل السماء في أي وقت ، فإذا تدخلت السماء في أي وقت من الأوقات ، وجاءت برسول مصدق لما معكم فإياكم أن تقفوا منه موقف المضارّة ، وإياكم أن تقفوا منه موقف العداوة ، بل عليكم أن « تنصروه » وهذا قول واضح وجلي ولا لبس فيه .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

ونقول فى شرح معنى : « رسول مصدق لما معكم » .

إن الدين يأتى بقضايا متفق عليها ؛ لأن العقائد واحدة ، والأخبار واحدة ، والقصص واحد ، لكن الذى يختلف هو الحكم التشريعى الذى قد يناسب زمنا ولا يناسب زمنا آخر ، فإذا جاء الرسول بكتاب مصدق لما معكم فى الأمور الدائرة فى منهج العقائد ، أو منهج الأخبار أو منهج القصص فلابد لكم أن تصدقوه .

لكن اليهود لم يفعلوا ذلك ؛ لأن الرسول جاء ليعيد هداية الجماعة التى آمنت بالرسل والتى تؤمن بإله ، وكان مجىء محمد صلى الله عليه وسلم بالمنهج الواضح العقيدة والأخبار الصحيحة غير المحرفة والقصص التى تدعم المنهج كما جاء بالتشريع المناسب وكان مجىء النبى الخاتم مزلزلا لمن استمرءوا السلطة الزمنية ، فمنهم من أصر على اتباع رسولهم فقط وبالمنهج الذى تم تحريفه ورفضوا اتباع الرسول الجديد ، ومنهم جماعة أخرى آمنت ، بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت هناك جماعة ثالثة تؤمن برسول آخر ، والخيبة تأتى نتيجة للتعصب ، ولذلك كانت دعوة الإسلام هى لتصفية العقائد ، ودعوة لكل متبع لأى رسالة سابقة أن يدرس ويناقش ، هل الدين الخاتم قد جاء بما يختلف عن الأديان السابقة فى العقائد ؟ أو جاء مصدقًا لها ؟

لقد جاء الدين الخاتم مصدقا لما سبقه فى العقائد والأخبار والقصص وإن اختلف فى التشريعات التى تناسب زمنا ولا تناسب زمنا آخر ، فكأن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يعصم البشرية من العصبية الهوجاء ، والعصبية العمياء التى تنشأ من اتباع رسول لتقف سدا حائلا أمام رسول آخر ؛ فالله حين أرسل كل رسول قد أعطاه الأخبار والحقائق وأنه سبحانه قد أخذ الميثاق على كل نبى أرسله بأن يكون على استعداد هو والمؤمنون معه لتصديق كل رسول يأتى معاصرا ومصدقا لما معهم ، وأن يؤمنوا به ، وأن يبلغ كل رسول أمته بضرورة هذا الإيمان .

لماذا ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد من الركب الإيمانى المتمثل فى مواكب الرسل ألا يكون بعضهم لبعض عدوّا ، بل عليهم أن يواجهوا أعداء قضية الدين كلها . فالذى يجعل الإلحاد متفشيا فى هذا العصر هو أن المنسوبين إلى الأديان السماوية مختلفون ، وربما كانت العداوة بينهم وبين بعضهم أقوى من العداوة بينهم وبين

الملحدين والمنكرين لله ، وهذا الاختلاف يعطى المجال للملحدين فيقولون : لو كانت هذه الأديان حقا لاتفقوا وما اختلفوا ، فما معنى أن يقول أتباع كل رسول: إنهم يتبعون رسولا قادما من السماء ؟

إن الملحدين يجدون من اختلاف أتباع الديانات السماوية فرصة ليبذروا فى الناس بذور الإلحاد ، ولا يجدون تكتلا ولا قوة إيمانية لمن يؤمن بالسماء أو بمنهج السماء لكن الحق سبحانه يقول : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين » وهذا يعنى أنه سبحانه قد أخذ الميثاق على كل نبى ساعة أرسله أنه قد آتاه الكتاب والحكمة ، وأنه إذا جاءكم رسول مصدق لهذا الكتاب وتلك الحكمة فعليكم الإيمان به ، ولا يكفى إعلان الإيمان فقط ، بل لابد أن يكون النبى ومن معه فى نصرة الرسول الجديد نقول : ولو عمل أتباع كل نبىّ بهذا العهد والميثاق لما كان لهؤلاء الملحدين حجة ويضيف سبحانه : « قال ، ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا » والإقرار سيد الأدلة كما يقولون ؛ والإصر هو العهد الشديد ، ولذلك يقال : « آصرة المودة » أى الرابطة الشديدة المعقودة . وقال الموكب الإيمانى للأنبياء موجهين إقرارهم لله تعالى « أقررنا » ، فقال الحق سبحانه : « فاشهدوا » . والشهادة دائما تقتضى شاهدا ومشهودا عليه ومشهودا به .

ومادام الحق سبحانه هو الذى يقول للنبيين الذين أخذوا منه العهد والميثاق الحق : « فاشهدوا » ، إذن فهم فى موقف الشاهد ، وما المشهود عليه ؟ وما المشهود به ؟ هل يشهدون على أنفسهم ؟

أو يشهد كل نبى على الأنبياء الآخرين ؟

أو يشهد أنه قد بلغ أمته هذا القرار الإلهى ؟

إن الرسول يشهد على أمته ، وأن الأنبياء يشهد بعضهم لبعض .

إذن قد يكون الشاهد نبيا ، والمشهود له نبى آخر ، والمشهود به أن يؤمنوا بالرسول القادم وينصروه .

وقد يكون الشاهد النبى ، والمشهود عليه هى أمته بأنه قد بلغها ضرورة الإيمان بالرسول القادم بمنهج السماء ؛ لأن الأمة مادامت قد آمنت برسول فعليهم مؤازرة هذا الرسول ، ومؤازرة مَنْ يأتى من بعده ، وذلك حتى لا يتبدد ركب الإيمان وُمام باطل الإلحاد :

﴿ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

ولنرتب الشهادات التى وردت فى هذه الآية الكريمة : الأنبياء يشهد بعضهم على بعض ، أو الأنبياء يشهدون على أممهم ، ثم شهادة الله على الأنبياء .

ومادام الأمر قد جاء بهذا التوثيق فعلينا أن ننبه أنه إذا ما وجدنا دينا سابقا يتعصب أمام دين لاحق ، بعد أن يأتى هذا الدين بالمعجزة الدالة على صدق بلاغ ذلك الرسول عن الله فلنعلم أنهم خانوا هذه القضية . وسبب ذلك إنما يرجع إلى أن الله يريد أن يحتفظ للدعوة إلى الإيمان ، بانسجام تام ، فلا يتعصب رسول لنفسه ولا لقوميته ولا لبيئته ، ولا يتعصب أهل رسول لملتهم أو نحلتهم ؛ لأنهم جميعا مبلغون عن إله واحد لمنهج واحد ، فيجب أن يظل المنهج مترابطا فلا يتعصب كل قوم لنبيهم أو دينهم ، وهذا ليكون موكب الرسالات موكبا متلاحما متساندا متعاضدا ، فلا حجة من بعد ذلك لنبى ، ولا لتابع نبى أن يصادم دعوة أى رسول يأتى ، مادام مصدقا لما بين يديه .

لقد أعلمنا الحق أنه قد عرض شهادة الأنبياء على بعضهم ، وشهادة الأنبياء على أممهم ، وشهادة الله سبحانه على الجميع ، وذلك أوثق العهود وآكدها . ولذلك فكل من استمع لهذا يجب أن ينصر أى رسول يأتى مصدقا لما معه ، وبذلك يزداد موكب الإيمان تآزرا وتلاحما ، فلا يأتى مؤمن برسالة من السماء ليصادم مؤمنا آخر برسالة من السماء . . ولندع المصادمة لمن لا يؤمنون برسالة السماء ، وحين يتكاتف المؤمنون برسالة السماء يستطيعون الوقوف أمام هؤلاء الملاحدة ، وبعد هذا البيان الواضح يقول الحق :

﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

معنى « تولى » هي مقابل « أقبل » . و« أقبل » تعنى أنه جاء بوجهه عليك . و«تولى» أعرض كما نقول نحن في تعبيراتنا الشائعة : « أعطاني ظهره » . ومعنى هذا أنه لم يأبه لي ، ولم يقبل علي . إذن فالمراد مِنْ أَخْذ العهدِ أن يُقبلَ الناسُ على ذلك الدين ، فالذى يُعرض ويعطى الإيمان الجديد ظهره يتوعده الله ويصفه بقوله : « فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » بعد ماذا ؟ إنه التولى بعد أخذ العهد والميثاق على النبيين ، وشهادة الأمم بعضها على بعضها ، وشهادة الله على الجميع ، إذن فلا عذر لأحد . فمن أعطى ظهره للنبى الجديد ، فماذا يكون وعيد الله له ؟

إن الحق يصفهم بقوله : « فأولئك هم الفاسقون » أى أن الوعيد هو أن الله يحاسبه حساب الفاسقين ، والفسق ـ كما نعلم ـ هو الخروج عن منهج الطاعة . والمعانى ـ كما تعرف ـ أخذت وضعها من المحسوسات . لأن الأصل فى الوعى البشرى هو الشيء المحس أولا ، ثم تأتى المعنويات لتأخذ من ألفاظ المحسوسات . والفسق فى أصل اللغة هو خروج الرطبة عن قشرتها ؛ فالبلح حين يرطب ، يكون حجم كل ثمرة قد تناقص عن قشرتها . وحينما يتناقص الحجم الطبيعى عن القشرة تصبح القشرة فضفاضة عليه ، وتصبح أى حركة عليه هى فرصة لانفلات الرطبة من قشرتها .

ويقال : « فسقت الرطبة » أى خرجت عن قشرتها . وأَخَذَ الدينُ هذا التعبير وجعله وصفاً لمن يخرج عن منهج الله ، فكأن منهج الله يحيط بالإنسان فى كل تصرفاته ، فإذا ما خرج الإنسان عن منهج الله ، كان مثل الرطبة التى خرجت عن قشرتها .

ونحن أمام فسق من نوع أكبر ، فهناك فسق صغير ، وهناك فسق كبير . وهنا

نسأل أيكون الفسق هنا مجرد خروج عن منهج طاعة الرسول ؟ لكن هذا الخروج يوصف به كل عاصٍ ، أي أن صاحبه مؤمن بمنهج وفسق جزئيا ، إننا نقول عن كل عاصٍ : « إنه فسق » أي أنه مؤمن بمنهج وخرج عن جزئية من هذا المنهج ، أما الفسقُ الذى يتحدث عنه الحق هنا فهو فسق القمة ؛ لأنه فسق عن ركب الإيمان كله ، فإذا كان الله قد أخذ العهد ، وشهد الأنبياء على أممهم ، وشهدت الأمم بعضها على بعض ، وشهد الله على الجميع ، أبعد ذلك تكون هناك فرصة لأن يتولى الإنسان ويعرض ؟

ثم لماذا يتولى ويعرض ؟ إنه يفعل ذلك لأنه يريد منهجا غير هذا المنهج الذى أنزله الله ، فلو كان قد اقتنع بمنهج الله لأقبل على هذا المنهج ، أما الذى لم يقتنع فإنه يعرض عن المنهج ويطلب منهجا غيره فأى منهج تريد يا من لا ترضى هذه الشهادة ولا هذا التوثيق ؟ خصوصا وأنت تعلم أنه لا يوجد منهج صحيح إلا هذا المنهج ، فليس هناك إله آخر يرسل مناهج أخرى .

وهكذا نعرف أنه لا يأتى منهج غير منهج الله ، إلا منهج من البشر لبعضهم بعضا ، ولنا أن نقول لمن يتبع منهجا غير منهج الله : من الذى جعل إنسانا أولى بأن يتبعه إنسان ؟ إن التابع لابد أن يبحث عمن يتبعه ، ولابد أن يكون الذى يتبعه أعلى منه ، لكن أن يتبع إنسان إنسانا آخر فى منهج من عنده ، فهذا لا يليق ، وهو فسق عن منهج الله ؛ لأن المساوى لا يتبع مساويا له أبدا ، ومن فضل الله سبحانه أنه جعل المنهج من عنده للناس جميعا حتى لا يتبع إنسان إنسانا آخر . لماذا ؟ حتى لا يكون هوى إنسان مسيطرا على مقدرات إنسان آخر ، والحق سبحانه لاهوى له . إن كل إنسان يجب أن يكون هواه تابعا لله الذى خلق كل البشر .

ومادام ليس هناك إله آخر فما المنهج الذى يرتضيه الإنسان لنفسه ؟

إن المنهج الذى يرتضيه الإنسان لنفسه لو لم يتبع منهج الله هو منهج من وضع البشر ، والمنهج الذى يضعه البشر ينبع دائما من الهوى ، ومادامت الأهواء قد وجدت ، فكل مشرّع من البشر له هوى ، وهذا يؤدى إلى فساد الكون . قال تعالى :

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَٰهُم

﴿ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (٧١) ﴾

(سورة المؤمنون)

فإذا كانوا لا يرتضون منهج الله ، فأى فسق هم فيه ؟ إنه فسق عظيم ؛ لأن الله قد أخذ عليهم العهد وعلى أنبيائهم ووثق هذا العهد ، أفغير الله يبغون ؟ نعم ، إنهم يبغون غير الله ومن هو ذلك الغير ؟ أهو إله آخر ؟ لا ، فليس مع الله إله آخر ، بل هم قد جعلوا الخلق مقابل الخالق ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) ﴾

إنهم ماداموا غير مؤمنين برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أرسله الله نبيا ورسولا فإن ذلك يكشف رغبتهم فى أنهم يريدون منهجا غير منهج الله ، وليس أمامهم إذن إلا مناهج البشر النابعة من الأهواء ، والتى تقود حتما إلى الضلال ، إن الحق سبحانه وتعالى يريد لخلقه أن يكونوا منطقيين مع أنفسهم ، إنه الحق سبحانه وتعالى قد أوضح لنا فى منهجه ، وقال لنا هذا المنهج : أنتم مستخلفون فى الكون ، وأنتم أيها الخلفاء فى الأرض سادة هذا الكون ، سادة يخدمكم الكون كله ، وانظروا إلى أجناس الوجود تجدوها فى خدمتكم ، الحيوان أقل منكم بالفكر . والنبات أقل من الحيوان بالحس . والجماد أقل من النبات .

إذن فأجناس الكون من حيوان ونبات وجماد ترضخ لإرادتك أيها الإنسان ، فالنبات يخدم الحيوان والحيوان يخدمك أيها الإنسان ، والجماد يخدم الجميع ، والعناصر التى نأخذها نحن البشر من الجماد يستفيد منها أيضا النبات والحيوان . إذن فكل جنس فى الوجود تراه بعينيك إنما يخدم الأجناس التى تعلوه .

الجماد يخدم النبات .
والجماد والنبات يخدمان الحيوان .
والجماد والنبات والحيوان فى خدمة الإنسان ، وأنت أيها الإنسان تخدم من ؟

كان من واجب عقلك عليك أيها الإنسان أن تفكر فيمن ترتبط به ارتباطا يناسب سيادتك على الأجناس الأخرى ، كان لابد أن تبحث عمن أعطاك السيادة على الأجناس الأخرى .

هل أنت أيها الإنسان قد سخرت هذه الأجناس بقدرتك وقوتك ؟

لا ، فلست تملك قدرة ذاتية تتيح لك ذلك ؟ أما كان يجب عليك أن تفكر ما هى القوة التى سخرت لك ما لا تقدر عليه ، فخدمتك حين لا توجد لك قدرة ، وخدمتك وأنت نائم تغط فى نوم عميق ؟ أما كان يجب أن تفكر هذا الفكر ؟ إنك أيها الإنسان يجب أن تكون منطقيا مع نفسك ، وأن تبحث لك عن سيد يناسب سيادتك على غيرك . والكون لا يوجد فيه سيد عليك ؛ لأن الكون محس ، فإن جاءك من يحدثك بأن غيبا هو الإله يطلب أن تكون فى خدمته فيجب أن تقول : « إن هذا كلام منطقى بالنسبة لوضعى فى الكون » وبعد ذلك انظر إلى الكون ، فأنت فى الكون لست وحدك بل هناك أجناس أخرى ، وكل جنس من الأجناس له قانونه وله مهمته ، للحيوان مهمة ، وللنبات مهمة ، وللجماد مهمة . فهل وجدت جنسا من الأجناس تمرد على مهمته ؟ لا .

إن الحصان مثلا ، تستخدمه كمطية عليها وسادة من حرير وجلد ولها لجام من فضة لتركبه ، وتجد هذه المطية فى يوم آخر تحمل سماد الأرض من روث الحيوان وما تأبت ، لقد أدت الخدمة لك راكبا ، وأدت الخدمة لك ناقلا ، وما تمردت عليك أبدا . كل الأجناس - إذن - تؤدى مهمتها كما ينبغى ، فاستقام الأمر فيها ، ومادام الأمر قد استقام فيها ، فبأى شيء استقام ؟ إن الله هو الذى خلقها ذللها ، قال لها : « كونى فى خدمة الإنسان مؤمنا كان أو كافرا » وفى هذا الأمر عدالة الربوبية ، فلا تتأخر أو تشذ عن حركتها فى خدمة الإنسان .

أرأى أحدكم الشمس مرة قالت : لم يعد الخلق يعجبوننى ، ولن أشرق عليهم

وسأحتجب اليوم ؟! أتمرد الهواء وقال : لا ، إن الخلق لم تعد تستحق تنفس الهواء ، لذلك لن أمكنهم من الانتفاع بى .

أرأينا المطر امتنع ؟ هل استنبت الإنسان أرضا صالحة للزراعة واستعصت عليه ؟ لا . . فكل شىء فى الوجود يؤدى مهمته تسخيرا وتذليلا .

لذلك يقول الحق :

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

(سورة يس)

والحق سبحانه وتعالى يطلق بعضا من الحيوان فلا يذلل ، ولا يستأنس ، وذلك حتى تعلم أيها الإنسان أنك لم تستأنس الجمل بقدرتك فإن كانت لك قدرة مطلقة على الكون فاستأنس بعض ثعابين هذا العالم أو استأنس الأسد . و أنت أيها الإنسان ترى فى هذا الكون بعضا من الحيوانات والمخلوقات شاردة مثل الثعابين والحيوانات المتوحشة . بغير استئناس ليدلنا الحق على أن هذا الذى يخدمك لو لم يذلله الله لك لما استطعت أنت بقدرتك أن تذلله ، إنه تذليل وتسخير وخضوع لهذه المخلوقات منحه الله تعالى لك أيها الإنسان تفضلا منه ـ سبحانه ـ مع عجزك وضعفك .

ولم نجد شيئا نافعا قد عصى الإنسان فى الكون ، لأن كل الخلق مسخر من الله لخدمة الإنسان كافرا كان أو مؤمنا ، وهذا هو عطاء الربوبية ، لأن عطاء الربوبية يشمل الخلق جميعا ، فالخالق الأكرم هو رب الناس كلهم ويتولى تربيتهم جميعا ، ولذلك تستجيب الأجناس من غير الإنسان للإنسان سواء أكان مؤمنا أم كافرا . فإن أحسن الكافر استخدام الأسباب فإن الأسباب تعطيه ولا تعطى المؤمن الذى لا يستخدم الأسباب ، أو لا يحسن استخدامها فهذا هو عطاء الربوبية ، والربوبية للجميع . أما عطاء الألوهية فهو « افعل ولا تفعل » وهو عطاء للمؤمنين فقط .

فإذا كانت هذه هى صورة الكون وهو يؤدى مهمته بلا شذوذ فيه ، ومنسجم فى ذاته انسجاما عجيبا فلنا أن نسأل « من أين جاء الخلل فى الكون ؟ » إن الخلل قد

جاء منك أيها الإنسان . ولهذا فنحن لا نجد فسادا فى الكون إلا وللإنسان مدخل فيه ، أما مالا مدخل للإنسان فيه فلا فساد فيه أبدا .

أرأيت أحدا قد اشتكى من أن الهواء قصر ؟ لا .

لماذا ؟ لأن احدا لا دخل له بمسألة الهواء هذه أبدا ، صحيح أننا نتدخل فى الهواء بتلويثه بالعادم والفضلات ، وصحيح أيضا أن الحق يُكرم الخلق باكتشافات قد تصلح من هذا الفساد إذن ، فحين يتدخل الإنسان فإن الشيء قد يفسد . لكن هل معنى ذلك ألا نتدخل ؟ هل نقف من الكون مكتوفى الأيدى ؟ لا ، بل يجب أن نتدخل فى الكون ، ولكن بمنهج الله .

إنك إن تدخلت فى الكون بمنهج الله ، فكل شيء يسير كما يسير الكون الذى لا منهج له إلا الخضوع والتسخير ، فكما أدت الشمس مهمتها والجماد مهمته ، والحيوان مهمته ، وأنت أيها الإنسان مطلوب منك أن تؤدى مهمتك ، وهى أن تطيع الله ، تلك الطاعة التى تتلخص مطلوباته منك فى : « افعل كذا ولا تفعل كذا » فإن انتظمت مع المنهج بـ « افعل » و« لا تفعل » تكن قد انسجمت مع الكون .

إن الله سبحانه يذيّل هذه القضية ويختمها باستفهام تنقطع وتنفطر له قلوب المؤمنين :

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إن كل شيء فى السماوات وفى الأرض قد أسلم لله طوعا أو كرها . وإذا ما تساءلنا ، وما معنى « طوعا ؟ » فالإجابة هى طاعة التسخير ، كما قالت السماوات والأرض فى النص القرآنى الحكيم :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا

﴿ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١ ﴾

(سورة فصلت)

فكل ما لا تكليف له جاء طائعا مسخرا ، وما معنى : « كرها » ؟ إن بعضا من العلماء قد قال : إن « طوعا » تشمل أجناس الملائكة ، والجماد ، والنبات ، والحيوان ، فكل منهم يؤدى مهمته بخضوع ولا يعترض أحد منهم ولا يملك أحدهم قدرة على العصيان ، وأما عن « كرها » فقد فهم بعض العلماء أنهم الناس الذين يخدمون الناس بالقوة كالعبيد مثلا ، ولهؤلاء نقول : لا يصح ولا يستقيم أن نعطى خصوم الإسلام فرصة ليقولوا إن الإسلام قد أكره أحدًا من البشر أن يخدم أحدا كرها ؛ لأن الحق سبحانه قال :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٥٦ ﴾

(سورة البقرة)

فمادام الله لم يكره أحدًا على الإيمان به فكيف يكره إنسانا ليخدم إنسانا آخر ؟! ولهذا فإننا يجب أن نفهم كرها على وضعها الحقيقى ، والحق سبحانه أبلغنا أن هذا الكون كله مسخر له ، لأنه سبحانه هو الذى خلقه ولا إله غيره وهذه مسألة مسلم بها ، فالكون كله لله ، وهو المدبر والقاهر له ، قال الحق :

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١ ﴾

(سورة المؤمنون)

ومادام هو الواحد وهو الخالق فلن يتمرد أحد على مراده ، وكان يجب أن يفهم الإنسان مهمته على أنه هو الوحيد الذى كلفه الله ؛ لأن بقية الأجناس لا اختيار لها وهى غير مكلفة كما كلف الله الإنسان بـ « افعل » و« لا تفعل » إذن فالتكليف فرع

الاختيار ؛ فالمنهج يقول لك : « افعل كذا ولا تفعل كذا » لأن الذى وضعه يعلم أنه قد خلقك صالحا لأن تفعل ما يأمرك به ، وصالحا لأن تفعل ما لا يأمرك به .

إن اليد - مثلا - مخلوقة لتتحرك حسب إرادة صاحبها ، بدليل أن الإرادة إن شُلت وانقطع الخيط الموصل للإرادة الآمرة إلى الجارحة الفاعلة عندئذ يحاول الإنسان المصاب بذلك - والعياذ بالله - أن يرفع يده فلا يستطيع ، فاليد مسخرة لإرادة الإنسان ، وإرادتك أيها الإنسان عندما تسير فى ضوء منهج الله فإنك توجهها فى ضوء « افعل » و« لا تفعل » .

وعندما يقال لك مثلا : « لا تضرب بها أحدًا » فمعنى ذلك أن اليد صالحة لأن تضرب ، وعندما يقال لك : « خذ بيد العاثر » فيدك قادرة على أن تأخذ بيد العاثر . ، فأنت مخلوق على هيئة الطواعية من جوارحك لإرادتك . ويأتى المنهج ليقول لك : « نفذ الإرادة فى كذا ولا تنفذ الإرادة فى كذا » . .

إذن فالإنسان عندما يتبع المنهج فهو يتفق مع الأشياء المسخرة تمام الاتفاق ، ويؤدى كل شيء على خير أداء ، لكن متى يختلف الإنسان عن الانسجام مع الأجناس الأخرى فى الكون ؟ إن الإنسان يختلف عن الانسجام عندما لا يطبق المنهج ، فيشذ عن الركب فى الكون كله ، ولتقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الحج)

إنها الأجناس كلها ساجدة ، الشمس ساجدة ، القمر ساجد ، والنجوم ، والجبال ، كل هذه الجمادات ساجدة ، وكذلك الشجر والنبات ساجد لله ، والحيوان والدواب ساجدة لله ، وكثير من الناس سجود ، لكن فى مقابل هذا الكثير الساجد من البشر ، هناك كثير غير ساجد لذلك حق عليه العذاب ، ولو أن الإنسان قد أخذ

منهج الله فنفذه لصار كبقية الأجناس ، لكن الإنسان اختلف ، وقال : « أنا سوف آخذ اختيار تحمل الأمانة ، لأنى عالم وعاقل » كما جاء فى القول الحق :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

فلو أخذ الإنسان منهج الله فى « افعل » و« لا تفعل » ، لانسجم الإنسان مع الوجود كله وحين ينسجم الإنسان مع الوجود كله فلن تأتى منه مخالفة أبدا كما لا تأتى مخالفة فى الوجود من غير الإنسان ، وعند ذلك يصبح الكون مثاليا فى الانسجام . ونحن نعرف أن الطموحات العلمية حين تعمل وتشغل العقل فى أمر ما فإنها تريد الخير ، ولكنها تعلم شيئا ، ويغيب عنها شىء آخر ، ولو أخذوا عن الله العليم بكل شىء لصارت الدنيا إلى انسجامها .

إن المخترعين الذين صمموا المحركات التى تتحرك بسائل البنزين قاموا بتسهيل الحركة على الإنسانية ، ولكن العادم والمخلفات الناتجة من البنزين صنعت ضررا بالكون ، ودليل ذلك أن العلماء الآن يبحثون عن أساليب لمقاومة تلوث البيئة . وعندما كان الوقود هو الحطب لم يكن هناك تلوث للبيئة ، لماذا ؟ لأن كل عنصر كان يؤدى مهمته ، فجزء من احتراق الحطب كان يتحول إلى كربون ، وجزء آخر يتحول إلى غازات ، وتنصرف كل الأشياء إلى مساراتها .

إن هذا يدلنا على أن الإنسان قد دخل إلى المخترعات المعاصرة بنصف علم . لقد قدّر الإنسان أنه يريد تخفيف الحركة ، وينقل الأثقال ويختصر المسافات ، لكنه لم ينظر إلى البيئة وتلوثها ، فنشأ عادم يفسد البيئة ، لكن لو كان عند الإنسان القدرة الشاملة على العلم لكان ساعة اختراع هذه المحركات قد بحث عن وضع معادلة لتعدل من فساد العادم .

ولننظر إلى عظمة الحق ، إنه يترك للعقل البشرى أن يتقدم . ولكن العقل البشرى قاصر وينسى من الأشياء ما ينتج عنه الضرر أخيرا . إن الذين اخترعوا

المبيدات الحشرية كانوا يظنون أنهم قاموا بفتح جديد فى الكون ، وتشاء إرادة الحق أن يقوم بتحريم هذه المبيدات القوم أنفسهم الذين اخترعوها ؛ لأنهم وجدوا منها الضرر ، لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إنك إن أردت أن تكمل صنعتك فابحث عن الحسن فى ضوء منهج الله ، والحق سبحانه يضرب لنا المثل الواضح . إننا نعرف أن عادم صناعتنا ضار كعادم المصانع والسيارات وغيرها ، لكن عادم خلق الله فى الحيوان نافع ، فالإنسان يأخذ روث الحيوان ويصنع منه السماد ليزيد من خصوبة الأرض ، والعجيب أن فضلات الحيوان التى تعطى خصوبة للأرض لا نجد فيها شيئا يقزز ، ولا نجد لها الرائحة التى توجد فى فضلات الإنسان ، لماذا ؟

لأن الحيوان يأكل على قدر حاجته ، إن الحيوان قد يجد أمامه أصنافا كثيرة ، مثل الحشيش الجاف اليابس ، وأمامه النعناع الأخضر ، فلا يأكل النعناع الأخضر ويأكل الحشيش اليابس ، وإذا شبع الحيوان امتنع عن الطعام ، ولذلك لا يخرج فضلات كريهة الرائحة ، لكن الإنسان ينوع ويلون ويأكل فوق طاقته ويحث شهيته على الانطلاق والانفلات ، إن الحيوان لا اختيار له ، ومحكوم بالغريزة ويجد أمامه هذا الذى يؤكل وذلك الذى لا يؤكل فيختار بغريزته المناسب له ، وإذا امتلأت البطن لا يأكل ؛ لأنه محكوم بالغريزة والتسخير المطلق ، لكن الإنسان يتمتع بالاختيار ، فأفسد عليه هذا الاختيار وأبعده عن منهج الله وجعله بما لديه من قدرة يتجاوز الاكتفاء بحدود الشبع .

وهكذا نرى بوضوح أن الكون كله أسلم لله طوعا فى المسخرات . وإياك أن تفهم أن هناك إسلاما بالقهر والإكراه . وبعض العلماء قد فاتهم ذلك ، وهم يعطون

لخصوم الإسلام حجة فيقولون : « إن دينكم انتشر بإكراه السيف » ولذلك نقول لهم : لا ، إن أحدا لم يسلم كرها أبدا ؛ لأن السيف إنما رفع لشيء واحد هو حماية حرية الاختيار . إن السيف قد رُفع ليمنع الإكراه ، وليمنع تسلط بعض الناس بقوتهم ليجبروا الناس على عقائدهم فقال لهم السيف : « قفوا عند حدكم ، ودعوا الناس أحرارا فى اختيار ما يعتقدون » ، ودليل ذلك أن البلاد التى فتحها الإسلام تجد فيها غير المسلمين ، ولو كان الأمر فتحا بالسيف لما وجدنا ديانات أخرى . غير الإسلام ، نجدهم أيضا يتشدقون بذلك ويزيدون « إنكم تفرضون جزية » .

ونقول لهم : أنتم تردون على أنفسكم ، نحن لم نفرض جزية على المؤمن ولكن الكافر تركناه على كفره ، والجزية يدفعها الكافر ليدافع عنه المؤمنون لو أصاب البلاد مكروه .

إذن فكيف نفهم قوله الحق بأن هناك من أسلم كرها ؟

نحن نفهمها كالآتى : إن الإنسان هو الذى انقسمت عنده المسائل ، وفيه أمور تدخل فى فعله ومراداته ، وفيه أمور تحدث قهرا عنه ، وتحدث له بلا إرادة ولا اختيار ، فالإنسان يكون مختارا فى الفعل الذى يقع منه ، أما الفعل الذى يقع عليه أو فيه فلا دخل له فيه بالاختيار ؛ إن أحدا منا لا يختار يوم ميلاده ، أو يوم وفاته أو يوم إصابته بالمرض ، والإنسان الذكى هو الذى يعرف ذلك ونقول للإنسان الذى لا يعرف أو يتجاهل ذلك : أيها الإنسان دعك من الغباء ؛ إن هناك زوايا من حياتك أنت مجبر فيها على أن تكون مسلما لله كرها إنك تسلم لله دون إرادتك فى كثير من الأمور التى تقع عليك ، ولا تستطيع لها دفعا ، فلماذا تقف فى الإسلام عند زاوية الاختيار ؟

إن المسخرات كلها مسلمة لله ، والإنسان فيما يقع فيه أو عليه من أمور لا يستطيع دفعها . هو تسليم لله كرها من الإنسان ، وهكذا نرى أن قيادة التسخير فيما ليس لك دخل فيه أيها الإنسان هى مسلمة لله ، مثلك فى ذلك مثل كل الكائنات ، أفلا يجب عليك أن تسلم بكل زوايا حياتك ؟ فلو كان هناك إنسان كافر بكل ما فيه من أبعاض فعلى هذا الكافر ألا يسلم بأى شيء من جوارحه ؛ هل يستطيع أن يمنعها من أن تؤدى عملها ؟

ولنر ما سيحدث له لابد أن يتوقف عن التنفس ؛ لأن التنفس يحدث رغما عنه ، لا بد أن يوقف دقات قلبه ؛ لأنها تدق رغما عنه . ومادام هناك من يستمرىء الكفر فليحاول أن يجعل كل ما فيه كافرا ، ولن يستطيع ؛ بل سيجد أنه يحب أمورا ولا تأتى له ، ويكره أمورا وتنزل به ، ولن يفلت أحد من الإسلام لله ، لأن الله قد اختار لكل إنسان يوم الميلاد ويوم الموت ، واختار الله للإنسان أن تجرى الأحداث فوقه ولا يستطيع دفعها ، ويصبح خاضعا رغم أنفه ، لذلك قال الحق : « وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون » .

إذن ولنأخذ « طوعا » لغير الإنسان ، وللمؤمن الذى نفذ تعاليم المنهج ، ولنأخذ « كرها » فى المسائل التى لا دخل لاختيار الإنسان فيها وتقع عليه وهو يكرهها ، ولا يستطيع دفعها ، لأن الذى يجريها عليه هو الخالق الفعال لما يريد ، ومادامت هناك زاوية من حياتك أيها الإنسان أنت مكره فيها فلماذا تمردت فى المسألة الاختيارية ؟

كان يجب أن يأخذ الكافر هذه النقطة ويقول للكفر : « لا » ، ويتجه إلى الإيمان ، لأن المؤمن يأخذ هذه النقطة ويقول : أنا أريد أن أنسجم مع الكون كله حتى لا تطغى ملكة على ملكة ، ولا تطغى إرادة على إرادة أخرى ، وهذه رحمة من الله بالخلق .

وحين يسلم الإنسان منهجه لله فإنه يفعل ما يطلبه المنهج ولا يفعل ما يحرمه المنهج ومن يريد أن يقف فى « افعل » و« لا تفعل » ، نقول له : إذا فعلت ما الذى يستفيده الله منك ؟ وإذا لم تفعل ما الذى يضر الله منك ؟

لا شىء ، إن عليك أن تفكر جيدا فالأمر إنما يُرَدّ أو يتمرد عليه إن كان للآمر فيه مصلحة ، وحيث إنه لا مصلحة للحق سبحانه وتعالى فى مراداته من الخلق إلا إصلاح الخلق ذاته ، إذن فمنهج الحق هو لمصلحة الإنسان ، وأول ما يصاب به من يقف فى منهج الله أنه يصبح ضد نفسه ، ولا ينسجم مع الكون ، فإن كان هناك من يريد ألا يسلم ، فليجرب نفسه بألا يسلم فى المقهورات التى هو مقهور عليها ، وهذا أمر مستحيل .

ولنقرأ الموقف القرآنى بدقة ، لنرى أنه الحق بعد القسم وبعد العهد وبعد الإشهاد

عليه ، قال لنا : « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون » . إن من يبغى غير دين الله ليس منطقيا مع نفسه أو مع الكون ؛ لأن الكون كله لله بما فيه ومن فيه من السماوات والأرض ، وكذلك الإنسان الذى ارتضى منهج الله ، وأيضا أسلم الكافر لله فيما ليس له فيه اختيار .

« وأسلم » فى هذا السياق القرآنى الكريم تعنى أنه خضع وسُخر ، وقُهر على أن ينفذ ، ولكن الحق سبحانه أورد عن السماء والأرض فقال:« قالتا أتينا طائعين » . إن المألوف أن ترضخ السماء والأرض لأمر الله ، وعندما « قالتا أتينا طائعين » فقد كسبت السماء والأرض الإسلام لله ، فإلى الله كل مرجع فالإنسان ـ مؤمنا كان أو كافرا ـ سيعود إلى الله حتما .

وكلمة « يرجعون » التى تأتى فى تذييل الآية يمكننا أن نراها فى مواقع أخرى من القرآن مرة تأتى مبنية للمفعول وننطقها « يُرجعون » بمعنى أنهم مقهورون على الرجوع إلى الله ، ونجدها فى مواقع أخرى فى القرآن كفعل مبنى للفاعل فننطقها « يَرجعون » ، أى أنهم يريدون الإسراع فى العودة إلى الله ، وفى هذه الآية نفهم أن الذين يبغون غير دين الله لا يرغبون أن يعودوا إلى الله لذلك يتم إرجاعهم بالقهر ، فسبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الطور)

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ

مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾

عندما ننظر إلى هذه الآية بخواطرنا فإننا نجد أن الحق يمزج الرسول والمؤمنين به والمرسل إليهم فى الإيمان به ، ويتحدث إلى الرسول والمؤمنين كوحدة إيمانية ، إن قول الحق : « قل » هو خطاب لمفرد هو النبى صلى الله عليه وسلم ، والمقول : « آمنا » دليل على انسجام الرسول مع الأمة المؤمنة به ، فكأن الأمة الإسلامية قد انصهرت فى « قل » ، وكأن الرسول موجود فى « آمنا » ، وبذلك يتحقق الامتزاج والانسجام بين الرسول وبين المؤمنين به ، ويصير خطاب الحق إليهم هو خطاب لوحدة إيمانية واحدة لا انفصام فيها .

وقد جاء الحق بهذا الأسلوب ليوضح لنا أن الرسول لم يأت ليتعالى على أمته ، بل جاء ليحمل أعباء هذه الأمة ، ولذلك قلنا من قبل : إن للرسول صلى الله عليه وسلم إيمانين ، لقد آمن بالله ، وآمن للمؤمنين ، وهو صلى الله عليه وسلم سيشفع لنا ، لأنه قد أدى مُؤدى يسع أمته كلها ، لقد أتم البلاغ وخضع للتكليف بما يسع أمته كلها ، ولذلك يقول الحق : « قل آمنا » ، كان القياس أن يقول : « قل آمنت » ، أو أن يقول : « قولوا آمنا » . لكن الحق فى قرآنه الكريم يضع كل كلمة فى موضعها ، فتصبح الكلمة جاذبة لمعناها ، ويصبح كل معنى عاشقا لكلمته ، وقد قال الحق هنا : « قل آمنا » ليتضح لنا أن محمدا رسول ممتزج فى أمته ، وأمة الإسلام فى طواعية لرسولها ، والأمر يأتى لرسول الله من الحق سبحانه ، والتنفيذ لهذا الأمر يكون من الجميع ، وفى هذا إشعار للخصوم أن الرسول صلى الله عليه وسلم سيكون ذا عصبية إيمانية قوية ، فلو قال : « قل آمنت » لكان معنى ذلك أن الرسول لن يملك إلا إيمانه فقط ، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم آمن به قومه ، وكثير غيرهم وجاء على يديه فتح مكة كما قال الحق :

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ ﴾

(سورة النصر)

وعندما نقرأ قوله الحق : « قل آمنا بالله وما أنزل علينا » فلنا أن نلتفت إلى أن العلماء لهم وقفة فى مسألة الإنزال ، فمرة يقول الحق :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ومرة أخرى يقول الحق :

﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة النحل)

وهكذا نجد أن « الإنزال » يأتى مرة متعديا بـ « إلى » ، ويأتى مرة أخرى متعديا « بعلى » . وقال بعض من العلماء : إن الكلام حينما يكون موجها لرسول الله صلى الله عليه وسلم فالحق يقول : « أنزل عليك » ، وكأن هؤلاء العلماء ـ دون قصد منهم ـ يفصلون بين بلاغ الله للرسول عن البلاغ إلى أمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يلتفتوا إلى أن الغاية من إنزال المنهج على الرسول هو هداية الأمة .

ونحن نقول : إن علينا ألا نأخذ الأمر بسطحية من أسلوب ظهر لنا ؛ ذلك أن هناك أسلوبا خفيًّا ، وهو أن « إلى » و« على » إنما تفيدان أن المنهج نزل للأمة والرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فمرة يأتى الحق بالنزول متعديا بـ « إلى » والخطاب موجه للرسول صلى الله عليه وسلم كقوله الحق :

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ومرة يأتى الحق بالنزول متعديا بـ « على » والخطاب موجه للرسول صلى الله عليه

وسلم كقوله الحق :

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة النحل)

ومرة ثالثة يأتى الحق بالإنزال فى حديث إلى المؤمنين :

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

إنه كتاب منزل من السماء وملحوظ فيه العلو ، والغاية من النزول هو مصلحة الأمة ، فالإتيان بـ (على) يفيد العلو ، ولمصلحة الأمة ، « والعلية » هنا لتزيد مقام المنهج بالنسبة للمؤمنين فهو قد نزل لمصلحتهم . إذن فالنزول يقتضى « علية » ، وهو من حيث العلو يأتى بـ « على » ، ومن حيث الغاية يأتى بـ « إلى » ، فهو منهج نزل من الحق الأعلى ونزل إلى الرسول وعلى الرسول ليبلغه إلى المؤمنين لمصلحتهم . ولذلك قلنا : إننا إذا رأينا حكما يقيد من حرية الفرد فلا يصح أن نفهم أن الله قد قصد هذا الفرد ليقيد حريته ، إنما جاء مثل هذا القيد ليقيد الملايين من أجل حرية الفرد ، مثال ذلك ساعة يحرم المنهج السرقة على الإنسان ، فهو أمر لكل إنسان من الملايين وهو لمصلحة كل إنسان ، فالقرآن قد نزل لمصلحتك ، ومصلحة المؤمنين جميعا .

وعندما نقرأ قوله الحق : « قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » . فهذا القول يوضح أن الرسول صلى

الله عليه وسلم إنما جاء بمنهج يضم صحيح العقائد والقصص والأخبار ، وهو يوافق ما جاء فى موكب الرسالات من يوم أن خلق الله الأرض وأرسل الرسل. وقد أخذ الله العهد على الأمم والأنبياء من قبل ، بأنه إذا جاء رسول مصدق لما معهم ليؤمنن به ، وكذلك أخذ الله العهد على رسولنا صلى الله عليه وسلم بأن يؤمن بالرسل السابقين ، فهو صلى الله عليه وسلم لم يأت ليهدم أديانا ، ولكن ليكمل أديانا ، وهكذا نرى النص القرآنى الجليل :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

كأن الأديان السابقة بكل ما جاء فيها من صحيح العقائد ، والقصص ، والأخبار موجودة فى الإسلام ، وفوق كل ذلك جاء الإسلام بشرائع تناسب كل زمان ومكان ، ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديث شريف :

« إنما مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله وأكمله إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويقولون ما رأينا أحسن من هذا لولا موضع هذه اللبنة فكنت أنا اللبنة »(١)

إذن فزمام كل الأمر انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد أخذ الله العهد على غيره أن يصدقوه عندما يجىء ، وهو صلى الله عليه وسلم آمن وصدق بمن سبق من الرسل ، ولن يجىء من بعده شىء يطلب من رسول الله ولا من أمته أن يصدقوه ، وقال الحق تذييلا لهذه الآية الكريمة : « ونحن له مسلمون » .

أى أنه لا يوجد لأتباع أى رسول من الرسل السابقين ما يعطيهم سلطة زمنية ، بل المسألة كلها تبدأ من الله ، وتنتهى إلى الله . وتلك هى القضية النهائية فى موكب

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

الرسالات . ومادام الإسلام هو ذلك الانقياد الذى يختاره الإنسان لنفسه ليكون منسجما مع نفسه فى الإسلام لله ، ويكوّن انسجاما مع الكون الآخر وما يحتويه من حيوان ونبات وجماد وغيرها فى أنه أسلم خضوعا لله ، وبذلك يصبح الكون بما فيه الإنسان المؤمن المسلم لله كله مسخّرا لله سبحانه وتعالى . ومادام الكون بالإنسان قد صار مسخرا لله فلا تضاد فى حركة لتعاند حركة أخرى ؛ لأن الذى يهيمن هذه الهيمنة هو الذى وضع لكل إنسان فى مجال حركته فى الحياة قانونا يعصمه من أن يصطدم بغيره ، وإذا كان البشر قد استطاعوا أن يضعوا لأنفسهم معايير تمنع التصادم فى الحركة ، ذلك التصادم الذى يؤدى إلى كوارث ومصائب .

مثال ذلك ، لننظر إلى السكك الحديدية ، ألا يوجد موظف اسمه « المحولجى » ؟ ومعنى هذه الوظيفة هو أن القائم بها يقوم بتحويل القاطرة القادمة من طريق معين إلى مسار محدد حتى لا تدهم قاطرة أخرى جاءت من الطريق نفسه . إن ذلك من فعل الإنسان فيما صنع من قطارات ومواصلات ، لقد صنع أيضا وسائل تمنع تصادمها ، فما بالنا بالحق - وله المثل الأعلى - وهو الذى خلق الإنسان ؟ إنه سبحانه قد وضع المنهج حتى لا تصطدم حركة فى الوجود بحركة أخرى .

ولننظر إلى الأشياء التى جاءت بقانون التسخير ، والأشياء التى دخلت فى ظل الاختيار . أسمعنا أن جملين سارا فى طريقين متعارضين واصطدم الجمل بجمل ؟ لم يحدث ذلك أبدا ، فالجمل يفادى نفسه وما يحمل من الجمل الآخر وما يحمله ، لكننا نسمع عن تصادم سيارة مع سيارة ، ذلك أن السيارة لا تسير بذاتها بل تسير بقيادة إنسان مختار ، وهو الذى يصدم وهو الذى قد تأتى منه فى غفلته الكوارث .

إذن فتصادم حركة بحركة إنما ينشأ فى الأمور الاختيارية ، أو غفلة إنسان عن مهمته ، كغفلة « المحولجى » عن عمله فى تنظيم مرور القطارات ، لكن تصادم حركة فى الوجود بحركة أخرى فى الوجود هو أمر مستحيل ، ولا يحدث أبدا ؛ لأن الأمر الذى مازال فى يد المهيمن الأعلى ، مهيمن الأرض والسماء ، وهو الله الذى يسير الكون منسجما ويعرفنا بصفاته فيقول : « الله لا إله إلا هو الحىّ القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم » ومعناه : أى أنا القائم بأسبابكم ومدبر أمركم ولا أنام أو تأخذنا سنة أو غفلة أى فناموا أنتم فقد سخرت الوجود كله من أجلكم .

ومادام الأمر فى الإسلام هكذا ، والوجود ينسجم مع نفسه ، فلماذا تشذ أنت أيها الإنسان عن الوجود ؟ ولماذا تشذ عن ملكات نفسك ؟

لماذا لا تكون منسجما مع الكون ؟ إنك إن انسجمت مع نفسك ومع الكون صرت الإنسان السعيد .

وفى عصرنا الحديث نرى ارتقاء العالم ماديا بصورة عالية ، بحيث يقع الحدث فى أمريكا مثلا فنراه على شاشة التليفزيون فورا ، ويركب الإنسان مركبا صاروخيا إلى الفضاء ولكن هل استراح العالم ؟ لا ، لقد ازداد العالم عناء ، وكأنه يكد ذهنه ويرهق العلماء فى معاملهم لابتكار أشياء تعطى للعالم مزيدا من القلق والاضطراب وتتصادم وتتعارض . وبذلك صار الكون لا يفرغ أبدا من حرب باردة أو ساخنة .

كل ذلك إنما ينشأ من إدارة أمور العالم بأهواء البشر ، فلسنا جميعا مردودين إلى منهج واحد يأمرنا فنأتمر ، وينهانا فننتهى ، بل كل إنسان يتبع فى عمله هواه ، لذلك نرى القلق والاضطراب ، ونرى الصرخات تملأ الدنيا من أهوال ومصائب ، منها مثلا المخدرات وغيرها. إن الذى يدمن المخدرات هو إنسان غير راض عن واقع حياته، فلا يريد مواجهة حياته ، إنما يحاول الهرب منها بالإدمان ، ونقول لمثل هذا الإنسان : ليس هذا حلا للمشكلة ؛ لأن الإنسان عندما تأتيه مشكلة فهو يحتاج عقلا على عقله ليواجه هذه المشكلة ، وأنت بهذا الإدمان إنما تُضَيِّع عقلك ، رغم أنك مطالب بأن تأتى بعقل آخر بجانب عقلك لتحل مشكلتك ، فالهرب من المشكلة لا يحلها ، إنما الهروب غباء وقلة فطنة فالمشكلة زادت تعقيدا ونقول للمجتمعات التى تشكو من مثل هذه البلايا لو أخذتم شرائعكم من منهج الله لكان ذلك حماية لكم من مثل تلك الكوارث .

وهكذا نرى أن كل الابتكارات تُوجه دائما إلى الشر أولا ، فإذا لم يوجد لها ميدان شر فإننا نوجهها إلى الخير ، ويا ليته خير خالص لوجه الله ، لا ، إنه خير مجنح ومنحرف عن الخير لأن الذى لا يملك هذا اللون من الاختراعات كالشعوب النامية والعالم الثالث قد جعله المخترعون بوساطة هذه الاكتشافات والمخترعات مستعبدا ومقهورا لهم ؛ إنهم جعلوا تقدمهم استعبادا وإذلالا لغيرهم وإن تظاهروا بغير ذلك .

لماذا يحدث كل ذلك ؟ لأننا لم نكن منطقيين ـ كما يجب ـ مع أنفسنا ولا مع واقع

الأمور النهوضية التي نحن فيها فالطموحات العلمية التي لا حد لها لا يصح أن تسبب لنا كل هذا التعب ، بل كان المفروض بعد الوصول إلى تحقيق هذه الطموحات أن نستريح ، ولكن لِمَ لم يحدث هذا ؟ لأن زمامنا نحن البشر بيد أهوائنا ، والأهواء ليست هي اليد الأمينة ، إن اليد الأمينة هي شرع الله الذي لم يشرع إلا لمصلحة من خلق ، ومادام الإسلام يرسم طريق الأمان مع الخالق والنفس والكون الذي نحياه ، بما فيه من الأجناس الأخرى ، إذن فالدين عند الله هو الإسلام ، وهذه هي النتيجة الحتمية لذلك يقول الحق سبحانه : « ونحن له مسلمون » ويتبعها الحق سبحانه بقوله :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

إن الغاية التي تسعد العالم كله هي دين الإسلام ، ومن يرد دينا غير ذلك فلن يقبله الله منه . فإن كان هناك من لا يعجبه تقنين السماء ويقول مندهشا : إن في هذا التقنين قسوة ؛ إنك تُقطع يد إنسان وتشوهه نرد على مثل هذا القائل : إن سيارة تصدم سيارة تشوه عشرات من البشر داخل السيارتين ، أو قطار يصاب بكارثة فيشوه مئات من البشر .

ونحن عندما نبحث عن عدد الأيدي التي تم قطعها في تاريخ الإسلام كله ، فلن نجدها إلا أقل كثيرا من عدد المشوهين بالحوادث ، وأي ادعاء بالمحافظة على جمال الإنسان مسألة تثير السخرية ؛ لأن تقنين قطع يد السارق استقامت به الحياة ، بينما الحروب الناتجة عن الهوى شوهت وأفنت المئات والآلاف ، إن مثل هذا القول سفسطة ، هل معنى تشريع العقوبة أن يحدث الذنب ؟ لا ، إن تشريع العقوبة يعني تحذير الإنسان من أن يرتكب الذنب .

وعندما نقول لإنسان : « إن قتلت نفسا فسيتولى ولي الأمر قتلك » أليس في ذلك

حفاظ على حياته وحياة الآخرين ؟ وحين يحافظ التشريع على حياة فرد واحد فهو يحافظ فى الوقت نفسه على حياة كل إنسان ، يقول الله تعالى :

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وهكذا يصبح هذا التقنين سليما غاية السلامة ، إذن فقول الحق سبحانه : « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه » يدلنا على أن الذى يشرع تشريعا يناقض ما شرعه الله فكأنه خطأ الله فيما شرع ، وكأنه قد قال لله : أنا أكثر حنانا على الخلق منك أيها الإله ؛ لأنه قد فاتتك هذه المسألة .

وفى هذا القول فسق عن شرع الله ، وعلى الإنسان أن يلتزم الأدب مع خالقه . وليرد كل شىء إلى الله المربى ، وحين ترد أيها الإنسان كل شىء إلى ربك فأنت تستريح وتريح ، اللهم إلا أن يكون لك مصلحة فى الانحراف . فإن كان لك مصلحة فى الانحراف فأنت تريد غير ما أراد الله ، أما إذا أردت مصلحة الناس فقد شرع الحق ما فيه مصلحة كل الناس ؛ لذلك قال الحق : « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

وقد يقول قائل فى قوله تعالى : « فلن يقبل منه » إن هذه العبارة لا تكفى فى منحى اطمئناننا إلى جزاء العمل الذى أتقرب به إلى الله؛ فالله قد يقبل وقد لا يقبل فهو - سبحانه - لا أحد يكرهه على شىء ، ونقول له: إنك ستأتى إلى ربك رضيت أو أبيت فما حاجتك إلى هذا القول ؟ لو كنت تستطيع أن تعجز الله وتفوته فلا يقدر عليك؛ لحقّ لك أن تقول ذلك ، ولكنك لا تستطيع ، فكن عاقلا ولا تتمرد على أمر ربك ، ويقول الحق : « وهو فى الآخرة من الخاسرين » . والخاسر : مأخوذة من « الخسر » ، و« الخسر » هو ذهاب رأس المال وضياعه ، والآخرة حياة ليس بعدها حياة ، ومن الغباء أن يقول قائل : « سوف أتعذب قليلا ثم تنتهى المسألة » لا ، إن المسألة لا تنتهى ؛ لأن الآخرة حياة دائمة ولا حياة بعدها . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

إننا نرى هنا الأسلوب البديع ؛ إن الحق سبحانه يدعونا أن نتعجب من قوم كفروا بعد الإيمان ، إنهم لو لم يعلنوا الإيمان من قبل لقلنا : إنهم لم يذوقوا حلاوة الإيمان ، لكن الذى آمن وذاق حلاوة الإيمان كيف يقبل على نفسه أن يذهب إلى الكفر ؟ إنه التمرد المركب .

وقد يتساءل إنسان قائلا : مادام الله لم يهدهم ، فما ذنبهم ؟ نقول له : يجب أن تتذكر ما نكرره دائما ، لتتضح القضية فى الذهن لأنها قضية شائعة وخاصة عند غير الملتزمين ، الذين يقول الواحد منهم : إن الله لم يرد هدايتى ، فماذا أفعل أنا ؟ إن ذلك استدلال لتبرير الانحراف ومثل هذا القول لا يصدر إلا من المسرف على نفسه ، ولا يأتى هذا القول أبدا من طائع لله ، إن الذى يقول : « إن المعصية إنما أرادها الله منى ، فما ذنبى ؟» يجب أن يعرف أن الطاعة من الله ، فلماذا لم يقل : « إن الطاعة من الله فلماذا يثيبنا عليها ؟ لماذا تغفل أيها العاصى عن ذكر ثواب الطاعة ، وتقف عند المعصية وتقول : « إن الله قد كتب على المعصية فلماذا يعذبنى ؟» كان يجب أن تقول أيضا : « مادام قد كتب على الطاعة فلماذا يعطينى عليها ثوابا ؟» .

إننا نقول لمن يبرر لنفسه الانحراف : إنك تريد أن تأخذ من الطاعة ثوابها ، وتريد أن تهرب من عقاب المعصية . وأنت تحتاج إلى أن تفهم الأمر على حقيقته ، لقد قلت من قبل: إن « الهداية » تأتى بمعنيين « هدى » أى دل على الطريق الموصلة للغاية المرجوة ولم يصنع شيئا أكثر من ذلك والمثال هو إشارات المرور الصماء ؛ إن كل إشارة توضح طريقا معينا وتهدى إليه ، وإشارة أخرى توضح طريقا آخر وتهدى إليه . ولا يوجد أحد عند هذه الإشارة يأخذ بيد الإنسان ويقول له : أنا سآخذ بيدك وأصلح لك العربة عندما تقف منك ، أو أركب معك لأوصلك إلى غايتك .

إن هذه الإشارة هي هداية فقط ، أي أنها دلالة على الطريق الموصلة إلى الغاية المرجوة والله سبحانه وتعالى قد هدى الناس جميعا المؤمن منهم والكافر أيضا ، أي دلّهم سبحانه على الطريق الموصل للغاية . وانقسم الناس بعد ذلك إلى قسمين : قسم قَبِل هذا المنهج وارتضاه وسار كما يريد الله ، وساعة أن راح هذا المؤمن إلى جناب الله وآمن به ، فكأن الحق يقول له : إنك آمنت بي وبمنهجي ، لذلك ستكون لك جائزة أخرى ، وهي أن أعينك وأخفف عليك الأمور ، وهذه هي الهداية الثانية التي يعطيها الله جائزة لمن آمن به وارتضى منهجه وتعني « المعونة » ، إن الله يعطي عبده المؤمن حلاوة الطاعة ، ويجعله مقبلا عليها بنشاط .

إذن فالهداية تكون مرة « دلالة » وتكون مرة ثانية « معونة » إنني أكرر هذا القول حتى يتضح الأمر في أذهاننا جميعا ، ولنذكره دائما ، ونقول : مَن يعين الإنسان ؟ إن الذي يعينه هو من آمن به ، أما من كفر بالله ، فلا يعينه الله .

وسبق أن قلت مثلا ـ ومازلت أضربه ـ : إن إنسانا ما يسير في طريق ثم التبس عليه الطريق الموصل للغاية كالمسافر إلى الإسكندرية مثلا ، وبعد ذلك وجد شرطيا واقفا فسأله : أين الطريق إلى الإسكندرية ؟

فيشير الشرطي إلى الطريق الموصل إلى الإسكندرية قائلا للسائل : هذا هو الطريق الصحيح إلى الإسكندرية .

إن الشرطي هنا قد دل هذا الإنسان ، لكن عندما يقول السائل للشرطي : « الحمد لله أنني وجدتك هنا لأنك يسرت لي السبيل » فهذا القول يأسر قلب الشرطي ، فيزيد من إرشاداته للسائل ويوضح له بالتفصيل الدقيق كيف يصل إلى الطريق ، وينبهه إلى أي عقبة قد تعترضه ، وإن زاد السائل في شكره للشرطي ، فإن ذلك يأسر وجدان الشرطي أكثر ، ويتطوع ليركب مع السائل ليوصله إلى الطريق ، شارحا له ما يجب أن يتجنبه من عقبات ، وبذلك يكون الشرطي قد قدم كل المعونة لمن شكره .

لكن لنفترض أن رجلا آخر سأل الشرطي عن الطريق ، فكذب الرجل الشرطي ، وفي مثل هذا الموقف يتجاهل الشرطي مثل هذا الرجل ، وقد ضربت

هذا المثل للتقريب لا للتشبيه . إن الحق يدل أولا بهداية الدلالة ، وقد هدى الله الناس جميعا ، أي دلهم على المنهج ، فمن ذهب إلى رحابه وآمن به ، أعطاه الله هداية ثانية ، وهي هداية المعونة والتيسير .

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

إن الحق يعطيهم حلاوة الهداية وهي التقوى ، كأن الحق يقول للعبد المؤمن : مادمت قد أقبلت عليّ بالإيمان فلك حلاوة الإيمان ، أما الذي يكفر ، والذي يظلم نفسه بالشرك ، فالحق يمنع عنه هداية المعونة ؛ لأنه قد رأى هداية الدلالة ولم يؤمن بها . إذن فالاستفهام في قوله تعالى : « كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم » هو تساؤل يراد به الإنكار والاستبعاد لا عن الهداية الأولى وهي هداية الدلالة ، ولكنه عن هداية المعونة ، أي : كيف أعين من كفر بي ؟

والمقصود بهذا القول هو بعض من أهل الكتاب الذين جاءهم نعت الرسول صلى الله عليه وسلم في كتبهم حتى إن عبدالله بن سلام وهو منهم ، يقول : لقد عرفت محمدًا حين رأيته كمعرفتي لابني ، ومعرفتي لمحمد أشد ، ومصداق ذلك ما يقوله الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والتعبير القرآني الدقيق لم يقل : يجدون وصفه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل إنما يقول الحق :

﴿ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾

(من الآية ١٥٧ سورة الأعراف)

كأن الذى يقرأ التوراة والإنجيل يمكنه أن يرى صورة النبى عليه الصلاة والسلام من دقة الوصف ، لقد عرفته التوراة وعرفه الإنجيل معرفة مفصلة وشاملة ، مع نطق وقول يؤكد ذلك وهناك فرق بين أن « تعرف » وبين أن « تقول » ؛ فقد يعرف الإنسان ويكتم ما عرف ، ولكنهم عرفوا الرسول صلى الله عليه وسلم واعترفوا بذلك ، فقد كانوا من قبل يستفتحون به على الذين كفروا ، قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

لقد أخذوا الرسول صلى الله عليه وسلم قبل مجيئه نصرة على الكافرين ، فقالوا : سيأتى نبى ونتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم . فماذا فعلوا ؟ إن الحق يجيب :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

إذن هم آمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم من قبل مجيئه ، فلما جاء كفروا به . انظر إلى العدالة من الحق سبحانه وتعالى ، حين يريد أن يدلهم على موقف الصدق والحق والكرامة الإيمانية .

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾

(سورة الرعد)

إن الذين عندهم علم الكتاب هم اليهود والنصارى ، هؤلاء يشهدون أن محمدا رسول الله ، وإن القرآن بعدالته ينصف التوراة والإنجيل وهى الكتب التى بين أيديهم ،

« كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق » لقد آمنوا به رسولا من منطوق كتبهم ، ثم أعلنوها حينما قالوا : « يأتى نبى نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم » .

فإذا كانوا قد صنعوا ذلك ، فكيف يهديهم الله ؟ إنهم ليس لديهم الاستعداد للهداية ، ولم يقبلوا على الله بشيء من الحب ، لذلك فهو سبحانه لا يعينهم على الهداية ولو أقبلوا على الله لأعانهم قال تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

وهؤلاء لم يهتدوا ، فلذلك تركهم الله بدون هداية المعونة ، وهذا يوضح لنا معنى القول الحق :

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ٨٨ سورة النساء)

إن الذين لم يهتدوا بهداية الدلالة فلم يؤمنوا يضلهم الله أى يتركهم فى غيهم وكفرهم ، أى أنه مادام هناك من لم يؤمن بالله فهل يمسك الله بيده ليهديه هداية المعونة ؟ لا ، لأنه إذا لم يؤمن بالأصل وهو هداية الدلالة ، فكيف يمنحه الله هداية المعونة ؟ ومادام لم يؤمن بالله أكان يصدق التيسيرات التى يمنحها الله له ؟ لا . إنه لا يصدقها ، ويجب أن تعلم أن هداية الدلالة هداية عامة لكل مخاطب خطابا تكليفيا ، وهو الإنسان على إطلاقه ، أما هداية المعونة فهى لمن أقبل مؤمنا بالله وكأن الحق يقول له : « أنت آمنت بدلالتى فخذ معونتى » أو « أنت أهل لمعونتى » أو « ستجد التيسير فى كل الأمور » ، أما الذى كفر فلا يهديه الله . .

إن الحق سبحانه لا يعين الكافر ؛ لأن المعونة تقتضى ابتداء فعلاً من المُعان ، والكافر لم يفعل ما يمكن أن ينال به هذه المعونة ، فهو لم يؤمن ، لذلك يكون القول الفصل : « والله لا يهدى القوم الكافرين » ويكون القول الحق « والله لا يهدى القوم الفاسقين » ويكون القول الحق « والله لا يهدى القوم الظالمين » . إن هؤلاء هم

الظالمون الذين ارتكبوا الظلم الأصيل وهو الشرك بالله كما قال الحق :

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة لقمان)

والحق عندما يتركهم فإنه يزيدهم ضلالا ، ويختم على قلوبهم ، فلا يعرفون طريقا إلى الإيمان :

﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

لقد جاءهم الرسول بالآيات الدالة على صدق رسالته ، ولكنهم ظلموا أنفسهم الظلم الكبير العظيم ، وهو الشرك بالله ، ولكن هل هذه الآية قد نزلت فى أهل الكتاب الذين كان عندهم نعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإشارات وبشارات به ؟ أو نزلت من أجل شيء آخر هو أن أناسا آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ثم كفروا به ؟

إن القول الحق يتناول الفئتين ، وينطبق عليهم ، سواء أكانوا من أهل الكتاب الذين آمنوا بالرسل من قبل ولم يؤمنوا برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، أم من الذين آمنوا برسالة رسول الله ثم كفروا به ، كما حدث من بعضهم فى عهد الرسول ، مثال ذلك طعمة بن أبيرق ، وابن الأسلت والحارث بن سويد ، هؤلاء أعلنوا الإيمان واتجهوا إلى مكة ومكثوا فيها ، تاب منهم واحد وأخذ له أخوه ضمانا عند رسول الله ، والباقون لم يتوبوا .

إن القول الحق يتناول الفئتين ، وينطبق عليهم جميعا قوله تعالى :

﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ

﴿ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ويفصل لنا الحق سبحانه جزاء هؤلاء بقوله الحكيم :

﴿ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

واللعنة هى الطرد من الرحمة ، والله يعلم كل ملعون منهم ، وماداموا قد طُرِدوا من رحمة الله فالملائكة وهم المؤمنون بالله إيمان المشهد يرددون اللعنة ، والمؤمنون من خلق الله يرددون اللعنة ، وكذلك يلعنهم جميع الناس ، وكيف يلعنهم كل الناس سواء أكانوا مؤمنين أم كفارا ؟ كيف يلعنهم الكافرون ؟ إن الكافر عندما يرى إنسانا يرتكب معصية ما فإنه ينزله من نظره ويحتقره وإن لم يكن مؤمنا .

وهَب أن كافرا وجد إنسانا يخرج على المنهج ويفعل معصية ويرتكب جُرمًا ألا يلعن الكافر مثل ذلك الإنسان ؟ إنه يلعنه لأن الفطرة المركوزة التى فطر الله الناس عليها ترفض ذلك ولا ترتضيه .

وهكذا شاء الحق أن يجعلهم ككفار يتلاعنون فيما بينهم ، ونجد أن جميع الناس يلعنونهم كذلك ؛ لأنهم قد خرجوا عن منهج الله بالكفر بعد الإيمان ، وجرهم ذلك إلى اقتراف الآثام ، وهكذا تصبح الملاعنة من الجميع ، وهم مع ذلك خالدون فى اللعنة قال تعالى :

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

ومعنى « لا يخفف عنهم العذاب » أى أن العذاب يظل دائما أبدا وقد يظن بعض الناس أن الكافر مادام سيدخل النار ويحترق فسوف ينتهى أمره. لا إنه يغفل قضية ويذكر قضية ، إنه يتناسى قول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

إنهم سيذوقون العذاب بأمر من الحق دائما وأبدا ، وقد يقول بعضهم : إن العلم قد توصل إلى أن الإنسان تقل حساسيته للألم الناتج من الضرب بالسوط بعد العشرين سوطا الأولى ، وهو بذلك ينسى أن العذاب فى الآخرة على نمط آخر ، إن الله يخلق للمعذب إحساسا جديدا ليظل مستشعرا دائما العذاب ، قال الحق : « لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون » أى أن عذابهم مؤكد ولا يتركهم الحق ليستريحوا من عذابهم . وبعد ذلك يقول تعالى :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى هو الخالق للخلق كلهم ، يجب أن يكونوا على ما يود

ويحب ؛ لأنهم صنعة الله فهو سبحانه وتعالى يحب التوابين ويحب المتطهرين

وقد أمر عباده أن يتوبوا إليه توبة نصوحاً أى توبة صادقة خالصة لا رجوع فيها هذه التوبة تتسم بالاقلاع عن الذنب والندم على ما فات والعزم على عدم العودة للذنب مرة أخرى ورد المظالم لأصحابها إن كانت هناك مظالم .

وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها »[١] .

وهكذا أوجد الحق تشريع التوبة بهدف إصلاح الكون ؛ لأن الله لو لم يشرع التوبة لمن أذنب فإن من غفل عن منهج الله ولو مرة واحدة قد يصير فى نظر نفسه ضائعا فاسدًا مرتكبا لكل الحماقات ، فكأن الله بتشريع التوبة قد ضمن لصاحب الإسراف على نفسه فى ذنب أن يعود إلى الله ، كما يرحم المجتمع من شرور إنسان فاسد ، إذن فتشريع التوبة إنما جاء لصالح الكون ، ولصالح الإنسان لينعم بمحبة الله ، لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فبرغم كفرهم السابق إلا أن الله برحمته لا يدخلهم فى الوعيد ؛ إنهم مطالبون بالتوبة والإصلاح ، ومعنى كلمة « أصلح » أنه زاد شيئا صالحا على صلاحه . والكون ليس فيه شيء فاسد .اللهم إلا ما ينشأ عن فعل اختيارى من الإنسان وعلى التائب أن يزيد من الصلاح فى الكون ، وهكذا نضمن ألا يجيء التائب إلى الشيء فيفسده ؛ لأن من يريد أن يزيد الصالح صلاحا ، لن يفسد الشيء الصالح .

وربما كان هؤلاء الذين أسرفوا على أنفسهم فى لحظة من لحظات غفلة وعيهم الإيمانى ساعة يذكرون الذنب أو الجريرة التى اقترفوهابالنسبة لدينهم ، يحاولون أن يجدّوا ويسارعوا فى أمر صالح حتى يَجْبُر الله كسر معصيتهم السابقة بطاعتهم اللاحقة .

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه .

ولذلك تجد كثيرا من الناس الذين يتحمسون للإصلاح وللخير ، هم أناس قد تكون فيهم زاوية من زوايا الإسراف على نفوسهم فى شىء ، وبعد ذلك يتجهون لعمل الخيرات فى مجالات كثيرة جدا ، كأن الله يقول لكل منهم : أنت اختلست من محارمى شيئا وأنا سآخذك إلى حلائلى ، إنه الحق يجعل من معصية الفرد السابقة سياطا دائمة تلهب ضميره فيتجه إلى الخير ، فيتصدق على الفقراء ، وربما كان أهل الطاعة الرتيبة ليس فى حياتهم مثل هذه السياط .

ولكن الذين أسرفوا على أنفسهم هم الذين تلهبهم تلك السياط ، فساعة يرى الواحد منكم إنسانا قد أسرف على نفسه فليدع الله له بالهداية ، واعلم تمام العلم أن الله سيُسخر منه ما يفعل به الخير ؛ لأن أحدا لن يسرق الكون من خالقه أبدا . وهذا ينطبق على من قال عنهم الله : « إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا » (وأصلحوا) أى عملوا صلاحات كثيرة لأن حرارة إسرافهم على نفوسهم تلهب ظهورهم دائما ، فهم يريدون أن يصنعوا دائما أشياء لاحقة تستر انحرافاتهم السابقة وتذهبها .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

هذه الآية تحدث عن أولئك الذين كفروا بعد إيمانهم ، وازدادوا كفرا ، وهؤلاء لا تقبل توبتهم وهم الضالون ، وقد جاءت مقابلة للآية السابقة ، أناس تابوا وأناس لم يتوبوا . لكن كيف يزداد الكفر ؟ إنه قد كفر فى ذاته ، وبعد ذلك كان عائقا لغيره عن أن يؤمن ، وهو لا يكتفى بخيبته ، بل يحاول أن ينشر خيبته على الآخرين ، وفى ذلك ازدياد فى الكفر والعياذ بالله ، وهذا القول قد نزل فى بعض من اليهود الذين آمنوا بالبشارات التى تنبأت بمقدم عيسى عليه السلام ، فلما جاء عيسى كفروا به ، ولما جاء محمد ازدادوا كفرا .

لقد كفروا بعيسى أولا ، ثم ازدادوا كفرا بمحمد وادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وهؤلاء ليسوا من الذين تابوا . أو أنهم أعلنوا التوبة باللسان ، ولم يتوبوا التوبة النصوح ، « والراجع فى توبته كالمستهزىء بربه » . وقانا الله وإياكم هذا المنقلب .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

لقد كفروا ، ولم يقدر الله لهم أن يتوبوا ، فماتوا على الكفر ، ويريد الله أن يعطينا حكما خاصا بعملهم فى الدنيا ، وحكما خاصا بما يتلقونه من عذاب فى الآخرة ، والحكم الخاص بعملهم فى الدنيا سببه أن لهم اختيارا ، والحكم الخاص بما يتلقونه فى الآخرة من عقاب لأنه لا خيار لهم ، وهنا للعلماء وقفة ، فهل ملء الأرض ذهبا أنهم أنفقوا فى حياتهم ملء الأرض ذهبا ؟ نقول له : لا ينفعك هذا الإنفاق فى أعمال الخير لأن أعمالك حابطة .

هب أن كافرا مات على الكفر وقد أنفق فى الخير ملء الأرض ذهبا ، نقول له : هذا الإنفاق لا ينفع ، مع الخيانة العظمى وهى الكفر ، فمادام غير مؤمن بإله ، فهو قد أنفق هذا المال من أجل الناس ، وصار منفقا على من لا يقدر على أن يجازيه بالخير فى الآخرة ، لذلك فليس له عند الله شىء ، فالذى يعمل عملا ، عليه أن يطلب أجرا ممن عمل له ، فهل كان الله فى بال ذلك الكافر ؟ لا ؛ لأنه مات على الكفر ، لذلك لو أنفق ملء الأرض ذهبا فلن يقبل منه . لقد صنع ذلك الخير وفى باله الناس ، والناس يعطونه حقه من الثناء ، سواء كان مخترعا أو محسنا أو غير ذلك ، إنه ينال أجره من الإنسانية ، وينطبق عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« وفعلت ليقال وقد قيل »[1]

(من حديث شريف)

كأن الله يقول له : لم أكن فى بالك فلماذا تطلب منى أجرا فى الآخرة ، لم يكن فى بالك أن الملك لى ، قال سبحانه :

﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة غافر)

وبعض الناس يقول : كيف لا ينال ثواب الآخرة من ملئوا الدنيا بالاكتشافات والابتكارات وخففوا بها آلام الإنسانية ؟ نقول : لقد أعطتهم الإنسانية وخلدت ذكراهم ، وأقامت لهم التماثيل والمؤلفات والأعياد والجوائز ، لقد عملوا للناس فأعطاهم الناس ، فلا بخس فى حقوقهم ، ذلك أنهم لم يعملوا وفى بالهم الله ، وقد صور الحق موقفهم التصوير الرائع فيقول جل شأنه :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النور)

إنه سراب ناتج عن تخيل الماء فى الصحراء يتوهمه السائر العطشان فى الصحراء نتيجة انعكاسات الضوء ، فيظل السائر متجها إلى وهم الماء ، إنه يصنع الأمل لنفسه ، فإذا جاءه لم يجده شيئا ، ويفاجأ بوجود الله ، فيندم ويتلقى العذاب ، وكذلك لن يقبل منه ملء الأرض ذهبا لو أنفقه فى أى خير فى الدنيا ، وبعد ذلك لن يقبل الله منه ملء الأرض ذهبا لو افتدى به نفسه فى الآخرة ، إن كان سيجد ملء الأرض ذهبا ، وعلى فرض أنه قد وجد ملء الأرض ذهبا ، فهل يجد من يقبل ذلك منه ؟ لا،إنه فى الحقيقة لن يجد الذهب ؛ لأنه فى الآخرة لم يعد يملك شيئا : يقول الحق :

---

(١) رواه مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه .

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(سورة غافر)

ويقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الزمر)

« أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين » أى إن هؤلاء عذابا أليما ؛ لأن كل حدث من الأحداث إنما يأخذ قوته من قوة فاعله ، فإذا كان الحدث التعذيبى منسوبا إلى الله وله مطلق القوة والقدرة ، لذلك فالعذاب لن يطاق . ولن يجد الظالم من يدرأ عنه هذا العذاب . لأنه لن يجد ناصرا له ، ولن يجد شفيعا فلن يأتى أحد ويقول : إن فلانا يتعذب فهيا بنا ننصره ، لا يأتى أحد لينصره .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾

وتؤدى كل مادة الباء والراء المضعفة إلى معنى « السعة » ، فـ « البَرّ » أى الواسع والبَرّ أى الأرض المتسعة ومقابله « البحر » وإن قال قائل : « إن البحر أوسع من البر ، لأن حجم القارات ليس فى حجم البحار والمحيطات التى تفصل بينها : « نقول لمثل هذا القائل » لا ، إن حركتك فى البر ـ الأرض ـ موسعة ، وحركتك فى البحر مضيقة ؛ لأنك لا تتحرك فى البحر إلا على شكل خاص ، إما أن تتحرك بسفينة أو

حتى على لوح من الخشب ، أما حركتك فى البر ـ الأرض ـ فأنت تمشى أو تركب ، تذهب أو تجىء ، فمجالك فى البر متسع عن مجالك فى البحر .

و« البِرّ » هو التقوى ، والطاعة ، أو هو « الجنة » وكلها معان ملتقية ، لأنها تؤدى إلى السعة ، فالطاعة تؤدى إلى السعة ، وكذلك التقوى ، وكذلك الجنة ، كلها ملتقية ؛ لأن كلها سعة ، فأحدهم أخذ معنى الكلمة من مرحلتها الأولى أى بالسبب وهو الطاعة ، وبعضهم أخذها من المرحلة الأخيرة أى بالمسبب وهو الجنة ، وقد يسأل سائل ، لماذا أراد الله أن يجىء بحديث عن النفقة بعد الحديث عن تعذيب الكفار ؟ ونقول : إن الحق حين يتكلم عمن يصيبه العذاب الأليم لأنه كفر ومات كافرا ، وماله من ناصرين فإن المقابل يأتى إلى الذهن ، وهو من آمن وعمل صالحا ، ومات على إيمانه ، فله عكس العذاب الأليم وهو النعيم ، وسيجد من يأخذ بيده ، بينما الكافر لن يجد ناصرين له . إن المؤمن سيجد جزاء الله على الطاعة وهى البر ؛ لأن البر هو كل خير ، وإن جاء على اطلاقه فإنه ينصرف إلى الجزاء من الله وقمته هو الجنة .

وهكذا نرى المقابل لمعاملة الحق للكفار وهو معاملة الحق للمؤمنين ، لقد جاء هذا القول فى القرآن وهو كلام الله المعجز ، وحين يخاطب سبحانه المكلفين بالمنهج . فهو يخاطب بكلامه ملكات إنسانية خلقها هو ، إذن فلابد أن يغذى هذا الكلام كل الملكات المخلوقة لله ، فلو كان الخالق للملكات غير المتكلم لكان من الممكن ألا ينسجم الكلام مع الملكات ، ولكن الكلام هنا لله الذى خلق ، لذلك لابد أن تنسجم الملكات مع كلام الله .

وفى النفس الإنسانية ملكات متعددة ، وهذه الملكات المتعددة متشابكة تشابكا دقيقا فتستطيع حين تخاطب ملكة سمعية أن تحرك مواجيد وجدانية ، فإن لم يكن العالم بالملكات عليما بها لما أمكن أن يجىء المنطق موافقا لملكة سمعية ، وموافقا لملكات وجدانية قد تتأتى بها طبيعة تداعى المعانى .

و« تداعى المعانى » هو الخاصية الموجودة فى الإنسان ، ومعنى « تداعى المعانى » أن الإنسان يستقبل معنى من المعانى فيشير ذلك المعنى إلى معان خبيئة يستدعيها لتحضر فى الذهن ، فمثلا حين ترى إنسانا تعرفه . فإن تداعى المعانى يعطيك تاريخك معه

وتاريخه معك ، ويصور بخاطرك أيضا صورا عن أهله وأصدقائه ، ومعارفه ، ويأتى لك تداعى المعانى بالأحداث التى كانت بينك وبينه أو شاهدتها أنت وهذا هو ما نسميه « تداعى المعانى » أى أن المعنى يدعو المعنى .

وحين يخاطب الله سبحانه وتعالى الإنسان ، فإنه يخاطب كل ملكة فيه فى آن واحد ، حتى لا تأخذ ملكة غذاءها ، دون ملكة أخرى لا تجد لها غذاء إن كلام الله جاء مستوفيا وكافيا لكل الملكات ، ومثال ذلك حينما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يمنع المشركين من أن يطوفوا بالبيت ، وكان المشركون قبل تحريم الله لطوافهم ، يطوفون بالبيت ، ويأتون من أماكن سحيقة بعيدة ليطوفوا فى موسم الحج ، وكانوا يأتون بأموالهم لينفقوها على أهل مكة ، ويشتروا كل شيء يلزمهم منها ، فموسم الحج كان موسما اقتصاديا . وحين يريد الله أن يمنع المشركين من الحج فهو يخاطب المسلمين المقيمين بمكة حتى يحولوا بين المشركين وبين الطواف ، وهو سبحانه قد علم ـ وهو العليم ـ بما خلق من ملكات ، يعلم سبحانه أن ملكة أخرى ستتدخل فى هذا الوقت ، فيقول :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

وعندما ينزل هذا الحكم فلابد أن تتحرك ملكات فى النفس الإنسانية ، والحق قد علم أزلا أن ملكة النفعية الاقتصادية عند أهل مكة ستتحرك عند سماع هذا الحكم ، بمعنى أن بعضا من المسلمين المقيمين بمكة وقت نزول هذا الحكم قد يقولون : « وإذا كنا نمنع المشركين الذين يفدون علينا بالأموال ليشتروا بضائعنا وموسمهم الاقتصادى هو الذى يعولنا طيلة العام فماذا نصنع إذن ؟ إن الله يعلم أنه عند نزول حكم بتحريم البيت على المشركين أن يقربوه فلا بد أن تتحرك فى النفس الإنسانية تلك الملكة النفعية ، فيقول ـ سبحانه ـ عقب ذلك مباشرة :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

الخوف من العيلة ، أى الخوف من الفقر ، وتلك هى عظمة الكلام الإلهى لأن

رُبَّمَا يتكلم إن الإنسان حينما يتكلم قد تفوته معان كثيرة ، وبعد ذلك قد تحدث ضجة وبلبلة وثورة بين الناس ، لكن الحق الأعلى عندما يقول : « إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » ويتبع ذلك فورا بقوله المطمئن : « وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله » وقد فعل وجبى الحق وجلب إلى البيت الحرام ثمرات كل شيء ، وكأنه يقول لنا : لا تعتقدوا أن هذه الثمرات قادمة عن طريق التطوع ولكنها رزق من لدنا ، كما جاء فى قوله الحق :

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

(سورة القصص)

أى أنه ليست هناك حرية لأحد أن يعطى أهل البيت الحرام أو لا يعطى ، إنها جباية ، لطمأنة الملكة النفعية فى النفس ، وهو سبحانه يعطى الأمان الاقتصادى الذى يترتب عليه قوام الحياة ، وعندما نمعن النظر فى آيات القرآن نجد أن هناك آية قد تتقدم وآية قد تتأخر ، وآية قد تأتى فى الوسط ، ونجد أن الآية الوسطى ، مرتبطة بتداعى المعانى بالآية التى قبلها ، ومرتبطة بتداعى المعانى بالآية التى بعدها ، وذلك لترتوى وتتغذى كل ملكات الإنسان فلا يأتى أمر يوحى بأن هناك ما ينقص النفس البشرية ، لنتأمل مثالا لذلك وهو قوله الحق :

﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

(من الآية ٨ سورة المجادلة)

إن المشركين لم يقولوا لأحد : « إنما قالوا لأنفسهم » ، ويكشفهم الحق سبحانه العليم فى أخفى خباياهم ، ويُظهر ما فى أنفسهم ، وهو العليم بكل خفايا عباده والكاشف لكل الملكات النفسية فى خلقه . وحين يقول الحق سبحانه : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم » . فإن الآية تحريض على الإنفاق ، وجاءت بعد آية تفيد أن هناك إنفاقا لا يقبله الله فى قوله سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ
بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فهناك لون من النفقة يرفضه الله ، وتداعى المعانى فى النفس الإنسانية قد يجعل الإنسان يسأل « ما هى إذن النفقة المقبولة ؟ » لذلك كان لابد وأن يأتى قوله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » فإذا كانت هناك نفقة مردودة فهناك أيضا نفقة مقبولة ، وهكذا نرى الآية التى تحرض على الإنفاق منسجمة مع ما قبلها .

« لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ، قد يسأل سائل ، ولماذا لا ينال الإنسان البر إلا بعد أن ينفق مما يحب ؟ وله أن يعرف أن طبيعة النفس الإنسانية هى « الشح » ولهذا جاء فى القرآن الكريم :

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن
يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة التغابن)

وشح النفس يأتى لأن الإنسان لا يأمن أبدا أن يأتيه العجز من بعد القدرة ، لذلك فإنه يحاول إن كان يملك شيئا أن يؤمن العجز المتوهم ، فيحافظ على ما عنده من حاجات ، ومن هنا جاءت الحيازة والملكية ولم تنشأ هذه الأشياء من أول الخلق ، وإنما نشأت من يوم أن ضاقت الأمكنة المُعْطية دون الحاجات ، فحين تكون الأمكنة المعطية تسع الحاجات فلا داعى لهذا العجز المتوهم .

لنفترض أن رجلا اشترى صندوقا من البرتقال ، ودخل منزله وعندما يحتاج ابن هذا الرجل لبرتقالة أو اثنتين فإنه يأخذ ما يريد ، لكن لو أحضر الرجل قليلا من البرتقال فإن زوج الرجل تكون حريصة على أن تقسم البرتقال بين الأولاد حتى لا تترك كل ابن على سجيته بما قد يحرم الآخرين .

وهكذا كان الأمر فى بدء استخلاف الله للإنسان فى الأرض ، فمن أراد الأرض

اخذ ، ومن أراد أكل الثمار فهى أمامه ، وعندما قلت مُعطيات الحاجات وذلك بضيق الأمكنة المعطية بدأت فى الظهور الرغبة فى الملكية ، وامتياز الأشياء، والحق سبحانه يلفتنا فى هذه المسألة وكأنه يقول لنا : إن النفقة لو نظرت إليها نظرة واقعية حقيقية لوجدت أنك أيها العبد مضارب لله فى خير الله . ومعنى « مضارب » أى أنك تعمل عند الله بالعقل الذى خلقه لك ، وتخطط به ، وتعمل عند الله بالطاقة التى خلقها الله ، والمادة التى خلقها الله لك تنفعل معها فماذا لك أنت ؟

إن كل شيء لله ، وأنت مجرد مضارب لا تملك شيئا ومادمت مضاربا أيها العبد ، فأعط لله حقه ، وحق الله لا يأخذه هو ؛ فهو أغنى الأغنياء ، إن حق الله يأخذه أخوك غير القادر الذى لا يستطيع أن يتفاعل مع المادة ، ولا تظن أيها العبد أن الله حين طلب منك النفقة مما تحب أنه ـ جل شأنه ـ قد استكثر عليك ما طلب منك أن تنفقه ، إنه ساعة يأخذ منك لأخيك وأنت قادر ، إنما يطمئنك أنك إن عجزت فسيأخذ لك من القادرين ذلك هو التأمين فى يد الله .

إن الحق يريد أن يحببنا فى أن ننفق ، لكن الإنسان يحاول أن ينفق مما لا يحب ، فيهدى الإنسان الثوب الذى لم يعد صالحا للاستعمال يعطيه لفقير ، أو يعطى الحذاء المستهلك لواحد محتاج . لكن الله يأمرنا بأن ننفق مما نحب لذلك انفعل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما سمعوا هذا النص : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » هذا أبو طلحة حينما يسمعها يقول : يا رسول الله ، إن أحب مالى إلىّ هو « بيرحاء » فأنا أخرجه فى سبيل الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اجعله فى أقاربك ، فجعله فى أقاربه ، وهذا زيد بن حارثة يسمع الآية الكريمة فينفعل بها كذلك ، وكان عنده فرس اسمه « سَبَل » وكان يحبه ، فيقول : يا رسول الله أنت تعلم حبى لفرسى ، وأنا أجعله فى سبيل الله . فأخذه منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء بأسامة بن زيد وأركبه الفرس . قال زيد : « فوجدت فى نفسى » أى أنه حزن ، وقال زيد : يا رسول الله أنا أردت أن أجعل الفرس فى سبيل الله وأنت تعطى الفرس لابنى ليركبه . فقال رسول الله لزيد : « أما إن الله قبله منك » .

وبعد ذلك ينفعل سيدنا أبو ذر رضى الله عنه وكان عنده إبل ، والإبل لها فحل يلقح إناث الإبل ، وكان هذا الفحل أحب مال أبى ذر إليه وجاء ضيف إلى أبى ذر ،

فقال له : إنى مشغول ، فاخرج إلى إبلى فاختر خيرها لنذبحه لضيافتك . فخرج الضيف ، ثم عاد وفى يده ناقة مهزولة ، فلما رآها أبو ذر قال : خنتنى ، قلت لك هات خير الإبل ، قال الضيف : يا أبا ذر لقد رأيت خيرها فحلا لك وقدرت يوم حاجتكم إليه . فقال أبو ذر : إن يوم حاجتى إليه ليوم أوضع فى حفرتى .

إن الصحابى الجليل أبا ذر يعرف أن يوم أن يوضع فى الحفرة هو اليوم الجليل الذى يستحق من المرء أن يستعد له .

وسيدنا ابن عمر كان عنده جارية جميلة من فارس ، وكان يحبها ، فلما سمع الآية ، قال : ليس عندى أحب إلىّ من هذه الجارية ، وأعتقها ، وكان من الممكن أن يتزوجها بعد أن أعتقها لكنه قال : لولا أن ذلك يقدح فى عتقها لتزوجتها . وسيدنا أبو ذر رضى الله عنه يعطينا فى مسألة الإنفاق درسا من أروع الدروس المستوعبة للملكة النفسية ، فيقول : فى المال شركاء ثلاثة : القَدَرُ لا يستأمرك أن يذهب بخيره وشره من هلك أو موت . أى أن القَدَر لا يستأذن عبدا فى أن يذهب بالمال حيث يريد ، فتأتى أى مصيبة فتأخذ المال إلى هلك أو موت . هذا هو الشريك الأول فى المال ، إنه القَدَر .

والشريك الثانى فى المال يوضحه لنا أبو ذر فيقول : إنّه الوارث ، ينتظرك إلى أن تضع رأسك ، ثم يستاقها وأنت قد سلبت بالموت كل ما تملك فى الدنيا وأصبحت من غير أهلها . إن الوارث يقول لنفسه : « فلأستمتع بما ترك لى » ، وهذا هو الشريك الثانى فى المال .

ويوضح لنا أبو ذر رضى الله عنه الشريك الثالث فى المال فيقول : والثالث أنت ، فإن استطعت ألاّ تكون أعجز الثلاثة فلاتكن أعجزها . أى إياك أن يغلبك على المال القدر أو الوارث ، ينبغى عليك أن تغلب بإنفاق المال فى سبيل الله وإلا أخذه منك باقى الشركاء .

إذن لقد انفعل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالآية حينما نزلت حتى عدا الخير المحبوب منهم إلى غيرهم ، وكان جزاء ذلك الجنة . لقد عرفوا قول الحق : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » أى الجنة المترتبة على الطاعة أو

التقوى ، أو سعة البركة أو سعة القوة ، وكلها معان ملتقية ، ولذلك يقول الله فى الحديث القدسى :

« قد كان العباد يكافِئون فى الدنيا بالمعروف وأنا اليوم أكافىء بالجنة » .

إن الحق سبحانه الذى يعطى البر ثمنا لنفقة مما تحب يعلم هل أنفقت مما تحب فعلا أو تيممت الخبيث لتنفق منه ، فإياك أيها المؤمن أن تخدع نفسك فى هذا الأمر ، لأن الذى يعطى البر ثمنا لنفقة مما تحب يعلم خبايا النفس ، لذلك يقول سبحانه : « وما تنفقوا من شىء فإن الله به عليم » .

وعلم الله شامل ، إنه يعلم ما فى نيتك ، وكيف أنفقت .

ولقد بين الحق سبحانه النفقة المرفوضة حتى ولو كانت ملء الأرض ذهبا ، ثم أوضح لنا أن هناك نفقة مقبولة وجزاؤها الجنة ، وبذلك نرى التقابل بين النفقتين ولماذا جاء هذا الحديث ؟ لقد كذب بعض أهل الكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مستهل أمر الدعوة وكذبوا البشارة به ، والنعت والبشارة جاءا فى التوراة والإنجيل ، وأنكروا الأوصاف التى ذُكِرت فى كتبهم السماوية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتمادوا ومحوا هذه الأوصاف من كتبهم . حدث ذلك مع أنهم قد تورطوا من قبل فى إعلان البشارة به « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » .

لقد أراد الله أن يفضحهم فى التوراة التى يعتقدون أنها كتابهم وقدحرفوا بعض أحكام الله ، وظنوا أن هذه التحريفات ستظل مستورة ، لذلك جاء لهم بأحداث ولم ينتبهوا إليها لتقوم الحجة على أنهم قاموا بتحريف التوراة مثلما قلنا من قبل عن الخيبرية التى ارتكبت فاحشة الزنا ، وأراد رؤساء اليهود أن يخففوا العقوبة عنها ، لأن العقوبة الواردة فى التوراة على جريمة الزنى هى الرجم وقال هؤلاء الرؤساء : « نذهب إلى محمد ، لعل لديه حكمًا مخففا » فلما ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وضح لهم انه الرجم . فقالوا : لا ، إنك لم تنصف فى حكمك . فبين رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم إنه يرضى بحكم التوراة التى عندكم وجىء بالتوراة وأمرهم الرسول أن يقرأوا فلما جاءوا إلى آية الرجم أرادوا أن يغفلوها

فقال ابن سلام : إنهم يا رسول الله قد وثبوا وأغفلوا الآية .

وهكذا انتبه الجميع إلى أن رؤساء اليهود أرادوا أن يتخطوا حكما لله موجودا عندهم وأرادوا أن ينكروه ، كما فعلوا وأحدثوا فى وصف النبى عليه الصلاة والسلام ومحوا هذا الوصف ، ولم يتركوا له أثرا ، لكن الله أنساهم بعض الأشياء لتكون بينة وآية على رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعندما أحل الرسول صلى الله عليه وسلم الإبل وألبانها ، قالوا : هذه محرمة من أيام إبراهيم ومن قبله من أيام نوح ، ولا يمكن أن نقبل تحليلها ، فوضح النبى صلى الله عليه وسلم لهم أنها ليست محرمة ، الله أحلها .

وكان يجب أن يفهموا أن الإبل وألبانها حتى وإن كانت محرمة من قبل إلا أن رسولا قد جاء من عند الله بتشريع له أن ينسخ ما قبله مع أنّ الإبل وألبانها لم تكن محرمة ، لذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يحتكم إلى التوراة . وهذه هى العظمة النورانية المحمدية ، فلا يمكن أن يقول صلى الله عليه وسلم : « نحتكم إلى التوراة » إلا وهو واثق أن التوراة إنما تأتى بالحكم الذى يؤيد ما يقول ، مع أنه لا يقرأ ولا يكتب . ويحضرون التوراة ، فيجدون الكلام مطابقا لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك قال الله :

﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

وحين يحرم نبى الله يعقوب ـ إسرائيل ـ طعاما ما ، فهو حر ؛ فقد يحرم على نفسه طعاما كنذر ، أو كوسيلة علاج أو زهادة ، لكن الله لم يحرم عليه شيئا ، وما تحتجون به أيها اليهود إنما هو خصوصية لسيدنا يعقوب « كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل

إلا ما حرم إسرائيل على نفسه » فلماذا تقولون : إن الإبل وألبانها كانت محرمة ؟

لقد فعلوا ذلك لأنهم أرادوا أن يستروا على أنفسهم نقيصة لا يحبون أن يُفْضحوا بها ، وتلك هى النقيصة التى كشفها القرآن بالقول الكريم :

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (١٤٦) ﴾

(سورة الأنعام)

إذن فهناك أشياء قد حُرمت على اليهود لأنهم ظلموا ، وهذه الآية الكريمة هى التى أوضحت أن الحق قد حرم عليهم هذه الأطعمة لظلمهم . ومعنى : « كل ذى ظفر » أى القدم التى تكون أصابعها مندمجة ومتصلة ، فليست الأصابع منفصلة ، ونجدها فى الإبل والنعام والأوز ، والبط ، وهذه كلها تسمى ذوات الظفر « إلا ما حملت ظهورهما » يعنى الشحم الذى على الظهر . أما « الحوايا » فهى الدهون التى فى الأمعاء الغليظة « أو ما اختلط بعظم » . أى الشحم الذى يختلط بالعظم إن التحريم هنا لم يكن لأن هذه الأشياء ضارة ، ولكن التحريم إنما كان عقابا لهم على ظلمهم لأنفسهم وبغيهم على غيرهم .

وأقول ذلك حتى لا يقول كل راغب فى الانفلات من حكم الله ما الضرر فى تحريم الأمر الفلانى ؟ إن محاولة البحث عن الضرر فيما حرمه الله هى رغبة فى الانفلات عن حكم الله . فالتحريم قد يأتى أدبا وتأديبا ، ونحن على المستوى البشرى ـ ولله المثل الأعلى ـ يمنع الإنسان منا « المصروف » عن ابنه تأديبا ، أو يمنع عنه الحلوى ، لأن الابن خرج عن طاعة أمه ، إذن كان التحريم جزاءً لهم وعقابا قال تعالى :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ

كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ النَّاسِ بِالْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا
لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾

(سورة النساء)

وذلك هو الجزاء الذى أراده الله عليهم .

إن التشريع السماوى حينما يأتى لظالم يخرج عن منهج الله فكأنه يقول له ما هو القصد من خروجه عن منهج الله ؟ لماذا يظلم ؟ لماذا يأخذ الربا ؟ لماذا يصد عن سبيل الله ؟ لماذا يأكل أموال الناس بالباطل ؟ إن الظالم يفعل ذلك حتى يمتع نفسه بشيء أكثر من حقه ، لذلك يأتى التشريع السماوى ليفوت عليه حظ المتعة ، وكان هذا الحظ من المتعة حقا وحلا له ، لكن التشريع يحرمه . ومثال ذلك القاتل يحرم من ميراث من يقتله ؟ لأن القاتل استعجل ما أخره الله ، وأراد أن يعجل لنفسه المتعة بالميراث ، فارتكب جريمة قتل ، لذلك يأتى التشريع ليحرمه من الميراث .

كأن التشريع يقول له : « مادامت نيتك هكذا فأنت محروم من الميراث » والتشريع حين وضع ذلك إنما حمى كل مورث ، وإلا لكان كل مورث عرضة لتعدى ورثته عليه بالقتل لينتقل إليهم ما يملك ، فقال : لا . نحرمه من الميراث وكذلك هنا نجد الظلم بأنواعه المختلفة ، الظلم بإنكار الحق ، والصد عن سبيل الله ، وأخذ الربا ، وأكل أموال الناس بالباطل ، ومادام اليهود قد أدخلوا على أنفسهم أشياء ليست لهم فالتشريع يسلب منهم أشياء كانت حقا لهم .

وكان اليهود فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرغبون ألا يُشاع عنهم هذا الأمر فقالوا : إن هذا الطعام محرم على بنى إسرائيل . وبعد ذلك وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن هذا اللون من الطعام حلال فى التوراة ، فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر الذى فضحهم .

ولماذا تجيء هذه الآية بعد قوله الحق فى الآية السابقة : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ؟ ونحن نعرف أن آية « لن تنالوا البر » قد جاءت بعد آية توضح النفقة غير المقبولة من الله . ولنذكر ما قلناه أولا ، عن تداعى المعانى فى الملكات

الإنسانية : إن فى النفس الإنسانية ملكة تستقبل ، فتتحرك ملكة أخرى ، وحين يقول الحق:« كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل » فالذين يسمعون هذا سينفعلون انفعالات مختلفة ، فالشبعان من الناس لن يلتفت إلى هذه المسألة بانتباه بالغ ، ومن عنده بعض الطعام فإن نفسه قد تتحرك إلى ألوان أخرى من الطعام ، أما من ليس عنده طعام فلسوف يلتفت بانتباه شديد ليتعرف على الحلال من الطعام والحرام منه .

إذن فقبل أن يأتى الله بالحكم الذى يحلل ويحرم ، هذا الحكم الذى يثير عند الجائع شجن الافتقار وشجن ذكر الطعام الذى يسيل له لعابه ، إن الحق قبل أن يحرك معدما على غير موجود معه ، فإنه يحرك معطيا على موجود معه ، لذلك فقبل أن يأتى الحق سبحانه ويذكر الطعام ، وقبل أن يُقلب الأمر على النفس الإنسانية التى لا تجد طعاما ، نجد الرسول قد نطق قبلها بما أنزله عليه الحق « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » . فبتداعى المعانى فى النفس الإنسانية يكون ـ سبحانه ـ قد حرك ملكة واجدة ومالكة قبل أن يحرك ملكة معدمة . وهكذا يكون التوازن الذى أراده الله فى الكون المخلوق له .

إنه رب يحكم كونه ، فلا ينسى شيئا ويذكر شيئا . « لا يضل ربى ولا ينسى » ، إن كل شىء فى علمه كما قَدّره وهو الخلاق القدير العليم ، وهو لا يذكر بعضا من الخلق ، وينسى بعضا آخر ، فهو قد كتب العدم لحكمة ، وأعطى النعمة لحكمة .

لقد جعل الفقير عبرة ، ولكنه لم يتركه ، وذلك حتى يرى كل إنسان أن القدرة على الكسب ليست إلا عرضا زائلا ، فمن الممكن أن يصبح القادر الآن عاجزا بعد دقائق أو ساعات ، ومن الممكن أن يصبح القوى ضعيفا ، فإذا ما علم القوى أو القادر ذلك فإنه يتحرك إلى إعطاء الآخرين ؛ حتى يضمن لنفسه التأمين الإلهى لو صار ضعيفا ، فيعطيه الأقوياء ، فعندما يأمر الله الأقوياء بأن يعطوا وينفقوا فإن عليهم أن يستجيبوا ؛ لأن الواحد منهم لو صار ضعيفا فسوف يأخذ .

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » هذا القول قد خدم قضية سبقتها ، وهى أنه لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به ، مادام كافرا ، إنها نفقة مرفوضة لا اعتبار لها ، إنها هدر . ويأتى من بعد ذلك بتحديد النفقة التى ليست هدرا ، ثم يفضح اليهود بقضية توجد عندهم فى التوراة

ولكنهم كذبوها ، وهى قضية تتعرض للطعام ، ومادامت القضية تتعرض للطعام فهناك الكثير من الملكات التى يمكن أن تتحرك ، فملكات الواجد حين تتحرك فحركتها تكون بأسلوب غير الأسلوب الذى تتحرك به ملكات المعدم . فقبل أن يُحرك وجدان المعدم إلى أنه معدم ، حتى لا يتلقى ذلك بحسرة ، فإنه سبحانه يكون قد عمل رصيدا لهذا المعدم ، فيرقق قلب الواجد أولا « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شىء فإن الله به عليم » وبعد ذلك يأتى قوله الحق سبحانه :

﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ومعنى كلمة « حل » هو « حلال » ، ويقابلها « حرام » وحل هى مصدر ، ومادامت مصدرا فلا نقول « هذان حلالان » بل نقول : « هذان حل » ، ونقول : « هؤلاء حل » وإن شئت فاقرأ قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الممتحنة)

« لا هن » هذه لجماعة النساء ، والحل مفرد ، وعندما يقول الحق سبحانه : « كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه » فهذا يعنى أنه قد حرم بعضا من الطعام على نفسه فهو حر فى أن يأخذ أو يترك ، أو أنه قد حرمه على نفسه فوافقه الله ؛ لأن الناذر حين ينذر شيئا لم يفرضه الله عليه فهو قد ألزم نفسه بالنذر أمام الله .

إن الزمن الذى حرم فيه إسرائيل على نفسه بعضا من الأطعمة هو « من قبل أن تنزل التوراة » أى أن هذا التحريم لم يحرمه الله ، ويأتى الأمر لرسوله الكريم أن يخاطب بنى إسرائيل : « قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين » إنه قد كشف سترهم ، وعلموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم أن النص الذى

يؤيد صدقه موجود فى التوراة ، ولهذا لم يأت اليهود بالتوراة ، وذلك لعلمهم أن فيها نصا صريحا يصدق ما جاء به رسول الله ، ولا يحتمل اللجاجة ، أو المجادلة ، ومادامو لم يحضروا التوراة فهذا يعنى أنهم غير صادقين . ويقول الحق :

﴿ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

إن فى هذا القول التحذير الواضح ألا يختلق أحد على الله شيئا لم ينزل به رسول أو كتاب فمن يفترى الكذب على الله لا يظلم إلا نفسه . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

يأمر الحق رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول : « قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا » .

ونعرف أن ملة إبراهيم هى التى سمّت كل المؤمنين بالله المسلمين ، والدعوة إلى الإيمان بملة إبراهيم هى لإيضاح أن جوهر الإيمان لا يحتمل الخلاف ، فركب الإيمان والرسل والأنبياء هو ركب واحد ، وكلمة « اتبعوا » تعنى أن هناك مقدما كما أن هناك تابعا . و« الملة » تشمل المعتقدات والتشريعات العامة ، كما أن الشريعة تشمل الأحكام ، والدين يكون لبيان العقائد .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وقد عرفنا من قبل أن كلمة « حنيفا » تعنى الذى يسير على خط مستقيم ، ويتبع منهجا قويما ومستويا ، ونحن نسمى ملتنا « الحنيفية السمحاء » ومع ذلك فالحنف هو ميل فى الساقين ، اليمين مقوسة إلى اليمين ، واليسار مقوسة إلى اليسار ، فكيف إذن نقول عن الدين الحق الهادى لمنهج الله وشريعته : إنه حنيف ؟

لقد قلنا : إن السماء لا تتدخل بإرسال الرسل إلا حين يعم الفساد ، ومادام الفساد قد عم فإن الذى يميل منحرفا عن الفساد هو الذى اهتدى إلى الصراط المستقيم ، فالحنيف معناه مائل عن الفساد ، فالمائل عن المعوج معتدل ، « قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » .

« صدق الله » نعم ؛ لأن الصدق هو أن يطابق القول ما وقع فعلا ، وحين يتكلم الحق وهو العليم أزلا فما الذى يحدث ؟ لابد أن يوافق الواقع ما يقوله سبحانه وتعالى فليس من المعقول أن يتكلم الله كلاما يأتى على لسان رسول ، أو على لسان أتباع الرسول ، وبعد ذلك يأتى واقع الحياة فينقض قول الحق ويخالفه ، إن الحق العليم أزلا يُنزل من الكلام ما هو فى صالح الدعوة إلى منهجه .

إذن فحين يطلق الله قضية من قضايا الإيمان فإنه ـ سبحانه ـ عليم أزلا أنها سوف تحدث على وفق ما قال ، وإن كان الظرف الذى قيلت فيه لا يشجع على استيعابها وفهمها . إن المؤمنين كانوا فى أول الأمر مضطهدين ، ومرهقين وإن لم يكن للواحد منهم عشيرة تحميه فإنه يهاجر عن البلاد ، وإن لم يستطع الهجرة فإنه يُعذب ويُضطهد . وفى هذه الفترة الشديدة القاسية وفى قمة اضطهاد المؤمنين ينزل القول الحق :

﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة القمر)

وعندما يسمع سيدنا عمر عليه رضوان الله هذا القول يتساءل : أى جمع هذا ؟ إن الواقع لا يساعد على هذا،ثم جاءت بدر ، وهزم المؤمنون الجمعَ وولوا الدبر ، وهذا دليل على أن الله قد أطلق قضية وضمن أنها ستحدث كما قال وكما أخبر ، وهذا مطلق الصدق . إن الإنسان يمكنه أن يستبعد الصدق لو أن الذى قال غير الذى

خلق ، لكن الذى قال ذلك هو الذى خلق ويخلق ويعلم ، فمن أين يأتى التناقض ؟ وهذا معنى القول الكريم :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة النساء)

إنه قول حق جاء من عند العليم أزلا ، ومن العجيب أن أهل الكتاب من يهود ونصارى يتمسحون فى سيدنا إبراهيم ، فقال بعضهم:إن إبراهيم عليه السلام كان يهوديا ، وبعضهم قال:إن إبراهيم كان نصرانيا . وكان يجب أن يفهموا أن اليهودية والنصرانية إنما جاءتا من بعد إبراهيم ، فكيف يكون يهوديا أو نصرانيا وهذه الملل قد جاءت من بعده ؟ لذلك جاء القرآن الكريم قائلا :

﴿ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ التَّوْرَىٰةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وقد أوضح الحق بعد ذلك دين إبراهيم عليه السلام :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فكيف يمكن أن يختلقوا على إبراهيم أنه كان يهوديا أو نصرانيا ؟ إنه كلام لا يصدر إلا عن قلة فطنة وغفلة بالغة . وعندما يقول الحق عن إبراهيم :« وما كان من المشركين » فهل أهل الكتاب مشركون ؟ نعم ؛ لأنهم حين يؤمنون بالبنوة لعزير ، ويؤمنون بالبنوة لعيسى فهذا إشراك بالله ، وأيضا كان العرب عبدة الأصنام يقولون : إنهم على ملة إبراهيم ؛ لأن شعائر الحج جاء بها إبراهيم عليه السلام ، ولهذا ينزه الحق سبحانه سيدنا إبراهيم عن ذلك ، ويقول : « قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين» وذلك يدل على أن ملة إبراهيم وما جاء به

موافق لملة محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به ، وإجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام . ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

لقد عرفنا من قبل كيف كان تداعى المعانى سببا فى إرواء الحق لكل ملكات الإنسانية ، وقبل هذه الآية التى تتحدث عن بناء البيت الحرام بمكة المكرمة كان هناك حديث عن سيدنا إبراهيم عليه السلام حين قال الحق :

﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وإبراهيم عليه السلام هو أول الأنبياء صلة بالبيت الحرام ، وكان رفع قواعد البيت الحرام على يده بعد أن طمر وستر بالطوفان فى عهد نوح عليه السلام ، فحين يأتى الكلام فى رسالة سيدنا إبراهيم عليه السلام فلابد أن تأتى أكبر حادثة فى تاريخ سيدنا إبراهيم ، وهى حادثة بناء البيت الحرام ، كما أن الحق سبحانه حينما تكلم عن المحاجاة بين المسلمين وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى يده القرآن ، وبين أهل الكتاب وفى أيديهم التوراة المحرفة والإنجيل المحرف أراد سبحانه أن يردنا إلى شىء واحد هو ملة إبراهيم الذى سمانا مسلمين . ومعنى ذلك أن الله يريد منا أن تسيطر قيم السماء على حركة أهل الأرض ؛ لأن حركة أهل الأرض إن اتبعت الأهواء تصادمت الحركات ، ومادامت الحركات قد تصادمت فإن ما ينتج عنها هو ضياع مجهود الحركة الإنسانية ، ويصير هذا المجهود مبددا .

ولكن الإنسان الذى يحمل القيم التى تتركز عقيدة فى قلبه ـ بعد أن يبحثها بفكره ـ هذا الإنسان له قالب تنفذ به تشريعات الله ، ولولا وجود القالب هذا لما استطاع

الإنسان أن يطبق تشريعات الله ، ولّما استطاع أن يؤدى هذه التشريعات ، ولما استطاع أن يطيع الله بجوارحه ؛ فالإنسان بغير قالب لا يستطيع أن يؤدى الحركة المطلوبة .

إذن فلابد للقالب الإنسانى ـ البدن ـ فى التشريع من عملية أخرى وهى أن ينصب القالب ويكون له عمل حين يتوجه إلى بيت واحد لله ، وبذلك يصبح للقالب نصيب فى العبادة أيضا .

ولهذا كان لابد أن يوجد للقالب ـ أيضا ـ مُتَّجَهٌ وهذا المتّجه يحكم القالب نفسه ، فكان المؤمن المسلم محكومًا قلبا وقالبا ، فحين نأتى للصلاة لنكون فى حضرة الله نتحرى أن يكون قالبنا متجها إلى المكان الذى أمرنا الله أن نتوجه إليه ، لماذا ؟

لأن الحق سبحانه وتعالى ساعة يعطى رحمته وبركته وتنزلاته وإشراقاته يريد أن يكون الجسم فى وضع مؤهل لاستقبال هذه التجليات ، ولذلك كان لابد أن يكون لله بيت يتجه إليه الجميع حتى يعطى للتدين وحدة ، فكما أعطى الحق لموكب الرسالات وحدة ، فإنه يعطى أيضا وحدة فى القالب الإنسانى والمتجه ، وكل مكان يعبد الله فيه بالنسبة للإسلام يُعتبر مسجدا ، وقد يسر الله الأمر على أمة سيدنا محمد ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « جعلت لى الأرض مسجدًا وطهورا »[1] .

وكان لقاء الله وعبادته فى الديانات السابقة يقتضى مكانا محددا ولكن قد وسع رحمته على أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

إن تراب الأرض طهور ، إننا عندما نفتقد الماء الطهور فإن التراب الذى قد يبدو للوهلة السطحية أنه سبب فى عدم النظافة قد جعله الله لنا طهورا .

إن الإنسان يمكنه أن يتيمم ويتطهر بالتراب ، وكأن الله قد أراد أن يكون لقاء كل فرد من أمة محمد به ميسرا تيسيرا كبيرا . وكل مكان نعبد فيه الله ويسجد فيه المسلم لله يصير مسجدا .

(١) هذا جزء من حديث شريف أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه ، والإمام مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه ، والإمام أحمد فى مسنده وغيرهم من أصحاب السنن .

لكن هناك فارقا بين أى مكان نعبد الله فيه والمسجد ، فنحن نرى العامل يعبد الله فى المصنع والتلميذ يعبد الله فى الفصل ، والفلاح يعبد الله ويؤدى الفروض فى الحقل ، ويمكن للسائر فى الشارع أن يؤدى صلاته فى أى مكان ، وأن يزاول عمله بعد ذلك ، ولكن حين يُحيِّز الإنسان مكانا ليكون بيتا لله ، فمحظور أن يزاول فيه نشاطا آخر من نشاطات الحياة ؛ إنه مكان مُحيز .

إن العبادة كلها مقبولة ، ولكن هناك فارقا بين مكان تعمل فيه ومكان تخصصه ليصير مسجدا . فالمسجد هو مكان لايزاول فيه إلا لقاء الله ، ولذلك أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا نستغل هذا الحيز فى أى أمر يتعلق بدنيانا ، وقد أوضح لنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الذى يعقد صفقة فى المسجد لن يبارك الله فيها ، والذى ينشد فيه شيئا ضالا له لن يجده . فقد دعا الرسول ألا يرد الله عليه ضالته .

إن أمور الدنيا يكفيها أن تأخذ من الإنسان كل يوم ثلاثا وعشرين ساعة، فليخصص الإنسان المؤمن ساعة لله وحده ، وليخلع كل أغراض الحياة الدنيا كما يخلع النعال على باب المسجد . فليس من حسن الأدب واللياقة أن ينشغل الإنسان بأى شىء غير لقاء الله فى الوقت المخصص للقاء الله ، وفى المكان المخصص لهذا اللقاء .

فساعة تدخل المسجد ينبغى أن تمنع نفسك من أن يتكلم معك أحد فى فضول الكلام ولغوه ، وأن تنوى الاعتكاف لتستفيد من وجودك فى المسجد . وساعة أن نخصص حيزا ما ليكون مسجدا ، فكيف يكون الاتجاه داخل المسجد ؟ أيترك الأمر لكل واحد أن يختار له متجها ؟

لا ، إن المؤمن ملتزم بالاتجاه إلى مكان واحد ، هذا المكان الواحد هو بيت لله باختيار الله بينما المساجد الأخرى هى بيوت لله باختيار خلق الله ، فبيوت الله باختيار خلق الله متجهها جميعا هو بيت الله الحرام.

وحين تنظر هذه النظرة ستجد العالم متواجها ؛ لأن كل عابد سيكون اتجاهه إلى بيت الله مع بقية العابدين لله ، فيلتف المؤمنون كلهم حول بيت الله ، ويتواجهون ، إن وجوهنا كلها تقابل بعضها بعضا ، ولكن ما ضرورة الاتجاه للكعبة ؟ والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

نقول : إن هذه الآية تؤيد ما نقوله ، فمادام لله المشرق والمغرب ، فهذا هو المعنى العام ، فالناس أول ما عرفوا الكون تعرفوا على المشرق والمغرب ثم الشمال والجنوب أيضا ، وبعد أن توصل العلم إلى تحديد الجهات الفرعية بجانب الجهات الأصلية الأربع المعروفة عرفنا « الشمال الشرقي » و« الشمال الغربي » و« الجنوب الشرقي » و« الجنوب الغربي » . إذن فكل المتجهات لله ، والاتجاه للكعبة يحقق هذا القول الكريم .

وعندما يتجه إنسان إلى الكعبة فقد يكون الشرق خلفه ، ويكون الغرب أمامه ، ويتجه إليها إنسان آخر إلى الكعبة ، فيتقابل وجهه مع وجه المتجه للكعبة ، وثالث يتجه إلى الكعبة ، فيكون فى زاوية أخرى ناظرا إليها ، وهكذا يلتف البشر من الشرق والغرب والشمال والجنوب وكل الجهات الفرعية حول الكعبة .

إذن فقول الحق : « ولله المشرق والمغرب » أى جميع الخلق متجه إلى الكعبة ، وبذلك لا تكون هناك جهة أولى بالله من جهة أخرى . وأنا لا أريد أن أدخل فى متاهة أنّ الكعبة مركز الأرض وأن الأرض خلقت منها ؛ لأن الشيء إذا كان مكورا فأى نقطة فيه تكون مركزا للجميع ، لذلك فلنترك مثل هذا الكلام ، لكن ألاّ يكفى أن يرجحها أن الله قد اختارها ؟ إن ذلك يكفى وزيادة ، وبذلك ينتهى الأمر ، إنها كذلك ؛ لأنها بيت الله باختيار الله ، وهذا يكفى .

لقد علّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأشياء التى تقف فيها العقول وليست من صلب العقائد أو الدين لا يصح أن تكون محل خلاف أو جدل . يقول سيدنا على كرم الله وجهه عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : سأله رجل ، « أذلك أول بيت لله ؟ » فوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قبله بيوتا ، ولكن هو أول بيت وُضع للناس . وهذا إيضاح أن الله قد جعل الكعبة هى أول بيت له يتعبد فيه جنس البشر ، وذلك لقول الله تعالى : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين » . ولكن إن كانت هناك أجناس سابقة على الجنس البشرى فمن المؤكد أنه كانت هناك لله بيوت لا نعرفها .

وما آدم فى منطق العقل واحد ولكنه عند القياس أوادم

ولذلك فوجود البيت الحرام كبيت لله لا يصطدم مع منطق الناس الذين لا يملكون إلا الثقافة الدينية الضحلة ، فساعة أن يسمع الواحد منهم ، أن هناك اكتشافا لحفريات من كذا مليون سنة فهو يتساءل قائلا : كيف وآدم لم يمر عليه ملايين السنين ؟ لنفترض أن هناك خمسة أجيال لإدريس عليه السلام وثلاثة أجيال لنوح عليه السلام ، وأحد عشر جيلا لإبراهيم عليه السلام وثلاثين جيلا لمحمد عليه الصلاة والسلام ، وهكذا يكون الوجود البشرى محددا بآلاف السنوات لا ملايينها .

لهذا الإنسان نقول : وهل قال لك أحد : إن آدم أول من عَمَرَ الأرض ؟ إن الدين لم يقل ذلك ، لكن الدين قال : إن آدم هو أول هذا الجنس البشرى ، ولكنه ليس أول من سكن الأرض ، لذلك فليقل العلماء : إن عمر هذه الأرض ملايين السنين ولنسمع جميعا قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

إذن فلا مجال لهذا البحث ، لذلك قال النبى عليه الصلاة والسلام : « لا ، بل قبله بيوت » .

والحق سبحانه وتعالى يقول ما يوضح أن الجن قد سكنوا الأرض قبلنا :

﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الحجر)

ألم يقل الحق سبحانه إن الإنسان خليفة ، وردّت عليه الملائكة :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ
فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن الذين قالوا ذلك ليسوا من البشر ، إذن فكلام الله يؤكد أن الكعبة هي أول بيت وُضع للناس ، أي للجنس البشرى ، ولذلك فلا داعى أن نتكلم فى الأشياء التى يقف فيها العقل حتى لا ندخل فى متاهة . ولو كان الله قد أراد أن يعلمنا أن الكعبة هى أول بيت فى الأرض لقال لنا : « إنه أول بيت وضع فى الأرض » ، ولم يكن قد حدد الجنس الذى وضع البيت من أجله ، لكن الحق سبحانه قال : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا » ، ولذلك بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قبله بيوتا ، ولكنه أول بيت وضع للناس . إنه جواب يتسع لكل ما يأتى به العلم .

وحين ننظر إلى القول الحق : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا » ما معنى « أول » ؟ إنه الابتداء ، وهل كل ابتداء له انتهاء ؟ لا ، إن هناك أمورا لها « أول » وليس لها « آخر » ومثال ذلك العدد « واحد » وما بعده ليس له آخر ، فآخر ما بعد العدد واحد هو ما يمكن الإنسان أن يحسبه عجزا فى التقديرات الدشليونية ، ولكن ما بعد الدشليون هناك أعداد أخرى ، وكان الإنسان قديما يقف عند الألف ، ثم يقول عن المليون « ألف ألف » ، وكذلك الجنة لها أول وليس لها آخر .

إذن فأول بيت وضعه الله للناس هو الكعبة . وعندما نرى كلمة « وُضع » نجدها فعلا ، ونرى أنه قد وُضِع للناس . ومادام هذا البيت قد وضع للناس لذلك فمن اللازم حين تأتى كلمة « ناس » أن يكون هناك « بيت » و« آدم » من الناس ، ووالد كل الناس ، وكان له بيت وُضِع له . وحين يقال : إن البيت قد تم بناؤه قبل آدم فإننا نقول : نعم ، لأن آدم من الناس ، والله يقول : « إن أول بيت وضع للناس » فلماذا نحرم آدم من أن يكون له بيت عند الله ؟ إذن فالبيت موجود من قبل آدم . وبعض الناس تظن أن إبراهيم عليه السلام هو الذى بنى البيت ، ولأصحاب هذا الظن نقول : لنفهم القرآن معا ، إن مثل هذا القول يناقض القرآن ؛ لأن القرآن قد قال : « إن أول بيت وضع للناس » وذلك إيضاح أن إبراهيم كان من قبله أناس سابقون له ، فكيف لا يكون للناس من قبل إبراهيم بيت ؟ ولا يكون للناس من بعد إبراهيم بيت ؟

إن الذين كانوا يعيشون قبل مجىء إبراهيم عليه السلام لهم الحقوق نفسها عند الله التى وضعها الله لمن بعد إبراهيم ، فلابد أن الله قد جعل بيته لهم ، والنص القرآنى

« إن أول بيت وضع للناس » مؤكد ذلك ، ومادام قد جاء الفعل مَبْنياً للمفعول فواضعه غير الناس ، فـ « وُضِع » هو فعل مبنى على ما لم يسم فاعله ، فمن الذى وضعه ؟ هل هم الملائكة ؟

قد يصح ذلك وهو أن يكون الملائكة قد تلقوا الأمر من الله بمزاولة هذا البناء ، ولكن الحق يقول عن هذا البيت إنه : « هدى للعالمين » وهذا يعنى أن البيت هدى للملائكة ؛ لأنهم عالم،وهذا يعنى أن البيت قد وضعه الله من قبل ذلك ، إن أحدًا لا يقدر أن يجعل الكون على قدر العقل البشرى ، إن على العقل البشرى أن يكون فى ركاب الكون ، وإياك أن تجعل الكون فى ركاب عقلك . أما مسألة أن إبراهيم قد بنى الكعبة أولاً فهذا عدم فهم للنص القرآنى القائل :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فما هو الرفع ؟ إنه إيجاد البُعد الثالث وهو الارتفاع ، فالطول والعرض موجودان إذن فهذا دليل على وجود البيت قبل أن يقيم إبراهيم عليه السلام ارتفاع البيت . وهكذا نستنتج أن الذى كان مطموسا هو القاعدة والارتفاع ، مع وجود الطول والعرض اللذين يحددان المكان ، أما البناء فهو الذى يحدد « المكين » وعندما انهدم البيت الحرام كان الناس يتجهون إلى المكان نفسه . ونحن عندما نصلى فى الدور الثالث فى الحرم ، فإننا نتجه إلى الهواء الموجود من فوق الكعبة ، ولو حفرنا نفقا تحت الأرض بألف متر ، وأردنا أن نصلى فإننا سنتجه إلى جذر الكعبة ، وهكذا نعرف أن جو الكعبة كعبة .

إذن فعمل إبراهيم عليه السلام كان فى إيجاد المكين لا المكان ، ولنقرأ بالفهم الإيمانى ما حدث لإبراهيم عليه السلام . لقد أخذ إبراهيم هاجر وابنها إسماعيل ، وخرج بها ليضعهما فى هذا المكان . « وهاجر » تعرف أن مكونات الحياة هى المياه والهواء والقوت ، وهذا المكان لا توجد به حتى المياه ، لذلك قالت هاجر سائلة إبراهيم عليه السلام : كيف تتركنا هنا ؟ هل أنزلتنا هنا برأيك أم بتوجيه من الله ؟

فقال لها إبراهيم عليه السلام : إنه توجيه من الله ، لذلك قالت : « لقد اطمأننت ، والله لا يضيعنا أبدا » . لم تقلق هاجر لأن إبراهيم اتجه إلى ما أمره الله ، وهذا هو الإيمان في قمته ، ولو لم يكن الإيمان على هذه الدرجة الرفيعة فأي قلب لأم تترك أب الطفل يذهب بعيدا عنها وتعيش مع ابنها في هذا المكان الذي لا يوجد به طعام أو ماء ، فهي لا تؤمن بإبراهيم ، ولكنها تؤمن برب إبراهيم وعندما تقرأ القرآن الكريم نجد القول الحق على لسان إبراهيم :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

هكذا نعرف أنه ساعة إسكان إبراهيم لذريته كان هناك بيت وأن هذا البيت محرم ، وعندما نقرأ عن رفع البيت الحرام نجد أن إبراهيم عليه السلام لم يرفع قواعد البيت بمفرده بل شاركه ابنه إسماعيل عليه السلام .

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

هكذا نعلم أن إسماعيل عليه السلام كان قد نضج بصورة تسمح له أن يساعد والده خليل الرحمن في إقامة قواعد البيت الحرام ، وهذا يدلنا على أن إسماعيل نشأ طفلا في هذا المكان عندما أسكنه والده إبراهيم عند البيت المحرم ، هكذا نتيقن أن البيت المحرم كان موجودا من قبل إبراهيم عليه السلام ، وعندما ندقق النظر في معنى كلمة « بكة » التي وردت في هذا القول الكريم :« إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا » فإننا نعرف أن هناك اسما لمكان البيت الحرام هو « بكة » وهناك اسم آخر هو مكة ، وبعض العلماء يقول : إن « الميم » و« الباء » يتعاونان ، ونلحظ ذلك

فى الإنسان « الأخنف » أو المصاب بزكام ، إنه ينطق « الميم » كأنها « باء » . والميم و« الباء » حرفان قريبان فى النطق ، والألفاظ منها تأتى قريبة المعنى من بعضها .

ولننظر إلى اشتقاق « مكة » واشتقاق « بكة » . إننا نقرأ « بكّ المكان » أى ازدحم المكان ، وهكذا نعرف من قوله الحق : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا » أى أنه مكان الازدحام الذى يأتى إليه كل الناس وكل الوفود لتزور بيت الله الحرام ، ولا أدل على ازدحام البيت الحرام من أن الرجال والنساء يختلط بعضهم ببعض ، والإنسان يطوف بالبيت الحرام ، ولا يدرى أنه يسير وقد يلمس امرأة أثناء الطواف .

و« بكة » هى المكان الذى فيه الطواف والكعبة ، أى هى اسم مكان البيت الحرام ، و« مكة » اسم البلد كلها الذى يوجد به البيت الحرام . و« مكة » مأخوذة من ماذا ؟ إن « مكة » مأخوذة من « مك الفصيل الضرع » أو « امتك الفصيل الضرع » ، أى امتص كل ما فيه من لبن ، والفصيل كما نعرف هو صغير الإبل أو صغير البقر . ومادام الفصيل قد امتص كل ما فى الضرع من لبنٍ فمعنى هذا أنه جائع ، ومكة كما نعرف ليس فيها مياه ، والناس تجهد وتبالغ فى أن تمتص المياه القليلة عندما تجدها فى مكة .

وفى كلمة « مباركا » نجد أنها مأخوذة من « الباء والراء والكاف » والمادة كلها تدور حول شىء اسمه الثبات ، فهل هو الثبات الجامد ، أم الثبات المعطى النامى الذى مهما أخذت منه فإنه ينمو أيضا ؟ إننا فى حياتنا اليومية نقول : « إن هذا المال فيه بركة . مهما صرفت منه فإنه لا ينتهى » ، أى أنه ثابت لا يضيع ، ويعطى ولا ينفد . وكلمة « بِرْكة » فى حياتنا تعنى أنها تُجمِّعُ الماء تأخذ منها مهما تأخذ فيأتى إليها ماء آخر .

وكلمة « تبارك الله » تعنى « ثبت الحق » ولم يزل أزلا ولا يزال هو واحداً أحداً ، إنه الثبوت المطلق . وهكذا نجد أن الثبات يأتى فى معنى البيت الحرام . إن البيت الحرام مبارك أبدا « كيف » ؟ أليست تضاعف فيه الحسنة ؟ وهل هناك بركة أحسن من هذه ؟ وهل هناك بركة أفضل من أنه بيت تُجبى إليه ثمرات كل شىء ولا تنقطع ؟ فقديما كان الذاهب إلى البيت الحرام يأخذ معه حتى الكفن ، ويأخذ الإبرة والخيط ، والملح ، والآن فإن الزائر لبيت الله الحرام يذهب ليأتى بكماليات

الحياة من هناك . ويقول سبحانه عن هذا البيت الحرام المبارك : إنه « هدى للعالمين » . ما هو الهدى ؟ قلنا : إن الهدى هو الدلالة الموصلة للغاية ، ومن يَزُرْ البيت الحرام يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، فهل اهتدى للجنة أم لا ؟ إنه . رف بزيارة البيت الحرام الطريق إلى الجنة . وحينما ننظر إلى هذه المسألة نجد أن الحق سبحانه وتعالى عندما تكلم عن البيت لم يتكلم إلا عن آية واحدة فيه هى مقام إبراهيم مع أن فيه آيات كثيرة .

قال الحق :

﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾

إننا نجد أن صيغة الجمع موجودة فى قوله الحق : « فيه آيات » و« بينات »وهى وصف الجمع . وبعد ذلك قال الحق : « مقام إبراهيم » إنه سبحانه لم يذكر إلا مقام إبراهيم بعد الآيات ، والمقام آية واحدة ، وهذا يدل على أن مقام إبراهيم فيه الآيات البينات ، ونحن نقرأ « مقام إبراهيم » بفتح الميم الأولى فى كلمة « مقام » ولا ننطقها « مقام » بضم الميم الأولى لأن المقام بضم الميم تعنى مكان إقامة إبراهيم،أما مقام بفتح الميم فمكان القيام ، لماذا كان قيام إبراهيم عليه السلام ؟

لقد كان إبراهيم يقوم ليرفع قواعد البيت الحرام ، وكان إبراهيم يقوم على « حجر » . وعندما ننظر إلى مقام إبراهيم فإنك تجد فيه كل الآيات البينات ؛ لأن الله طلب من إبراهيم عليه السلام أن يرفع قواعد البيت ، وكان يكفيه حين يرفع قواعد البيت أن يعطيه الارتفاع الذى يؤديه طول يديه ، وبذلك يكون إبراهيم عليه السلام قد أدى مطلوب الله ـ كما قلنا من قبل ـ لكن إبراهيم عليه السلام تعود مع

الله أن يؤدى كل تكليفات الله بعشق وحب وإكمال وإتمام ، فقال إبراهيم فى نفسه : « ولماذا لا أرفع البيت أكثر مما تطول يداى ؟» ولم تكن هناك فى ذلك الزمن القديم فكرة « السقالات » ، ولم يكن مع إبراهيم عليه السلام إلا ابنه إسماعيل . وأحضر إبراهيم عليه السلام حجرا ، ووقف عليه ؛ ليرفع القواعد قدر الحجر .

إذن فإبراهيم خليل الرحمن أراد أن ينفذ أمر الله بالرفع للقواعد لا بقدر الاستطاعة البدنية فقط ،ولكن بقدر الاحتيال على أن يرفع القواعد فوق ما يطلبه الله ، وهذا معنى قول الله عن إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

أى أنه أدى مطلوب الله أداء كاملا ، ولا أدل على هذا الأداء الكامل من أنه أتى بحجر ليقف عليه ليزيد من ارتفاع البيت قدر هذا الحجر . ونعرف أن الذى ساعده وشاركه فى رفع القواعد هو ابنه إسماعيل . ومن أكرمه الله برؤية مقام إبراهيم يجد أن الحجر يسع وقوف إنسان واحد ، وهكذا نفهم أن إسماعيل كان يساعد ويناول والده الأحجار ، أما مكان الأقدام الموجودة فى هذا الحجر ، فهذا يعنى أن إبراهيم عندما كان يقف ويحمل حجرا من المفروض أن يحمله اثنان فإن هذا يتطلب ثبات القدمين فى مكان آمن حتى لا يقع .

فهل يا ترى أن الله سبحانه وتعالى جلت قدرته ساعة رأى إبراهيم يحتال هذه الحيلة قال لخليله : سأكفيك مؤنة ذلك . وجعل الحق القدمين تغوصان فى الحجر غوصا يسندهما حتى لا تقعا . والذى لا يتسع ذهنه إلى أن الله ألآن لإبراهيم الحجر ، نقول له : إن إبراهيم قد احتال ، وخاف أن تزل قدمه ، فنحت مكانا فى الحجر على قدر قدمه حتى تثبت قدمه حين يحمل ويرفع الحجر ، وهذه آيات بينات . فخذ ما يتسع ذهنك وفهمك له ، إن الله أعان إبراهيم لأنه فكر أن يبنى القواعد ويرفعها أكثر مما تطول يداه ، وقد مكّن الله له فى ذلك وأعانه عليه ، ونحن نعلم أن الهداية تكون هداية الدلالة وهداية المعونة .

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

« فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا » ، والآيات هى الأمور العجيبة ، وعندما تراها فإنك لا تستطيع أن تنكرها . ودخول البيت يعنى الأمن للإنسان الذى يدخله ، ونحن نعلم أن البيت قد تم بناؤه فى هذا المكان . وهذا المكان تجتمع فيه القبائل ، وبين بعض هذه القبائل ثارات ودماء وحروب ، لذلك بيّن الله الوضع الذى بمقتضاه تحقن الدماء « ومن دخله كان آمنا » لماذا ؟ لأنه بيت الرب ولا يصح أن يدخل واحد بيت الرب ويُعاقب حتى ولو كان قد أجرم جرما يوجب الله عليه الحد فيه . ولذلك قال سيدنا عمر رضى الله عنه : لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ـ والده لم أتعرض له .

ولكن يُضَيّق الخناق على المجرم حتى يخرج . وهذا الأمن محدد بأى أمر اقترفه فى دنياه ، أما من دخله كان آمنا يوم القيامة فالحكم فيه شىء آخر ، إنها درجة عالية من فضل الله ، والآيات البينات الواضحة فى البيت الحرام يراها من زار البيت الحرام ، وليحقق الله أمل كل راغب فى زيارة البيت الحرام ، وأن يكرر الزيارة لمن ذهب وأراد أن يعود للزيارة مرة أخرى . فساعة تدخل البيت الحرام فأنت هنا تتجه إلى مكان فى البيت والمقابل لك فى الكرة الأرضية يتجه إلى المكان المقابل ، إلى أن تصير الاتجاهات مشتملة على الكعبة كلها . ونحن عندما نكون فى الكعبة فإننا نوجه وجوهنا إلى المبنى لأننا نراها ، ونحن نوجه الوجوه إلى المبنى المقطوع بأنه منها ، والحطيم ، وهو القوس المبنى حول حجر إسماعيل ، هو من الكعبة أيضا ، ولكن النفقة قصرت ، فجعلوه ليحدد مكان الكعبة ، فظل هكذا ، فإذا غاب الإنسان عن الكعبة واتجه إليها فإنه يكفى أن يتجه إلى جهتها .

ولذلك نجد الصفوف فى الصلاة حول الكعبة تتخذ شكل الدائرة ؛ لأن الذين يصلون فى داخل الحرم يشاهدونها ، أما الذين يصلون خارجها فيكفى أن يتجهوا إلى جهتها ولو طال الصف إلى ألف متر ، لذلك فالصف للمصلين خارج الحرم يكون معتدلا ، أما فى داخل الحرم فالصفوف تأخذ شكل الدائرة لأن أقصى بعد فى الكعبة هو اثنا عشر مترا وربع المتر.ونجد من الآيات العجيبة أنك إذا ما نظرت إلى الحجر الأسود تجد الناس تتهافت على تقبيله ، والحجر يمثل أدنى أجناس الكون ، ونعلم

جميعا أن الإنسان مستخلف كسيد فى الكون ، ومن بعده الحيوان أقل منه فى الفكر ومسخر ، ومن بعد الحيوان يكون جنس النبات ، ومن بعد ذلك يأتى جنس الجماد ومنه الحجر .

إننا نرى هذا الإنسان السيد فى الكون لا يقبل الله منه النسك القبول التام الحسن إلا إذا قبل الحجر ، أو حياه ، وهكذا ينقل الحق أعلى الأجناس إلى أدناها . والناس تزدحم حول الحجر ، ومن لم يقبل الحجر يحس أنه افتقد شيئا كثيرا ، وهكذا ترى استطراقا وسلوكا من الخلق إلى باب الله ، فالإنسان المتكبر الذى يتوهم أنه سيد على غيره ، يأتى إليه أمر فى النسك بتقبيل الحجر أو تحيته بالسلام ، وهذا الإنسان برغم أن الحق - سبحانه - يقبل منه أن يحيى الحجر الأسود بالسلام ولم يفرض عليه أن يقبّله ولكنه مع ذلك يحاول أن يقبل الحجر ، وهو أدنى الأجناس ، لأن الله قد عظمه ، وهذا أول كسر لأنف غرور الإنسان ، وحتى لا يظن ظان أنها حجرية أو وثنية ، يأتى الأمر من الحق برجم حجر آخر .

إذن فالحجرية لا ملحظ لها هنا ، فنحن نجد حجرا يُقدس ، وحجرا آخر يُرجم . نجد حجرا يقبله الإنسان ويعظمه وحجرا آخر يزدريه ويحقره . وذلك يدل على رضوخنا لإرادة الأمر سبحانه وتعالى فقط ، فعندما يأمرنا بأن نعظم حجرا فالمؤمن يؤدى حق التعظيم بالسمع والطاعة ، وعندما يأمرنا سبحانه برجم حجر آخر ، فالمؤمن يرجم هذا الحجر بالسمع والطاعة لله أيضا ، فالذاتية الحجرية لا دخل لها على الإطلاق . وبعض من أصحاب الظن السيىء قالوا:إن الإسلام قد استبقى بعض الوثنية .

ولهؤلاء نقول : ولماذا تذكرون تعظيم الحجر الأسود ، ولم تذكروا رجم إبليس وهو ثلاثة أحجار ؟ لقد عظم المؤمن المؤدى للنسك حجرا واحدا ورجم ثلاثة أحجار ، إن المؤمن إنما يطيع أمر الله ، فليست للحجر أى ذاتية فى النسك أو العبادة . لقد رفعنا الحق من حضيض عبادة الأصنام التى هى عين الكفر ، لكنه قال لنا : « قبلوا الحجر الأسود » فقد قبلنا الحجر احتراما لأمر الآمر ، وذلك هو منتهى اليقين . لقد نقلنا الحق من مساو إلى مساو ، من عبادة الحجر إلى تعظيم وتقديس حجر مثله ، لكن الأصنام كانت منتهى الشرك ، وتقبيل الحجر الأسود منتهى اليقين . أليست هذه آيات بينات ؟

وزمزم التى توجد فى حضن الكعبة ، أليست آيات بينات ؟ إن « هاجر » تترك الكعبة وتروح إلى « الصفا » وتصعد إلى « المروة » بعد أن تضع « إسماعيل » بجانب الكعبة ، وتدور بحثا عن المياه . وسعت هاجر سبعة أشواط لعلها ترى طيرا أو تجد إنسانا يعرف طريق المياه لأن ابنها يحتاج إلى الشرب ، ولو أنها وجدت على الصفا أو المروة مياها فى أول سعيها أكانت تجد تصديقا لقولها لإبراهيم عندما جاء بها للإقامة فى هذا المكان « إن الله لا يضيعنا » إنها سعت .

وكأن الله يقول لها ولكل إنسان : عليك بالسعى ، ولكن لن أعطيك من السعى ، إنما أعطيك الماء من تحت رجل إسماعيل،إذن فصدقت فى قولها: لن يضيعنا الله ، لقد جعلها الحق سبحانه تسعى سبعة أشواط ، ولا يمكن لامرأة فى مثل عمرها أن تقدر على أكثر من ذلك ، وهذا يعلمنا أن الإنسان عليه أن يباشر الأسباب ، ولكن القلب عليه أن يتعلق بمسبب الأسباب ، وهو الله سبحانه،وفى هذا ما يعدل سلوك الناس جميعا . فساعة يرى الإنسان أن البئر مكان قدم إسماعيل وعلى البعد تكون الصفا والمروة ، وتسعى بينهما ، وبعد ذلك تجد زمزم مكان ضربة قدم إسماعيل ، أليس فى هذا آيات بينات تهدى الإنسان أن يباشر الأسباب ويأخذ بها ، ويتعلق القلب بمسبب الأسباب ؟

إن هذا يعطى المؤمن إيمانية التوكل ، وهى تختلف عن الكسل و« بلادة التواكل » فإيمانية التوكل هى أن الجوارح تعمل ، والقلوب تتوكل ، أما الكسل عن الأخذ بالأسباب مع الادعاء بالتوكل فهذه بلادة ، ومثل هذا الكسول المتواكل عندما يأتى الأكل أمامه يأكل بنهم وشره ، ولو كان صادقا لترك اللقمة تقفز إلى فمه ، ولماذا يمضغها إذن ؟ لماذا يختار التواكل والكسل ، وعدم العمل ، ثم يمد يده ليأكل ؟ إن هذه هى « صفات التواكل » .

إننا نأخذ من سعى « هاجر » وتفجر الماء عبرة ، هى الأخذ بأسباب الله ، وبعد ذلك فإننا نجد كل إنسان فى البيت الحرام مشغولا بنفسه مع ربه ، ومن فرط انشغاله يكون غافلا عمّن يكون معه ، ولو كان أحب إنسان له فإنه لا يدرى به . وساعة تدخل وتنظر إلى الكعبة ينفض من عقلك كل فكر فى أى شىء من الأشياء ، لا تذكر أولادك أو مالك ، لكنك بعد أن تفرغ من المناسك تعود للتفكير فى أولادك وعملك ، وإلا لو ظل حبك وشوقك وتعلقك ومواجيدك بهذه البقعة لضاق المكان

بالناس جميعا . بعد ذلك يقول الحق سبحانه عن البيت الحرام : « ومن دخله كان آمنا » . وهنا يجب أن نفهم أن هناك فارقا بين أن يكون « الخبر » تاريخا للواقع ، وبين أن يكون « الخبر » خبرا تكليفيا فلو كان « وَمَنْ دخله كان آمنا » تاريخا للواقع لتم نقض ذلك بأشياء كثيرة ، فقد وجد فيه قوم ولم يأمَنوا .

ونحن نعرف حادث الاعتداء الأخير الذى حاوله جهيمان منذ سنوات قال الناس: إن جهيمان عندما اعتدى على الناس ، لم يستطع حجيج بيت الرحمن أن يكونوا آمنين فى البيت وتساءل بعضهم ، فكيف قال الحق : « ومن دخله كان آمنا » ؟ بل قال بعض أهل الانحراف : إذن مسألة دخول جهيمان إلى البيت الحرام تجعل « ومن دخله كان آمنا » ليست صادقة ! ولهؤلاء نقول :

إن هناك فرقا بين إخبار الحق بواقع قد حدث ، وبين إخبار بتكليف . إن الإخبار بالواقع كان معناه ألا يدخل أحد البيت الحرام ويهيجه أو يهاجمه أحد أبدا ، ولكن الإخبار التكليفى معناه : أن يخبر الله بخبر ويقصد به تكليف خلقه به ، والتكليف كما نعرف عرضة لأن يطاع ، وعرضة لأن يعصى ، فإذا قال الله سبحانه : « ومن دخله كان آمنا » فهذا معناه : يأيها المؤمنون ، من دخل البيت الحرام فأمنوه . ونضرب المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ تقول أنت لولدك: يا بنى هذا بيت يفتح للضيوف من دخله يكرم . أهذا يدل على إنجاز الإكرام لكل من دخل هذا البيت وحصوله له بالفعل وأن هذا لا يتخلف أبدًا أم أنك قلت الخبر وتريد لولدك أن ينفذه ؟

إن هذا خبر يحمل أمرا لابنك هو ضرورة إكرام من يدخل هذا البيت ، وتلك الوصية عرضة لتطاع وعرضة لأن تخالف ، لذلك فنحن نفهم من قول الحق : « ومن دخله كان آمنا » على أساس أنها أمر تكليفى ، عرضة للطاعة وللعصيان ، ومثال آخر على ذلك هو قول الله تعالى :

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة النور)

بعض الناس يقول : نجد واقع الحياة غير ذلك ، حيث نجد امرأة طيبة تقع فى

عصمة رجل غير طيب وتتزوجه . ونجد رجلا طيبا يقع مع امرأة غير طيبة ويتزوجها ، فكيف يقول الله ذلك ؟ ونحن نرد على أصحاب هذا القول : إن الله لم يقل ذلك تأريخا للواقع . ولكنه أمر تكليفى . أى افعلوا ذلك ، وحكمى وتكليفى أن يكون الطيبات للطيبين والطيبون يكونون للطيبات . فإذا امتثل الخلق أمر الحق فعليهم أن يفعلوا ذلك ، وإن لم يمتثل بعض الخلق لأمر الحق فإن الواقع ينبىء بحدوث وجود طيبين لغير طيبات أو العكس .

إذن فقول الحق : « ومن دخله كان آمنا » هو خبر يراد به أمر تكليفى ، فمن أراد أن يكون صادقا فيما كلفه الله به فليُؤمن مَن دخل البيت الحرام . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

وحين تسمع « لـ » و« على » ، فافهم أن الفائدة تقع على ما دخلت عليه « اللام » ، والتبعة تقع على ما دخلت عليه « على » . فحين نقول : « لفلان عَلَى فلان كذا » فالنفعية لِفلان الأول والتبعة على فلان الثانى . وحين يقول الحق سبحانه وتعالى : « ولله على الناس حج البيت » . فعلى هذا فالنفعية هنا تكون لله ، والتبعة هنا تكون على الناس ، لكن لو فطنا إلى سر العبارة لوجدنا أن الله لا ينتفع بشىء من تكليفه لنا ، فالحج لله ، ولكنه يعود إليك ، فما لله عاد إليك ، وما عليك عاد لك .

وكل تكليف عليك فأثره لك ، فإياك أن تفهم من ذلك القول الكريم : « ولله على الناس حج البيت » أن اللام الأولى للنفعية ، وإياك أن تفهم أن « على » هى للتبعة ، نعم إن الحج لله ، ولكن الفائدة لا تعود إلا عليك ، وهو تكليف عليك ، وفائدته تعود عليك ، فالحق سبحانه وتعالى منزه عن أن يُفيد من حكم من أحكامه ، وهو سبحانه حين ينزل حكما تكليفيا فعلى العبد المؤمن أن يعرف أن فائدة الحكم عائدة عليه وعلى حياته ، ولله يكون القصد والحج ، لا لشىء سواه .

ولماذا يقول الحق : إن على العبد المؤمن أن يحج البيت الحرام ؟ لأنه الخالق وهو

خبير وعليم بأن التكليف شاق على النفس ، ولكن على المؤمن المكلف حين يجد تكليفا شاقا عليه أن ينظر إلى الفائدة العائدة من هذا الحكم ، فإن نظر إلى الفائدة من الحكم وجد أنها تعود عليه ، ولذلك يسهل على العبد المؤمن أمر الطاعة . والذى لا يقبل على الطاعة ويهمل الجزاء عليها ويغفل عنه . تكون الطاعة شاقة عليه . والذى يقبل على المعصية ويهمل الجزاء عليها تكون المعصية هينة عليه . ولكن الطائع لو استحضر غاية الطاعة لعلم أنها له لا عليه .

ولو أن العاصى استحضر العذاب على المعصية لعلم أنها عليه لا له ؛ فالعاصى قد يحقق لنفسه شهوة ، لكنها شهوة عاجلة ، أمدها قصير ، ولو استحضر العاصى العقوبة على المعصية وقت عملها ما أقدم على معصيته أبدا . ولكن الذين يرتكبون المعصية ينظرون إلى الشهوة الطارئة ، ويعزلون جزاء المعصية عنها ، ولو أنصفوا أنفسهم ، لاستحضروا العقاب على المعصية فى وقت الرغبة فى ارتكابها . وحين يستحضرون جزاء المعصية مع المعصية فإن شهوة المعصية تنتهى منهم ، وأضرب هذا المثل دائما عن أعنف غرائز الإنسان وهى غريزة الجنس .

هب أن هناك واحدا رأى فتاة جميلة ثم أراد أن ينالها نقول لهذا المتشرد جنسيا : استحضر العذاب على هذا العمل ، وإن أخذت هذه الفتاة فتعال لنريك بعينيك ما أعده الله لك حين تتمتع بهذه الفتاة خارجا عن شرع الله ، وأوقد له فرنا مسجورًا ومحميًا ، وقُل له : فى مثل هذا ستدخل بل وأشد منه إن نلت من الفتاة .

أيقبل هذا المتشرد على ارتكاب تلك المعصية ؟ لا ؛ فشهوة المعصية تضيع عندما يستحضر العذاب عليها . إن الحق سبحانه يقول : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » والسبيل هو الطريق الموصل للغاية ، والطريق الموصل للغاية عادة ما يكون مطروقا ، وعندما يتجه الإنسان لأداء فريضة الحج فهو طارق للطريق ، أى سيسير عليه ، هكذا تعرف أن هناك ثلاثة أشياء :

طارق ، وهو من كتب الله عليه الحج وهو المكلف .
وسبيل مطروق .
وغاية ، وهى حج البيت .

ومادام الطارق سيسلك طريقا فلا بد أن يكون عنده قدرة على أن يسلك هذا الطريق فكيف تتأتى هذه القدرة ؟ إن أول شيء في القدرة هو الزاد ، وثاني شيء في القدرة هو المطية التي يركبها ، وهكذا نتبين أننا نحتاج إلى زاد وراحلة لطارق الحج . والسبيل الذي يطرقه ، أيكون محفوفا بالمخاطر ؟ لا ، بل يُفترض أن يكون السبيل آمنا . إذن فالاستطاعة تلزمها ثلاث حاجات ، هي : الزاد ، والراحلة ، وأمن الطريق . والزاد عادة يخص الإنسان نفسه ، ولكن ماذا يكون الحال إن كان الإنسان يعول أسرة وصغارا ؟

إذا كان الإنسان على هذا الحال فمن الاستطاعة أن يكون قد ترك زادا لمن يعولهم إلى أن يعود . وعلينا أن ننتبه إلى أن الله قال في كل تكليف : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم » . ولكنه سبحانه جاء في فريضة الحج بالقول الواضح ، بأن الحج لله على الناس وليس لمن أسلموا فقط ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعا أهل الكتاب الذين كانوا يتمحكون في إبراهيم عليه السلام أن يحجوا البيت الحرام ، فامتنعوا عن الحج ، ولو كان الحج للمسلمين المؤمنين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم لما عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم على اليهود والنصارى أن يحجوا ليكون ذلك جمعًا لهم على أن يتجه الخلق جميعا إلى بيت الله ويعبدوا إلها واحدًا هو ربّ هذا البيت ، ولكنهم امتنعوا عن الحج . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيمن لم يحج بدون مرض حابس ، أو سلطان جائر ، أو فقر وعوز ، يقول في الحديث الشريف :

عن علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من ملك زادًا وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا ، وذلك أن الله تعالى يقول : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا »)(1) .

ولذلك نجد التكليف بالحج قد اتبع مباشرة بقول الحق : « ومن كفر » فهل يقع من لا يحج بدون مانع قاهر في الكفر ؟ هنا يقف العلماء وقفة . العلماء يقولون : نعم إنه يدخل في الكفر ، لماذا ؟ لأن الكفر عند العلماء نوعان كفر بالله ، أو كفر بنعمة

(١) رواه الترمذي ، والحديث وإن كان في إسناده هلال بن عبدالله مجهول إلا أنه ورد في طرق أخرى حسان وكلها تدل على أن مناط الوجوب في توافر الزاد والراحلة .

الله ، ومثال ذلك قوله ـ جل شأنه ـ :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة النحل)

أو هو الكفر ، كأن يموت الإنسان يهوديا أو نصرانيا ، وهنا نقول : انتبه ، لا تأخذ الحكم من زاوية وتترك الزاوية الأخرى . إن المسألة التكليفية يوضحها الحق بقوله : « ولله على الناس حج البيت » . فهل تعارضون فى هذا التكليف ؟ أو تؤمنون به ولكن لا تنفذونه ؟

إن القضية التكليفية الإيمانية هى « ولله على الناس حج البيت » فهل أنت مؤمن بها أو لا ؟ سنجد الإجابة من كل المؤمنين بـ « نعم » . ولكن الموقف يختلف من مؤمن إلى آخر ؛ فنحن نجد مؤمنا يحرص على أداء الحكم من الله ، وهو الطائع ، ونجد مؤمنا آخر قد لا يحرص على أداء الحكم فيصبح عاصيا .

ونجد فى هذا الموقف أن الكفر نوعان ، هناك من يكفر بحكم الحج ، أى من كفر فى الاعتقاد بأن لله على الناس حج البيت ، وهذا كافر حقا ، لكنْ هناك نوع آخر وهو الذى يرتكب معصية الكفران بالنعمة ؛ لأن الله أعطاه الاستطاعة من زاد ، ومن راحلة ، ومن أمن طريق ، ومن قدرة على زاد يكفى من يعولهم إلى أن يعود ، وهنا كان يجب على مثل هذا الإنسان أن يسعى إلى الحج . لذلك قال بعض العارفين لو أن أحدهم أخبِر بأن له ميراثا بمكة لذهب إليه حبوًا .

إذن فقوله تعالى : « ولله على الناس حج البيت » هى قضية إيمانية ، فمن اعتقدها يبرأ من الكفر ، ومن خالفها وأنكرها فهو فى الكفر . ومن قام بالحج فهو طائع ، ومن لم يفعل وهو مؤمن بالحج فهو عاصٍ .

ولننظر إلى دقة الأداء القرآنى حين يقول الحق : ومن كفر فإنّ الله غنى عن

العالمين . قد يقول قائل : ولماذا لم يقل الله : ومن كفر فإن الله غنى عنه ؟ وقال : « فإن الله غنى عن العالمين » ؟ ونقول : إنّ الله غنيٌّ عن كل مخلوقاته ، وإيّاك أن تفهم أن الذى لم يكفر وآمن ، وأدى ما عليه من تكليف ، أنه عمل منفعة لله ؛ إن الله غنى عن الذى أدّى وعن الذى لم يؤد ، إياك أن تظن أن من أدّى قد صنع لله معروفا ، أو قدم لله يدا ؛ « فإن الله غنى عن العالمين » عمن لا يفعل ، وعمن يفعل . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ ٩٨

وحين تسمع « قل » فهى أمر من الله لرسوله كما قلنا من قبل ؛ إنك إذا كلفت إنسانا أن يقول جملة لمن ترسله إليه فهل هذا الإنسان يأتى بالأمر « قل » أو يؤدى الجملة ؟ إنه يؤدى الجملة ، ومثال ذلك حين تقول لابنك مثلا:« قل لعمك : إن أبى سيأتيك غدا » فابنك يذهب إلى عمه قائلا : « أبى يأتيك غدا » .

وقد يقول قائل : ألم يكن يكفى أن يقول الله للرسول:« قل يا محمد » فيبلغنا رسول الله يا أهل الكتاب لم تكفرون ؟ كان ذلك يكفى ، ولكن الرسول مبلغ الأمر نفسه من الله ، فكأنه قال ما تلقاه من الله ، والذى تلقاه الرسول من الله هو : « قل يا أهل الكتاب » وهذا يدل على أن الرسول يبلغ حرفيا ما سمعه عن الله . وهناك آيات كثيرة فى القرآن تبدأ بقول الحق : « يا أهل الكتاب » ولا يأتى فيها قول الحق : « قل » . وهناك آيات تأتى مسبوقة بـ« قل » « ما الفرق بين الاثنين » ؟

نحن نجد أن الحق مرة يتلطف مع خلقه ، فيجعلهم أهلا لخطابه ، فيقول : « يا أهل الكتاب » إنه خطاب من الله لهم مباشرة . ومرة يقول لرسوله : قل لهم

يا محمد لأنهم لم يتساموا إلى مرتبة أن يُخاطبوا من الله مباشرة : فإذا ما وجدنا خطابا من الحق للخلق ، مرة مسبوقا بـ « قل » ومرة أخرى غير مسبوق فلْتعلم أن الحق سبحانه حين يخاطب خلقه الذين خلقهم يتلطف معهم مرة ، ويجعلهم أهلا لأن يخاطبهم ، ومرة حين يجد منهم اللجاج فإنه يبلغ رسوله صلى الله عليه وسلم : قل لهم .

والمثال على ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ فى حياتنا ، نجد الواحد منا يقول لمن بجانبه : قل لصاحب الصوت العالى أن يصمت . إن هذا القائل قد تَعَالَى عن أن يخاطب هذا الإنسان صاحب الصوت المرتفع فيطلب ممن يجلس بجانبه أن يأمر صاحب الصوت العالى بالسكوت . وحين يجيء الخطاب لأهل الكتاب فنحن نعرف أنهم اليهود أصحاب التوراة ، والنصارى أصحاب الإنجيل ، وهؤلاء هم من يقول عنهم الحق : « يا أهل الكتاب » .

ولم يقل أحد لنا : « يا أهل القرآن » لماذا ؟ لأن الحق حين يقول لهم : « يا أهل الكتاب » فنحن نعرف أن الكتاب يُطلق على كل مكتوب ، وكفرهم يعارض ما علم الله أنه موجود فى الكتاب الذى أنزل عليهم ؛ لأنه هو الذى أنزل الكتاب ، ويعلم أن ما فى الكتاب يدعو إلى الإيمان ، ولا يدعو إلى الكفر . ومادام هو الحق الذى نَزَّل الكتاب ، وهو الشاهد ، فيصبح من الحمق من أهل الكتاب أن يوقعوا أنفسهم فى فخ الكفر ؛ لأنهم بذلك يكذبون على الله : والله ـ سبحانه ـ يسجل عليهم أنهم خالفوا ما هو مكتوب ومنزل عليهم فى كتابهم . إنهم ـ أهل الكتاب ـ إن استطاعوا تعمية أهل الأرض فلن يستطيعوا ذلك بالنسبة لخالق الأرض والسماء .

والحق حين يقول : « لم تكفرون بآيات الله » فهل نفهم من ذلك أن كفرهم بآيات الله هو سترهم آيات الله سترا أوليا أو أنهم آمنوا بها ، ثم كفروا بها ؟ لنرى ماذا حدث منهم ، لقد كانت البشارات به صلى الله عليه وسلم مكتوبة فى التوراة ، ومكتوبة فى الإنجيل وهم قد آمنوا بها قبل أن يجيء سيدنا رسول الله ، فلما جاء رسول الله بالفعل كفروا بها . وفى هذا جاء القول الحكيم :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ

﴿ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

لماذا كفروا به صلى الله عليه وسلم ؟ لأنه زحزح عنهم السلطة الزمنية ، فلم تعد لهم السلطة الزمنية التى كانوا يبيعون فيها الجنة ويبيعون فيها رضوان الله ويعملون ما يحقق لهم مصالحهم دون التفات لأحكام الله . وسبق أن قلت : إن قريشا قد امتنعت عن قول: « لا إله إلا الله » وهذا الامتناع دليل على أنها فهمت المراد من « لا إله إلا الله » ، فلو كانت مجرد كلمة تقال لقالوها ، لكنهم عرفوا وفهموا أنه لا معبود ولا مطاع ولا مشرع ، ولا مكلف إلا الله .

إن الحق يقول لأهل الكتاب :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

هب أنكم خبتم فى ذواتكم ، وحملتم وزر ضلالكم ؛ فلماذا تحملون وزر إضلالكم للناس ؟ . كان يكفى أن تحملوا وزر ضلالكم أنتم ، لا أن تحملوا أيضا وزر إضلالكم للناس ؟

إنّ الحق ـ سبحانه ـ قال :

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة النحل)

إنه سبحانه قال ذلك مع أنه قد قال :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ١٨، سورة فاطر)

إن الذى لا يحمل وزرا مع وزره هو الضال الذى لم يُضِل غيره ، فهذا يتحمل إثمه فقط . أما الذى يحمل وزر نفسه ، ووزر غيره فهو الضال المضل لغيره ، وهنا يسألهم الحق سبحانه وتعالى على لسان رسوله : « لم تصدون عن سبيل الله من آمن » .

كأنه يقول لهم ماذا تريدون من الدين الذى يربط العبد بربه ؟ . إنكم لا تريدونه دينا قيما ، إنكم تريدونه دينا معوجا ، والمعوج عن الاستقامة إنما يكون معوجا لغرض ؛ لأن المعوج يطيل المسافة . إنّ الذى يسير فى طريق مستقيم ما الذى يدعوه إلى أن ينحرف عن الطريق المستقيم ليطيل على نفسه السبيل ؟ . إن كان يريد الغاية مباشرة فإنه يفضل الطريق المستقيم . أما الذى ينحرف عن الطريق المستقيم فهو لا يبغى الغاية المنشودة ، بل يطيل على نفسه المسافة ، وقد لا يصل إلى الغاية .

والحق يقول : « لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا » وساعة تسمع « عوجا » فإننا قد نسمعها مرة « عوج » بفتح العين . ومرة نسمعها « عوج » بكسر العين . حين نسمعها « عوج » بفتح العين ، فالعَوَج هو للشىء الذى له قيام ، كالحائط أو الرمح ، أما « العِوج » بكسر العين فهو فى المعانى والقيم ، لذلك يقول لهم الحق عن انحرافهم فى المعانى والقيم : « تبغونها عوجا وأنتم شهداء » .

إن الحق يبلغهم : أنتم تبغون الدين عوجا برغم أنكم شهداء على أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق ، إنه جاء مبلغا بالصدق ، وكنتم تبشرون برسالة محمد ، وكنتم تستفتحون على الذين أشركوا من أهل مكة وتقولون : سيأتى نبى نتبعه ثم نقتلكم معه قتل عاد وإرم . أنتم ـ يا أهل الكتاب ـ شهود على صدق هذا الرسول .

لقد ارتكبوا سلسلة من المعاصى ؛ هم ضلوا وجهدوا أن يُضلوا غيرهم . ويا ليت

ذلك يتم عن جهل ، ولكنه أمر كان يتم بقصد وعن علم . وبلغت المسألة منهم مبلغ أنهم شهود على الحق . وبرغم ذلك أصروا على الضلال والإضلال . ومعنى « الشهود » ، أنهم عرفوا ما قالوا ورأوه رأى العين ، فالشهود هو رؤية لشيء تشهده ، وليس شيئا سمعته ، لذلك يذكرهم الحق سبحانه بقوله : « وما الله بغافل عما تعملون » .

إنّ الرسالة التى جاء بها محمد مبلغا واضحة ، وهذا مذكور فى كتبكم السماوية . فما الذى يجعلكم ـ يا أهل الكتاب ـ لا تلتزمون طريق الحق وأنتم شهود ؟ لابد أنكم قد مستكم شبهة إن الله يغفل عن ذلك ، فقال لهم لا : « وما الله بغافل عما تعملون » .

وبعد ذلك يأتى قول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

معنى ذلك أن الله نبّه الفئة المؤمنة إلى أن الذين يكفرون بآيات الله لن يهدأ بالهم مادمتم أنتم ـ أيها المؤمنون ـ على الجادة ، ومادمتم مستقيمين ، ولن يهدأ للكافرين بآيات الله بال إلا أن يشككوا المؤمنين فى دينهم ، وأن يبغوها عوجا ، وأن يكفروهم من بعد إسلامهم .

وهذه قضية يجب أن ينتبه لها الذين آمنوا ؛ لأن الذين يبغون الأمر عوجا قد ضلوا وأضلوا ، وهم يشهدون على هذا ، ويعلمون أنّ الله غير غافل عما يعملون ، فماذا يكون موقف الطائفة المؤمنة ؟ إن الحق سبحانه يوضحه بقوله : « يأيها الذين آمنوا » .

إن أهل الكتاب يحاولون أن يصدوا المؤمنين عن سبيل الله ، وليس المقصود بالصد ، أن هناك من يمنع المؤمنين من الإيمان ، لا ، بل هى محاولة من أهل الكتاب لإقناع المؤمنين بالرجوع والارتداد عن الإيمان الذى اعتنقوه ؛ فالمؤمنون هم الطائفة التى تلتزم بالتكليف من الله ، لذلك يحذرهم الحق سبحانه بقوله :

« إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب ، يردوكم بعد إيمانكم كافرين » الحق يحدد قسما من الذين أوتوا الكتاب ، وذلك تأريخ بنزاهة وصدق وحق ودون تحامل . كأن الحق سبحانه يبلغنا أن هناك فريقا من أهل الكتاب سيسلكون الطريق السوى ، ويجيئون إلى المسلمين أرسالا وجماعات وأفرادا مع الإسلام ؛ فالحق لا يتكلم عن كل الذين أوتوا الكتاب . لذلك يقول الحق « إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب » إن الحق يؤرخ وهو يحمى الحقيقة ، ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٠١ ﴾

إنه استعظام وتعجيب من أن يأتى الكفر مرة أخرى من المؤمنين وهم فى نعيم المعرفة بالله ، فآيات الله تتلى عليهم ، ورسول الله ﷺ حق ومعهم وفيهم .

ويقول الحق سبحانه للمؤمنين : « إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب » إن لذلك قصة ؛ فقد كان اليهود فى المدينة يملكون السلطة الاقتصادية ؛ لأنهم يجيدون التعامل فى المال ، وكل من يريد مالا يذهب إليهم ليقترض منهم بالربا . وكان لليهود أيضا التفوق والتميز العلمى ؛ لأنهم يعلمون الكتاب ، بينما كان غالبية أهل مكة والمدينة من الأميين الذين لا يعرفون كتابا سماويا . وكذلك كان هناك تميز آخر لليهود

هو خبرتهم بالحرب ؛ فلهم قلاع وحصون . هكذا كان لليهود ثلاثة أسباب للتميز :

المال يحقق الزعامة الاقتصادية ، والعلم . . بالكتاب وهو تفوق علمى ، ثم خبرتهم بفنون الحرب ، وكانوا فوق ذلك يحاولون إيجاد الخلاف بين الناس وتعميقه . مثل محاولتهم إثارة العداوات بين الأوس والخزرج . والمتاجرة بذلك حتى تظل الحروب قائمة ، وبذلك يضمنون رواج تجارة الأسلحة التى يصنعونها ويمدون بها كل فريق من المتحاربين .

ولما جاء الاسلام وحّد الرسول صلى الله عليه وسلّم بين الأوس والخزرج وبذلك ضاع منهم التفوق الاقتصادى . وجاء الاسلام بدين وكتاب مهيمن على الكتب ، فضاعت من اليهود المنزلة العلمية . وكذلك ضاعت من اليهود المنزلة الحربية ؛ فقد رأوا قلة من المؤمنين هزموا الكفار وأنزلوا بهم هزيمة نكراء فى بدر ، وهكذا ضاع كل سلطان لليهود فى المدينة ، لذلك أرادوا أن يعيدوا الأمر إلى ما كان عليه قبل أن يجىء الإسلام ، فقالوا فلنؤجج ونشعل ما بين الأوس والخزرج من العداوات ونهيجها ، وقال شخص اسمه « شأس بن قيس » وقد رأى نور الإيمان يعلو وجوه الأوس والخزرج ويشملهم الانسجام الإيمانى . وتوجد بينهم المودة وابتسامات الصفاء ، هيَّج ذلك شأس بن قيس وقال : « والله لابد أن نعيدها جذعة ونرجعهم إلى ما كانوا عليه من أحقاد وعداوات ، فلا استقرار لنا ماداموا قد اجتمعوا » .

فأرسل فتى من اليهود وجلس بين الأوس والخزرج ، ثم تطرق الحديث منه إلى يوم يسمى يوم « بعاث » ، وهو اسم يوم من أيام العرب قبل الإسلام ، وكان بين الأوس والخزرج ، وكان النصر فيه للأوس على الخزرج ، وجلس الفتى اليهودى يذكر ويأتى بالشعر الذى قيل فى هذا اليوم فهيّج حمية الأوس والخزرج وحدث النزاع ، وحصل التفاخر واستيقظ التباغض ، وقالوا : « السلاح . . السلاح » وهكذا نجحت المكيدة ، ونمى الخبر إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام صلى الله عليه وسلم ومعه صحابته ، حتى انتهَوْا إلى اجتماع الأوس والخزرج ، فوجدوا الحال على أشد درجات الهياج ، نزاع ، وتباغض ، وسلاح محمول ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : أبِدَعْوَى الجاهلية وأنا بين أظهركم !!

أى كان من الواجب أن تخجلوا من أنفسكم ؛ لأن رسول الله بينكم ، وأضاف رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أكرمكم الله بالإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، وألف بين قلوبكم ، فماذا كانت مواقع كلمات الرسول فى نفوس القوم ؟ لقد دفعتهم كلماته صلى الله عليه وسلم إلى إلقاء السلاح ، وبكوا وعانق بعضهم بعضا وانصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما كان يوم أقبح أولا وأحسن آخرا من ذلك اليوم .

وعندما نتأمل ما فعله هؤلاء القوم من اليهود لإشعال الفتنة بين الأوس والخزرج نجد أنهم قد أدركوا طبيعة النزاع القديم بين الأوس والخزرج فأرادوا أن يهيجوا تلك العداوات والأحقاد القديمة ، وكذلك نجد أن تهييج المشاعر بين الأوس والخزرج جعل للانفعالات بابا فكاد القتال يشتعل ، وعندما تكلم فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هدأت المواجيد ، وألقوا السلاح ، وندموا على ما فعلوا .

وإذا أردنا أن نرى الأمر بعمق التصور لما حدث فإننا نجد أن إدراك العداوة بين الأوس والخزرج من اليهود هو الذى دفع اليهود لتحريك هذا الإدراك الخاطىء وإحياء الثارات القديمة ، ثم كان انفعال الأوس والخزرج بتلك الثارات القديمة قد فتح الباب لحمل السلاح للاقتتال .

وهكذا نجد أن الإدراك للشىء ، يمر بثلاث مراتب : أولا : الإحساس بالشىء ، ثانيا : انفعال النفس له ، ثالثا ؛ النزوع السلوكى ، وعندما تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم ، أدرك الأوس والخزرج الأمر بطريقة عكسية فألقوا السلاح ، وهدأت مواجيد البغضاء ، وتركوا الإدراكات الخاطئة .

لقد ذكرهم النبى صلى الله عليه وسلم بثلاثة أشياء هى : « أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم وقد أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية . وألف بين قلوبكم » . وقد استقبلوا ذلك بإلقاء السلاح أولا ، ثم البكاء ثانيا ، وهو أمر حركته المواجيد فيهم ثم تعانقوا أى صححوا الإدراكات ثالثا ، وهكذا حدث النزوع بالعكس . ولما حدث ذلك أصاب اليهود الغيظ والخيبة والنكد . وقال المؤرخ لهذه القصة: فما كان يوم فى الإسلام أسوأ أولا وأحسن آخراً إلاّ ذلك اليوم .

لقد بدأ اليوم بعبوس ، وانتهى بإشراق الطمأنينة ، وبعد ذلك وُجدت الخلية التى تكوّن المناعة فى نفوس المؤمنين ، بعد أن قال الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك القول : « أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم » .

لقد صار هذا القول الكريم مستحضرا عند كل نزغ لشيطان ، أو كيد لعدو . لقد جعل الحق المناعة ضد فعل الكيد ، ونزغ الشيطان عند المؤمنين من الأوس والخزرج ، وهكذا نرى أن الله يسخر الكافر حتى فى رفعة شأن الإيمان ، فلو لم تحدث هذه المسألة ويأتى الرسول صلى الله عليه وسلم بمنطقه المؤثر وهو بين القوم ليقول ذلك القول لما أصبح لدى المسلمين هذه المناعة من الارتفاع عن البغضاء فيما بينهم ، ولو كان أحد من أتباع الرسول قد قال مثل هذه الكلمة فقد كان من المحتمل أن يحدث هذا الأثر ، لكن عندما قالها الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أوجدت المناعة لغيرها من الأحداث التى تأتى وقد لا يكون الرسول موجودا .

ولذلك فأنت أيها المؤمن إن نظرت إلى الكافرين . فإنك تجد عقولهم خائبة . لقد نشروا الإسلام ـ دون إرادتهم ـ بمواقفهم الحمقاء ، فمثلا حين قالوا : سيأتى نبى نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فما الذى حدث ؟

إن الأنصار ساعة أن سمعوا بالدين الجديد قال بعضهم لبعض : اسمعوا يا قوم ، إنه الدين الذى بشرتكم به يهود ، فقبل أن يسبقونا إليه هيا بنا نسبق نحن اليهود إليه .

لقد كان استعلاء اليهود وتفاخرهم على الأوس والخزرج دافعا للأوس والخزرج على الدخول فى الإسلام ، وهكذا يجعل الحق سبحانه وتعالى كفر الكافر مؤثرا فى تثبيت إيمان المؤمن .

وحين يقول الحق سبحانه : « وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » نفهم أنه استعظام وتعجيب يأتى من الحق . فساعة تسمع : « كيف تكفرون » فذلك أمر عجيب ، لأنه من

المستبعد أن يكفر المؤمنون وكتاب الله يتلى عليهم ، ورسول الله فيهم .

ويجيء من بعد ذلك الدعوة إلى الاعتصام بالله ، ومعنى الاعتصام : التمسك ، ولا يتأتى إلا فى علو ، فيقال : « اعتصمت بحبل الإيمان » لأن للإنسان ثقلا ذاتيا ، هذا الثقل الذاتى إن لم يرفعه سواه ، فإنه يقع بالإنسان . وهذا لا ينشأ إلا إذا كان الإنسان معلقا فى الجو ويمسك بحبل ولا يوجد من يدفعه إلى أسفل ، بل الإنسان بثقله الخاص يهبط إلى الأرض . فمن يعتصم بالله ويمسك بحبل الإيمان فإنه يمنع نفسه من الهُوِىّ والسقوط .

وهنا نشعر أن الاعتصام بالله هو أن نتبع ما تُلِىَ علينا من الآيات ، وما سنه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذن فباب الاعتصام هو كتاب الله وسنة رسوله ، وكذلك كان وجود الرسول بين أظهرهم هو الأمر الضرورى ، لأنهم كانوا منغمسين فى حمأة الجاهلية ، فلابد أن توجد إشراقة الرسول بينهم حتى تضىء لهم ، فيروا أن الله قد أخرجهم من الظلمات إلى النور . ولم يقبض الحق رسوله إلا بعد أن أكمل لنا الدين ، وأتم علينا النعمة ورضى لنا الإسلام دينا . قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتى »[1] .

هكذا نرى أن وجود آيات الله ، وسنة رسول الله هى العاصم الذى يهدى إلى صراط مستقيم . والهدى كما نعرف هو ما يوصل إلى الغاية المرجوة ، فهب أن غايتك أن تذهب إلى مكان معين فالذى يوصلك إلى ذلك المكان هو هدى ، وكل ما يدل إنسانا على الموصل للغاية اسمه هدى . والحق سبحانه وتعالى خلق الخلق جميعا ، وجعل بعض الخلق مقهورا ، وبعض الخلق مخيرا .

والمقهور من خلق الله هو كافة المخلوقات فى الكون ما عدا الإنسان . إلا فى بعض أموره فإنه مقهور فيها أيضا ولذلك قلنا : إن كل ما عدا الإنسان من خلق الله يؤدى مهمته كما طُلبت منه ، فما امتنعت الشمس أن تشرق على الناس يوما ، ولا امتنعت الريح أن تهب ، ولا امتنعت السماء عن أن تمطر ، ولم تقل الأرض للإنسان إنك

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة .

تعصى الله فلا أنبت لك ، ولا جاء إنسان ليركب الدابة المسخرة فقالت : لا ؛ إنك عاص ، ولذلك سأحرن فلا أمكنك من ركوب ظهرى .

هكذا نرى أن كل شيء ماعدا الإنسان مسخر مقهور للغاية المرجوة منه ، وهو خدمة ذلك الإنسان . والإنسان وحده هو الذى له اختيار . . ولذلك يجب أن نتنبه دائما إلى أن الله قد جعل للخلق تسخيرا وتسييرا ، وجعل الإجماع فى كل الأجناس ، ولكن الانقسام جاء عند الإنسان فقال الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الحج)

إن الجمادات الساجدة المسخرة هى : « الشمس والقمر والنجوم » ، والنبات الساجد المسخر هو « الشجر » ، وكذلك « الدواب » فهى ضمن الكائنات التى عليها حكم الحق بالإجماع ، بأنها كلها تسجد خاضعة مسخرة . أما الإنسان فقد قال الحق عنه : « وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب » .

إذن فالانقسام جاء عند من ؟ لقد جاء الانقسام عند الإنسان . لماذا ؟ لأن الله خلق الإنسان مختارا . ألم يكن من الممكن أن يخلق الله الإنسان مسخرا كبقية الكائنات ؟ أليس التسخير دليلاً على قدرة المسخر ، وأن شيئا من خلقه لن يخرج من قدرته ، هذا صحيح ، لكن الحق سبحانه كما أراد أن يثبت القدرة والقهر بالتسخير ، أراد أن يثبت المحبوبية بالاختيار . فمن كان مختارا أن يؤمن أو يعصى ، ثم اختار أن يؤمن ، فهذا الاختيار إنما يثبت به الإنسان المحبوبية لله .

هكذا صنف الله الخلق بين قسم قهرى يثبت القدرة ، وقسم اختيارى يثبت المحبوبية ، ولهذا أراد الله للإنسان أن يكون مختارا أن يفعل أو لا يفعل . فلماذا - إذن - لا يفعل الإنسان كل أفعاله وهى منسجمة مع الإيمان ؟ لأن للشهوة بريقا سطحيا ، وهذا البريق السطحى يجذب الإنسان كما تجذب النارُ الفَرَاشَ .

عندما يوقد الإنسان نارًا ما فى الخلاء فضوؤها يجذب الفَرَاش ، ويحترق الفَراش بنيران الضوء ؛ فقد جذبه النور وأغراه ، ولكنه لم يعرف أن مصرعه فى تلك النار . والحكمة العربية تقول : « رب نفس عشقت مصرعها » كذلك فى الشهوات ، تتزين الشهوة للإنسان ، فتجذبه إليها فيكون فيها مصرع الإنسان .

لكن ما الحماية للإنسان من ذلك ؟

إن الحماية هى فى منهج الله « افعل » . و« لا تفعل » فمن يرد أن ينقذ نفسه من كيد الشيطان وكيد النفس فعليه أن يخضع لمنهج الله فى « افعل » و« لا تفعل » . وقد قلت قديما : إنه من الحمق أن يصنع صانع صنعةً ما ، ثم ينسى أن يضع لها قانون الصيانة . والإنسان فى حدود صناعته لا ينسى ذلك ، فما بالنا بالحق سبحانه بطلاقة قدرته ؟

إن الخالق سبحانه وتعالى قد صنع الإنسان ، ووضع الحق سبحانه وتعالى قانون صيانة صنعته فى الإنسان فقال جل وعلا : افعل كذا ولا تفعل كذا ، فمن أراد أن يعتصم بالحبل المتين فلا يأتى له نزغ شيطان أو كيد عدو ولا هوى نفس . فليعتصم بمنهج الله ؛ لأن الله هو الذى خلقه وهو الذى وضع منهجه كقانون لصيانة صنعته ، وهو القانون الموجز فى « افعل ولا تفعل » .

ويقول الحق : « ومن يعتصم بالله فقد هُدِىَ إلى صراط مستقيم » وكلمة الاعتصام أروع ما تكون عندما يكون الإنسان فى الهواء معلقا فى الفراغ ، وهو فى أثناء وجوده فى الفراغ فإن ثقله الذاتى هو الذى يوقعه ويسقطه ، لكن عندما يتمسك الإنسان بمنهج الله فإنه ينقذ نفسه من السقوط والهُوِى (بضم الهاء وكسر الواو) ومهمة الشيطان أن يزيّن المعصية بالبريق ، فتندفع شهوات النفس هائجة إلى المعصية ، ولذلك يأتى الشيطان يوم القيامة ويأخذ الحجة علينا . يقول الحق :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا

أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ
ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾

(سورة إبراهيم)

والسلطان كما نعرف نوعان : النوع الأول هو أن يقهر الشيطانُ الإنسانَ ، والشيطان لا قدرة له على ذلك . والنوع الثانى هو أن يقنع الشيطان الإنسان بأن يفعل ذلك الخطأ .

ما الفرق بين الإقناع والقهر فى هذا المجال ؟

إن القهر هو أن يجبر الشيطان الإنسان على أن يفعل شيئا لا يريده الإنسان . أما الإقناع فهو أن يزين الشيطان الأمر للإنسان فيفعله الإنسان بالاختيار ويعلن الشيطان يوم القيامة : لم يكن لى سلطان أقهرك به أيها الإنسان حتى تعصى الله ، لقد زينت لك المعصية أيها الإنسان فاستجبت لى .

إن الشيطان يوم القيامة يقول : « ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى » ما معنى « مصرخكم » ؟ إنها مشتقة من « أصرخ » ، أى سمع صراخك فأغاثك وأنجدك ، فمصرخ : مغيث ومنجد ، والشيطان يعلن أنه لن يستطيع نجدة الإنسان ، ولا الإنسان يستطيع أن ينجد الشيطان .

إذن ، فثقل النفس البشرية هو ما يوقع الإنسان فى الهاوية دون أن يلقيه أحد فيها ، ولا إنقاذ للإنسان من الهاوية إلا بالاعتصام بحبل الله . كأن منهج الله هو الحبل الممدود إلينا ، فمن يعتصم به ينجو من الهاوية .

ومادمنا نعتصم بحبل الله وهو القرآن المنزل من خالقنا والسنة النبوية المطهرة ، وسبحانه يعلم كيد النفس لصاحبها ـ فلابد أن يهدينا الله إلى الصراط المستقيم . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾

إن الله قد أعطى المؤمنين المناعة أولا بألا يسمعوا كلام أعداء الدين . وحين نسمع كلمة « اتقوا » فلنفهم أن هناك أشياء تسبب لك التعب والأذى ، فعليك أن تجعل بينك وبينها وقاية ، ولذلك قال الحق :

﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) ﴾

(سورة آل عمران)

إنه الحق يطلب من الإنسان أن يجعل بينه وبين النار وقاية وحجابا يقيه منها . والحق سبحانه وتعالى حين يقول على سبيل المثال :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

(من الآية ٤ سورة المائدة)

أى اجعل بينك وبين الله حجابا يقيك من غضبه . وقد يقول قائل : كيف يكون ذلك وأنا كمؤمن أريد أن أعيش فى معية الله ؟

نقول : إنك تجعل الوقاية لنفسك من صفات جلال الله ، وأنت تستظل بصفات الجمال ، فالمؤمن الحق هو من يجعل لنفسه وقاية من صفات الجلال ، وهى القهر والجبروت وغيرها ، وكذلك النار إنها من جنود صفات جلال الله . فحين يقول الحق : « اتقوا النار » أو « اتقوا الله » فالمعنى واحد . وعندما يسمع إنسان قول الحق سبحانه : « اتقوا الله حق تقاته » ماذا تعنى (حق تقاته) ؟ إن كلمة « حق » ـ كما نعرف ـ تعنى الشيء الثابت الذى لا يزول ولا يتزحزح ، أى لا ينتهى ولا يتذبذب ، هذا هو الحق .

إذن ما حق التقى ؟ هو أن يكون إيمانك أيها المؤمن إيمانا راسخا لا يغادرك ولا تتذبذب معه ، واتقاء الله حق تقاته هو اتباع منهجه ، فيطاع الله باتباع المنهج

فلا يعصى ، ويُذكر فلا ينسى ، ويُشكر ولا يُكفر . وطريق الطاعة يوجد فى اتباع المنهج بـ « افعل » و« لا تفعل » ويذكر ولا ينسى ؛ لأن العبد قد يطيع الله ، وينفذ منهج الله ، ولكن النعم التى خلقها الله قد تشغل العبد عن الله ، والمنهج يدعوك أن تتذكر فى كل نعمة من أنعم بها ، وإياك أن تنسيك النعمة المنعم .

ويشكر العبد الله ولا يكفر بالنعم التى وهبها له الله . ومادمت أيها العبد تستقبل كل نعمة وتردها إلى الله وتقول : « ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله » ولا تكفر بالنعم أى أنك تؤدى حق النعمة ، وكل نعمة يؤدى العبد حقها تعنى أنها نعمة شكر العبد ربه عليها ، ولم يكفر بها .

و قيل فى معنى : « حق تقاته » أى أنه لا تأخذك فى الله لومة لائم ، أو أن تقول الحق ولو على نفسك . هذا ما يقال عنه « حق التقى » ، أى التقى الحق الذى يعتبر تقى بحق وصدق . وقال العلماء : إن هذه الآية عندما نزلت وسمعها الصحابة ، استضعف الصحابة نفوسهم أمام مطلوبها ، فقال بعضهم : من يقدر على حق التقى ؟ ويقال : إن الله أنزل بعد ذلك :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾

(من الآية ١٦ سورة التغابن)

فهل معنى هذا أن الله كلف الناس أولا ما لا يستطيعون ، ثم قال من بعد ذلك : « فاتقوا الله ما استطعتم » ؟ لا ، إنه الحق سبحانه لا يكلف إلا بما فى الوسع ، والناس قد تخطىء الفهم لقوله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » فيقول العبد : أنا غير مستطيع أن أقوم بذلك التكليف ، ويظن هذا العبد أن التكليف يسقط عنه . لا ، إن هذا فهم خاطىء ؛ إن قوله الحق : « فاتقوا الله ما استطعتم » أى إنك تتقى الله بما كان فى استطاعتك من الوسع ، فما باستطاعتك أن تقوم به عليك أن تقوم به . فلا يهرب أحد إلى المعنى المناقض ويقول : أنا غير مستطيع ؛ لأن الله يعلم حدود استطاعتك .

وساعة تكون غير مستطيع فهو ـ سبحانه ـ الذى يخفف . . إنك لا تخفف أنت على نفسك أيها العبد ، فالخالق الحق هو الذى يعلم إذا كان الأمر خارجا عن

استطاعتك أو لا ، وساعة يكون الأمر خارجًا عن استطاعتك فالله هو الذى يخفف عنك . ولذلك فعلى الإنسان ألا يستخدم القول الحق :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

فى غير موضعه ؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يقدر الوسع ، ثم يبنى التكليف على الوسع . بل عليك أن تفهم أيها الإنسان أن الله هو الذى خلق النفس ، وهو الذى أنزل التكليف لوسع النفس ، ومادام الخالق للنفس هو الله فهو العليم بوسع النفس حينما قرر لها المنهج . إنه سبحانه الذى كلف ، وهو العليم بأن النفس قد وسعت ، ولذلك فهو لا يكلف نفسا إلا وسعها . فإن كان سبحانه قد كلف فأعلم أيها العبد أنه سبحانه قد كلف بما فى وسعك ، وعندما يحدث للإنسان ما يشق عليه أو يمنعه من أداء ما كلف به تامًّا فهو ـ سبحانه ـ يضع لنا التخفيف وينزل لنا الرخص . مثال ذلك : المريض أو الذى على سفر ، له رخصة الإفطار فى رمضان ، والمسافر له أن يقصر الصلاة .

إذن فالله سبحانه هو الذى علم حدود وسع النفس التى خلقها ، ولذلك لا تقدر وسعك أولا ثم تقدر التكليف عليه ، ولكن قَدِّر التكليف أولا ، وقل : مادام الحق قد كلف فذلك فى الوسع . وفى تذييل الآية الكريمة بقوله : « ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » نجد أنفسنا أمام نهى عن فعل وهو : عدم الموت إلا والإنسان مسلم .

كيف ذلك ؟ أيقول لك أحد : لا تمت ؟ إن ذلك الأمر ليس لك فيه اختيار ؛ لأنه أمر نازل عليك . فإذا قيل لك : لا تمت ، فإنك تتعجب ؛ لأن أحدا لا يملك ذلك ، ولكن إذا قيل لك : لا تمت إلا وأنت مسلم ، فأنت تفكر ، وتصل بالتفكير إلى أن الفعل المنهى عنه : لا تمت ليس فى قدرة الإنسان ، ولكن الحال الذى يقع عليه الفعل وهو : إلا وأنت مسلم ، فى قدرة الإنسان ؛ لذلك تقول لنفسك : إن الموت يأتى بغير عمل منى ، ولكن كلمة : إلا وأنت مسلم ، فهى باستطاعتى ، لأن الإسلام يكون باختيارى . صحيح أنك لا تعرف متى يقع عليك الموت ؟ ولذلك تحتاط والاحتياط يكون بأن تظل مسلما حتى يصادفك الموت فى أى لحظة وأنت مسلم .

إذن .. فقول الله : « ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » هو نهى عن الفعل الأول وهو ليس باختيارنا . والحال الذى لنا فيه اختيار هو « وأنتم مسلمون » فكيف نوفق بين الأمرين ؟ إن الموت لا اختيار لأحد فيه ، ولا يعلم أحد منا متى يقع عليه ، ولذلك نأتى إلى الأمر الذى لنا فيه اختيار ، وهو أن نحرص على أن نكون مسلمين ، ويظل كل منا متمسكا بأهداب الإسلام ، فإن صادف الموت فى أى لحظة يكون مسلما وكأن الحق سبحانه يقول لنا : تمسكوا بإسلامكم ؛ لأنكم لا تدرون متى يقع عليكم الموت .

وإخفاء الموت عن الإنسان ليس إبهاما كما يظن البعض ، لا ؛ إنه منتهى البيان الواسع ؛ لأن إخفاء الموت ، وميعاده عن الإنسان زمنا وحالا ، وسنا وسببا ، كل ذلك يوضح الموت أوضح بيان . لماذا ؟ لأن الله حين استأثر بعلم الموت فالإنسان منا يترقب الموت فى أى لحظة ومادام الإنسان مترقبا للموت فى أى لحظة فهذا بيان واسع بل هو أوسع بيان . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا
وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ
قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا
حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

جاء هذا القول الكريم لينبه كل المؤمنين ، من خلال التنبيه للأوس والخزرج ، وكأنه يقول : اعلموا أن التفاخر قبل الإسلام كان لأشياء وبأشياء ليست من الإسلام

فى شىء . لكن حين يجىء الإسلام فالتفاخر يكون بالإسلام وحده فإذا ما تغاضى إنسان بما قبل الإسلام بقوله : منا كذا . . ومنا كذا . فهنا يأتى الردّ : لا ؛ إن ذلك قبل الإسلام .

وقد حدث أن قال الأوس من بعد الإسلام : « منا خزيمة » فقال واحد من الخزرج : ومنا أبيّ بن كعب وزيد بن ثابت فقال واحد من الأوس : منا حنظلة ابن الراهب وحنظلة هذا هو غسيل الملائكة ، وخزيمة بن ثابت صحابى جليل جعل الرسول صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادتين ؛ لأن خزيمة صاحب إيمان نورانى . ونورانية اليقين هدته إلى الحكم الصواب ؛ فقد اشترى النبى صلى الله عليه وسلم فرسا من أعرابى وذهب ليحضر له الثمن ، ولكن الأعرابى أنكر البيع لأن بعض الناس زاده فى ثمن الفرس دون علم أن الرسول قد اشتراه فنادى الأعرابى الرسول وقال له إن كنت مبتاعا هذا الفرس فابتعه وإلا بعته .

فقال النبى للرجل : « ألست قد ابتعته منك » . فقال الرجل هات شاهدا يشهد بذلك . لقد انتهز الرجل فرصة أن النبى ابتاع منه دون وجود أحد فى هذا الوقت ، وكان سيدنا خزيمة جالسا لحظة مطالبته للنبى بشاهد . فقال سيدنا خزيمة : أنا أشهد يا رسول الله أنك قد بايعته .

ولأن الرجل كاذب ، قال لنفسه : لعل خزيمة رآنا وأنا أبيع الفرس للنّبى فسكت الرجل وانصرف ، وبعد أن انصرف الرجل نادى الرسول خزيمة . وقال له : « يا خزيمة بم تشهد ولم تكن معنا ؟» فقال : أنا أصدقك فى خبر السماء ولا أصدقك بما تقول ؟ أعلم أنك لا تقول إلا حقاً قد آمناك على أفضل من ذلك ، على ديننا . فعلم الرسول أن لخزيمة نورانية التصديق وحسن الاستنباط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من شهد له خزيمة فحسبه »[1] .

فالأمر الذى يحتاج شاهدين تكفى فيه شهادة خزيمة ، وبذلك أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم الوسام لخزيمة وجعل شهادته شهادة رجلين ، ولنر كيف جمع الله بين الأوس والخزرج فى جمع القرآن ، قال زيد بن ثابت :

(١) رواه أبو داود من طريق الزهرى عن عُمارة بن خزيمة بن ثابت .

فآليت على نفسى ألاَّ أكتب آية إلاَّ إذا وجدتها مكتوبة وشهد عليها اثنان ، إلاَّ آخر التوبة فوجدتها مكتوبة ولم يشهد عليها إلاَّ خزيمة ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال فى خزيمة : « من شهد له خزيمة فحسبه » ولنا أن نعرف أن زيد بن ثابت من الخزرج وأن خزيمة من الأوس . لقد جمعهما الله فى جمع القرآن ، فنفع الأوسى الخزرجى ، وذلك ليدلنا الحق سبحانه دلالة جديدة ، وهى أن التفاخر قبل الإسلام كان بغير الإسلام ، لكن ساعة يجىء الإسلام فأى واحد من أى جنس مادام قد أحسن الإسلام ، فله أن يفخر به ، فإياك يا أوسىّ أن تقول : « منا خزيمة » ؛ فالخزرجى له الفخر بخزيمة أيضا ، وليس للخزرجى أن يقول : « منا زيد بن ثابت » فللأوسى أيضا أن يفخر به ، لأن كُلًّا منهما قد جمعه الله بالآخر فى القرآن ، والإسلام ، وهكذا يكون الاعتصام بحبل الله .

يقول الحق سبحانه وتعالى : « واعتصموا بحبلِ الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم » إنّ الحرب ظلت مستعرة بين الأوس والخزرج مائة وعشرين عاما مع أن أصل القبيلتين واحد ، هما أخوان لأب وأم وعندما جاء الإسلام ألف الله بين قلوبهم وأصبحوا بنعمته إخوانا .

وهذا يدلنا على أن كل نزغةِ جارحةٍ من الجوارح لابد أن يكون وراءها هبة قلب وثورته وهياجه ، فاليد لا تصفع أحدا من فراغ ، ولكن الصفعة توجد فى القلب أولا « فألف بين قلوبكم » ، إن الحق سبحانه يقول : « وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » والشفا هى الحافة.ومرة يقال : « شفا » ، ومرة يقال:« شفة » . لقد كانوا على حافة النار ، ومن كان على الحافة فهو يوشك أن يقع ، فكأن الله يقول : لقد تداركتم بالإسلام ، ولولا الإسلام لهويتم فى النار .

ويقول سبحانه : « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » وهكذا نرى نعمة الإسلام فى الدنيا ، فقدرة الإيمان على إنقاذ الإنسان من النار لا تحتاج إلى انتظار بل يستطيع المؤمن أن يراها فى الدنيا . ولقد كان العرب قبل الإسلام مؤزقين بالاختلافات ، وموزعين بالعصبية ، وكل يوم فى شقاق . ولما جاء الإسلام صاروا إخوانا ، وهذه نعمة عاجلة فى الدنيا ، والدنيا كما نعرف ليست دار جزاء ، فما بالك بما يكون فى الآخرة وهى دار الجزاء والبقاء .

وقوله الحق : « لعلكم تهتدون » المقصود به أن تظلوا على هدايتكم . لقد خاطبهم الحق : « إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » وساعة يطلب التشريع منك ما أنت عليه ، فاعلم أن التشريع يريد منك استدامته ، فعندما يقول الحق (يا أيها الذين آمنوا) أى مع الإيمان الذى معكم قبل كلامى ، جددوا إيمانا بعد كلامى ليستمر لكم الإيمان دائما . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

وكلمة « أمة » تطلق مرة ، ويراد بها الجماعة التى تنتسب إلى جنس ، كأمة العرب ، أو أمة الفرس ، أو أمة الروم ، ومرة تطلق كلمة « أمة » ويراد بها الملة أى الدين ، ومرة ثالثة تطلق كلمة « أمة » ويراد بها الفترة الزمنية كقول الحق :

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة يوسف)

إن الرجل الذى فسر له سيدنا يوسف الرؤيا تذكر سيدنا يوسف بعد أمة أى بعد فترة من الزمن ، ومرة تطلق كلمة « أمة » على الرجل الجامع لصفات الخير :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

(سورة النحل)

لأن خصال الخير ليس من الضرورى أن تجتمع فى واحد ، ولكنها قد تجتمع فى عدد من الأفراد فيكون هناك فلان المتميز بالصفة الطيبة ، وغيره متصف بصفة أخرى طيبة ، وثالث فيه صفة طيبة ثالثة ، ومن مجموع الأمة تظهر صورة الكمال ، لكن إبراهيم عليه السلام اجتمعت فيه كل خصال الخير المكتمل .

وساعة أن تأتى لإنسان وتقول له : ليكن منك شجاع فما معنى ذلك ؟ إن معناه ، أن يجرد الإنسان من نفسه ويخرج منها شخصا شجاعا ، وذلك بتدريبها وتعويدها على ذلك حتى يكون الإنسان شجاعا ، أو تقول لآخر : ليكن منك كريم ، أى أخرج من نفسك رجلا كريما .

وقوله الحق سبحانه : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير » .

هذا القول يعنى أن يكون منكم أيها المخاطبون أمة تدعو إلى الخير ، ومعناه أيضا أن تكونوا جميعا أمة تدعو إلى الخير ، وبعض العلماء يرى أن هذا القول يعنى : أن تكون منكم جماعة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . ولكنّ هناك فهما أعمق من هذا ، وهو أن هذه الآية تأمر بأن تكون كل جماعة المسلمين أمة تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، أى أن هذه الآية تطالب كُلَّ أمة المسلمين بذلك ، فلا تختص جماعة منها فقط بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بل الواجب أن تكون أمة المسلمين كلها آمرة بالمعروف ، وناهية عن المنكر ، فمن يعرف حكما من الأحكام عليه أن يأمر به .

وهناك من العلماء من قال : إن الذى يأتى المنكر له حكم آخر أيضا وهو أن ينهى غيره عن المنكر ، أى أن الإنسان المؤمن مطالب بأمرين : الأول : ألاّ يصنع المنكر ، والثانى : أن ينهى عن المنكر . ولذلك إن جاء نصح من إنسان ينهاك عن المنكر ، وهو قد فعله ، فلا تقل له : أصلح نفسك واتبع أنت ما تنصح به أولا ، لا تقل له ذلك حتى لا يقول لك ما قاله الشاعر :

خـذ بعلمى ولا تـركن إلى عمـلى
واجن الثمـار وخـل العـود للنـار

لكن الأجدر بمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يكون أول العاملين بقوله حتى لا يدخل فى زمرة من قال الله فيهم :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾

(سورة الصف)

إذن فقوله الحق : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير » أى جردوا من أنفسكم أمة مجتمعة على أنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، واستمعوا إلى قوله تعالى :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝ ﴾

(سورة العصر)

إن السورة الكريمة توضح العقيدة ومطلوبها وهو الإيمان والعمل الصالح . وبعد ذلك قال الحق : « وتواصوا » ولم يقل « ووصوا » ما معنى « تواصوا » ؟ أى أن يعرف كل مؤمن أنه من الأغيار ، وكذلك أخوه المؤمن ، وقد يضعف أحدهما أمام معصية فيصنعها ، لكن الآخر غير ضعيف أمام تلك المعصية ، لذلك يكون على غير الضعيف توصية الضعيف ، وعلى الضعيف أيضا ضرورة الانتباه حتى يتواصى مع غيره . فالإسلام لم يجعل جماعة يوصون غيرهم ، وجماعة أخرى تتلقى الوصاية ، بل كلنا موص - بكسر الصاد - حينما نجد مَنْ من يضعف أما معصية . وكلنا موصًى ، - بفتح الصاد - حين يكون ضعيفا أمام المعصية ؛ فالتواصي يقتضى التفاعل بين جانبين . . فمرة تكون موصيا ، ومرة تكون موصًى ، وكذلك التواصي بالصبر .

فساعة تحدث كارثة لواحد من المسلمين يأتى أخوه ليصبره ، وكذلك إن حدثت كارثة للأخ المسلم يصبره أخوه المسلم ، فعندما يحتاج مسلم فى وقت ما إلى أن يُصَبَّر ، يجد من إخوته من يصبره ، فالأمة كلها مطالبة : « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

هكذا نفهم معنى قول الحق« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . والدعوة إلى الخير يفسرها الحق بأن يأمر الإنسان بالمعروف ، وأن ينهى عن النكر .

ويقول الحق : « وأولئك هم المفلحون » أن كلمة « المفلحون » هى كلمة معها دليلها ، فالمفلح هو الذى أخذ الصفقة الرابحة . والكلمة مأخوذة ، من فلح الأرض . فالذى يفلح الأرض ويحرثها ثم يزرعها يجد الثمرة تجيئه فى النهاية ، وقد جاء الحق بالمسألة المعنوية من أمر محس . وبعد ذلك يريد الحق أن يعطينا شيئا آخر

فيقول : إياك أن تظن أن المشقة التى تصيبك حين تفعل خيرا لا تعود عليك بالراحة ، أو أن النقص الذى تفعل به الخير لا يعود عليك بالكمال ، فمثلا الإنسان الذى فلح الأرض وأخرج « كيلة » من القمح وبذرها فيها . هذا الإنسان قد تكون له زوجة حمقاء تقول له : إننا لا نملك إلا أربع « كيلات » من القمح فكيف تأخذ « كيلة » لترميها فى الأرض ، إن هذه المرأة لا تعرف أن « الكيلة » التى أخذها الزوج هى التى ستأتى بعدد من الأرادب من القمح . فإياك أن تفهم أن الإسلام يأخذ منك شيئا إلا وهو يريد أن يعطيك أشياء .

إن الفلاح الذى يشقى بالحرث وبالرى ، وتراه وقد علا جبهته العرق وتراب الأرض وتغوص أقدامه فى الطين والمياه ، إنك تراه يوم الحصاد وهو فرح مسرور بغلته . أما غيره الذى لم يشْقَ بالحرث ولم تعل جبهته حبات العرق ، فيأتى فى هذا اليوم وهو حزين ونادم.فإياك أن تنظر إلى تكاليف الدين على أنها أمور تحرمك النفع ، إنها أمور تربّب لك النفع أى تكثر لك النفع . وإياك أن تظن أن حكما من أحكام الله قد جاء ليجور على حريتك بل جاء ليمنع عنك اعتداء الآخرين .

وقلنا من قبل : إن الشرع حين كلف كل إنسان ألا يسرق مال أحد ، فهو تقييد من أجل حفظ أموال الملايين ، وهو أمر ضمنى لكل الناس ألاّ يسرقوا شيئا من هذا الإنسان ، وهنا نجد الأمان ينتشر بالإيمان بين الجميع .

ولو نظرت إلى ما منع الدين الناس أن يمارسوه معك لعرفت قيمة التكاليف الإيمانية . إن التكليف حين يأمر ألا يمد أحد عيونه إلى محارم جاره ، هذا التكليف صادر للناس جميعا حتى يحمى الله لك محارمك من عيون الناس ، لقد. قَيَّد التكليف حرية الآخرين من أجلك وهم كثيرون ، وقيد حريتك من أجل الآخرين وأنت واحد . .

إذن فيجب أن نذكر أن كل تكليف يعطى صلاحا وفلاحا ، فالأرض تأخذ الحبة ، وتعطيك سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ،فلا تنظر إلى ما أخذه التكليف من حريتك ، لأنه أخذ لك من حريات الآخرين أيضا . ولا تقل : إن التكليف قد نقص حركتى لنفسى ، لأنه سيعطيك ثمرات أكثر مما أفقدك .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾

وهذا القول الحكيم ينهى عن اتباع الهوى الذى يؤدى إلى الفرقة . برغم وضوح آيات الحق سبحانه لهم ، لأن هؤلاء الذين يتبعون الهوى من بعد وضوح قضية الحق سيصليهم الله النار ، ولهم عظيم العذاب . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

وهنا يجب أن نعلم أن الاسوداد والابيضاض هما من آثار اختلاف البيئات فى الدنيا ، فالشخص الأسود يزيد الله فى تكوينه عن الشخص الأبيض بما يناسب البيئة ، لأن المادة الملونة للبشرة فى جسده موجودة بقوة ، لتعطيه اللون المناسب لمعايشة ظروف البيئة ، أما أبيض البشرة فلا يملك جسده القدر الكافى من المادة الملونة ، لأن بيئته لا تحتاج مثل هذه المادة الملونة .

إذن فالسواد فى الدنيا لصالح المسود ، أما فى هذه الآية ، فهى تتحدث عما سوف نراه فى الآخرة حيث يكون السواد والبياض مختلفين ، تماما كما تتبدل الأرض غير

الأرض والسموات غير السموات ، وكذلك يتبدل أمر السواد والبياض ، انه لن يكون سواداً أو بياضا من أجل البيئات . ولذلك ستتعجب يوم القيامة ؛ لأنك قد ترى إنسان كانا أسود فى الدنيا ، وتجده أبيض فى الآخر ، وتجد إنسانا آخر كان لونه أبيض فى الدنيا ثم صار أسود فى الآخرة .

فلا يظن ظان أن الإنسان الأسود فى الدنيا مكروه من الله ، لا ، إن الله يعطى كل واحد ما يناسبه ، بدليل أن الله قد أمده باللون الذى يقويه على البيئة التى يحيا فيها . وفى مجالنا البشرى ، نحن نعطى المصل لأى إنسان مسافر إلى مكان ما ، حتى تحميه من شر مرض فى المكان الذى يذهب إليه ، كذلك خَلْقُ الله فى الأرض فقد أعطى سبحانه لكل إنسان فى تكوينه المناعة التى تحفظه ؛ فالله لا يكره السواد لأنه حماية للإنسان من البيئة . وهذه المسألة ستتبدل يوم القيامة كما تتبدل الأرض غير الأرض ، وتبيض الوجوه المؤمنة ، وتسود الوجوه الكافرة .

أو أن البياض والسواد كليهما ، أمر اعتبارى ، بدليل أنك ترى واحدا أبيض ولكن وجهه عليه غبرة ترهقه قترة ، وترى واحداً آخر أسود اللون ، ولكن نور اليقين يملأ وجهه ، وبريق الصلاح يشع منه ، وأنت لا تقدر أن تمنع عينيك من أن تديم النظر إليه ، ولذلك قال الحق :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة القيامة)

أى أن ما فى داخل النفس إنما ينضح على قالب الإنسان ؛ وتظهره ملامحه ، فقد يكون الأسود مضىء الوجه بالبشر والإشراق والتجلى بالجاذبية الآسرة ، وقد يكون الإنسان أبيض الوجه لكنه مظلم الروح .

وهكذا نفهم أن اسوداد بشرة إنسان فى الدنيا ، إنما هو لمساعدة الإنسان على التواؤم مع البيئة ، ومثال ذلك سواد العين وبياضها ، هل يستطيع أحد أن يقول : إن بياض العين أحسن من سوادها ؟ أو العكس ؟ . لا ؛ لأن كل شىء معد لمهمته .

ومثال آخر : عندما يأتى عامل البناء ليثنى عمود الحديد المستقيم ؛ ويلويه ، فهل

يقال : إن هذا الإنسان قد عوج الحديد ؟ . لا ؛ إنه يريد أن يشكل عود الحديد ليكون صالحا لمهمة معينة . وكذلك الاسوداد أو الابيضاض فى الدنيا ، إنما أراده الله ليتناسب مع ظروف الحياة فى البيئة ، أما فى الآخرة فالدنيا قد زالت وفنيت ، والأرض لن تكون هى الأرض والسماء لن تكون هى السماء ؛ فالحق يقول :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

فالمؤمن حين يرى ما أعده الله له من النعيم المقيم يقابل عطاء الله باستشراف نفس وسرور وانبساط ، أما الذى يرى مقعده من النار فلابد أن يكون مظلم الوجه . والحق سبحانه يوجه سؤالا لهؤلاء : « أكفرتم بعد إيمانكم » أو كأن هذا أمر يُفاجىء من كان يعرف هؤلاء الناس فى الدنيا ؛ فقد رأوهم فى الدنيا بيض الوجوه ، ولكن يرونهم يوم القيامة وعلى وجوههم غبرة سوداء وترهقهم قترة ، فيقولون لهم : « أكفرتم بعد إيمانكم »؟ . وكأن ذلك هو سمة من يكفر بعد الإيمان . هذه هى سمتهم وعلامتهم فى الآخرة أى ما الذى صيركم إلى هذا اللون ؟ إنه الكفر بعد الإيمان .

فمن هم الذين كفروا بعد الإيمان ؟

هذا يعنى أن الإيمان قد سبق ثم طرأ على الإيمان كفر ، وماتوا على ذلك الكفر ، وهذا قول ينطبق على الذين ارتدوا عن الإسلام مثل ابن الأسلت وغيره ، وهؤلاء كفروا بعد الإيمان . أو يكون « أكفرتم بعد إيمانكم » يجعلنا نقول : البعدية هنا لابد أن يكون لها قبلية : ألم يأخذ الله على خلقه عهدا فى عالم الذر حين استخرجهم من ظهر آدم ؟ وقال سبحانه :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

إنه إقرار إيمانى موجود فى عالم الذّر ، فمن جاء فى الواقع لينقض هذه المسألة فقد كفر بعد إيمان . أو أكفرتم بعد إيمانكم بمحمد ، بعد أن جاءتكم به البشارات التى

عرفتموها ، وقرأتموها فى التوراة والإنجيل ، وقد تأكدتم أنه قادم لا محالة ، وأنه رسول هذه الأمة وخاتم الرسل ، وانطبق عليكم قول الحق :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

إذن فهذا القول ، إما أن يكون فى المرتدين ، وإما أن يكون الكفر فى واقع الدنيا بعد الإيمان فى عالم الذر عندما أخذ الله العهد على الناس جميعا ، أو يكون الكفر بعد الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاءت به البشارة فى التوراة والإنجيل ، أو يكون ذلك من أهل الأهواء الذين أخذوا الدين وجعلوه شيعا ، كالفرق التى خرجت عن الإسلام ، وهى تدعى الانتساب إليه كالبهائية والقاديانية وغيرها . إن الآية تحتمل كل هذا ، وعندما نمعن النظر إلى النص القرآنى نجده يستوعب كل هذه المعانى .

وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه أورد فقط : « أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » وهذا قول يختص بالكفار فقط يذوقون العذاب بسبب الكفر ، وذلك يعنى أن المؤمن بإيمانه سينال ثواب عمله . يقول تعالى :

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

ولنلاحظ دائما أن الله حين يبين جزاءً لمؤمن على إيمانه وطاعته فسبحانه يقول مرة :

﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأعراف)

ومرة أخرى يقول :

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

ما الفرق بين الاثنين ؟ إن الناس فى العبادة صنفان : منهم من يعبد الله ويريد نعيم الجنة ، فيعطيه الله الجنة جزاء لعبادته ولعمله الصالح . وآخر يعبد الله ؛ لأن الله يستحق العبادة ولا تمر الجنة على باله ، وهذا ينال ذات الرحمة ، إنه ينال لقاء وجه الله .

وما الفرق بين الجنة والرحمة ؟ إن الجنة مخلوقة لله ، فهى باقية بإبقاء الله لها ، ولكن الرحمة باقية ببقاء الله ، وهذا ضمان كاف ، فمن يرى الله فيه حسن العبادة لذاته ـ سبحانه ـ يضعه الله فى الرحمة .

وقلنا من قبل : إن هناك جنة من الجنات اسمها « عليّون » ليس فيها متعة من المتع التى سمعنا عنها فى الجنة ، كلحم الطير وغير ذلك ، وليس فيها إلا أن ترى الله . ومادام العبد لا يأكل عن جوع فى الآخرة ، فما الأفضل له ، جنة المتع ، أو متعة رؤية وجه الله ؟

أتتمتع بالنعمة أم بالمنعم ؟ لا جدال أن التمتع برؤية المنعم أرقى وأسمى من التمتع بالمتع الأخرى . والدقة الأدائية فى القرآن توضح لنا أن الرحمة تكتنف هؤلاء العباد الصالحين ، وتحيط بهم ، إنهم ظرف للرحمة وداخلون فيها فلا تمسهم الرحمة فقط ، ولكن تحيط بهم ، وهم خالدون فيها ، ويؤكدها الحق بظرفية جديدة بقوله: « هم فيها خالدون » فكأن هناك رحمة يُدخل فيها العباد ، ثم يطمئننا على أنها لا تُنزع منا أبدا . فـ « فيها » الثانية للخلود ، « وفى » الأولى للدخول فى الرحمة .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

إن آيات الله هى حججه وبراهينه وجزاءاته ، فمن اسود وجهه يوم القيامة نال العذاب ، ومن ابيض وجهه نال الرحمة وهو فيها خالد « تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق » ، فما الذى يجعل إنسانا لا يخبر بالحق ؟ لابد أن هناك داعيا عند ذلك الإنسان ، فلِأنّ الحق يُتعبه ، فهو يخبر بغير الحق . لكن هل هناك ما يتعب الخالق ؟ لا ؛ فسبحانه وتعالى منزه عن ذلك وعن كل نقص أو عيب إذن فلابد ألاّ يقول إلا الحق ، فلا شيء خارج عن ملكه بعد ذلك . يقول سبحانه : « وما الله يريد ظلما للعالمين » . إنه سبحانه ينفىْ الظلم عن نفسه كما قال :

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة فصلت)

والحق لا يريد الظلم على إطلاقه ، من نفسه ومنكم أنتم أيها العباد . وكيف يأتى الظلم ؟ إن مظاهر الظلم هى ـ كما نعرف ـ أن تأخذ إنسانا بغير جرم . . هذا ظلم ، أو أن تعاقب إنسانا فوق الجرم . . هذا ظلم . أو ألا تعطى إنسانا مستوى إحسانه . . هذا ظلم . وماذا يفعل من يقوم بالظلم ؟ إنه يريد أن يعود الأمر بالنفع له ، فإن كان يريد أخْذَ إنسانٍ بغير جرم فهو يفعل ذلك ليروى حقدا وغلا فى نفسه ، وقد يلفق لإنسان جرما ؛ لأنه يرى أن هذا الإنسان قد يهدده فى أى مصلحة من المصالح ، وهو يعلم انحرافه فيها ، فيعتقله مثلا ، أو يضعه فى السجن حتى لا يفضحه .

إذن لا يمكن أن يذهب إنسان عن الحق إلى الظلم إلا وهو يريد أن يحقق منفعة أو يدفع عن نفسه ضررا ، والله لن يحقق لذاته منفعة بظلم ، أو يدفع ضررا يقع من خلقه عليه ؛ إنه منزه عن ذلك ؛ فهو القاهر فوق عباده . والحديث القدسى يقول : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى . وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا »[1] .

(١) رواه أحمد فى المسند ، ورواه مسلم فى البر .

والظالم من البشر جاهل . لماذا ؟ لأنه قوّى الذى ظلمه ، ولم يضعفه ، فالظالم يظلم ليضعف المظلوم أمامه ، فنقول له : أنت غبى ، قليل الذكاء ؛ لأنك قويته على نفسك وفعلت عكس ما تريد . ولنوضحْ ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ نحن جميعا عيال الله ، سننتقل إلى دائرة حياتنا اليومية ونرى عيالنا ، إن الواحد منا عندما يكون له أولاد ، وجاء ولد من الأولاد وظلم أخاه فَقَلْبُ الوالد يكون مع المظلوم ، ويحاول الوالد أن يترضَّى ابنه المظلوم . إذن فالولد الظالم ضر أخاه ضررا يناسب طفولته ، ولكنه أعطاه نفعا يناسب قوة والده ، إنه يجهل حقيقة تقويته لأخيه .

ومادمنا جميعا عيال الله فماذا يفعل الله حين يرى سبحانه واحدا من خلقه يظلم آخر من خلقه ؟ لا بد أن الحق سيشمل المظلوم برعايته ، وهكذا يقوى الظالم المظلومَ ، والظالم بذلك يعلن عن غبائه ، فلو كان ذكيا ، لما ظلم ، ولضنّ على عدوه أن يظلمه ، ولقال : إنه لا يستأهل أن أظلمه ؛ لأنه عن طريق ظلمى له سيعطيه الله مكافأة كبرى ، وهى أن يجعله فى كنفه ورعايته مباشرة .

وقد نجد واحدا يظلم من أجل نفع عاجل ، وينسى هذا الإنسان أنه لن يشرد أبدا ممن خلقه . ونقول لمثل هذا الإنسان : أنت لن تشرد ممن خلقك ، ولكنك شردت من المخلوق وداريت نفسك ، وحاولت أن تحقق النفع العاجل لنفسك ، لكن الخالق قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم . وكأن الحق سبحانه يطمئننا بأن ننام ملء جفوننا لأنه سبحانه لا تأخذه سنة ولا نوم .

« وما الله يريد ظلما للعالمين » لأن الظلم لا ينشأ إلا عن إرادة نفعية بغير حق ، أو إرادة الضرر بغير جرم ، والله غنى عن ذلك ؛ ولذلك نجد الحق يؤكد غناه عن الخلق وأنه مالك للكون كله فيقول :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ ﴾

إنه مالك الملك ، كل شيء له وبه وملكه ، وإليه يُرجع كل أمر . ونحن نعلم أن القرآن الكريم قد نزل من عند الله بقراءات متعددة وقد ورد وفى بعضها (تَرجعُ الأمور) بفتح التاء بالبناء للفاعل ، وفى قراءة أخرى : « ترجع الأمور » بضم التاء بالبناء للمفعول ، وكذلك (ترجعون) تأتى أيضا بضم التاء وفتحها ، وكلها - كما قلنا - قراءات من عند الله .

وعندما يقول الحق : « وإليه تَرجعون » بفتح التاء فمعنى ذلك أننا نعود إليه مختارين ؛ لأن المؤمن يُحبُّ ويرغب أنْ يصل إلى الآخرة ، لأن عمله طيب فى الدنيا ، فكأنه يجرى ويسارع إلى الآخرة ، ومرة يقول تعالى : « وإليه تُرجَعون » بضم التاء . وهذا ينطبق على الكافر أو العاصى . إنّ كُلاًّ منهما يحاول ألا يذهب إلى الآخرة ، لكن المسألة ليست بإرادته ، إنه مقهور على العودة إلى الآخرة ولذلك نجد التعبير القرآنى :

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ ﴾

(سورة الطور)

هناك من يدفعهم إلى النار دفعا . وفى حياتنا - ولله المثل الأعلى - نجد الشرطى يمسك بالمجرم من ملابسه ويدفعه إلى السجن . . ذلك هو الدع . وهكذا يكون قول الحق : « وإليه تُرجَعون » بضم التاء وفتح الجيم ، أى أنه مدفوع بقوة قاهرة إلى النهاية . أما المؤمن الواثق فهو يهرول إلى آخرته مشتاقا لوجه ربه .

وعندما تقرأ « وإلى الله تُرجع الأمور » . قد يقول قائل : ومتى خرجت الأمور منه حتى ترجع إليه ؟ ونقول : حين خلق الله الدنيا ، خلقها بقهر تسخيرى لنفع الإنسان ، وجعل فيها أشياء بالأسباب ، فإن فعل الإنسان السبب فإنه يأخذ المسبب - بفتح الباء - المشددة ، فالشمس تشرق علينا جميعا ، والضوء والدفء والحرارة ، هى - بأمر الله - للمؤمن والكافر معا ، ولم يصدر الله لها أمرا أن تختص المؤمن وحده بمزاياها ، والهواء لا يمر على المؤمن وحده ، إنما يمر على المؤمن والكافر ، وكذلك الماء ، والأرض يزرعها الكافر فيأخذ منها الثمار ، ويزرعها المؤمن كذلك .

إذن ففى الكون أشياء تسخيرية ، وهى التى لا تدخل فيها طاقة الإنسان ، وهناك

أشياء سببية ، فإن فعلت السبب يأت لك المسبب ، والله قد جعل الأسباب للمؤمن والكافر . وعندما يُمَلِّك الله بعض الخلق أسباب الخلق فهو القيوم فوق الجميع ، لكن فى الآخرة ، فلا أسباب ولا مسببات ؛ ولذلك يكون الأمر له وحده ، اقرأوا جيدا :

﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

إنّ فى الدنيا أناسا ـ بإرادة الله ـ تملك أسبابا ، وتملك عبيدا ، وتملك سلطانا ؛ لأن الدنيا هى دنيا الأسباب . أما فى الآخرة فلا مجال لذلك . لقد بدأت الدنيا بأسبابها مِنَّة منه ، ورجعت مِنَّهُ إليه « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » ومن يعتز بالسببية نقول له : كن أسير السببية لوكنت تستطيع . ومن يعتز بالقوة لأنها ـ ظاهرا ـ سبب للحركة ، نقول له : احتفظ بقوتك إن كنت قادرا . ومن يعتز بالملك نقول له : لتحتفظ بالملك لوكنت تستطيع . ولا أحد بقادر على أنْ يحتفظ بأى شىء ، فكل شىء مرده إلى الله ، وإن كان فى ظاهر الأمر أن بعض الأشياء لك الآن ، وفى الآخرة لله يكون كل أمر ، ويرجع إليه كل شىء ، لقد بدأت به ، ورجعت إليه . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

هذه الخيرية لها مواصفات وعناصر : « تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر

وتؤمنون بالله » . فإن تخلف عنصر من هذه العناصر ، انحلت عنكم الخيرية ، فالخيرية لكم بأشياء هى : أمر بالمعروف . نهى عن المنكر . إيمان بالله .

وساعة تسمع كلمة « معروف » و« منكر » فإنك تجد أن اللفظ موضوع فى المعنى الصحيح ، فـ « المعروف » هو ما يتعارف الناس عليه ويتفاخرون به ، ويَسُرُّ كل إنسان أن يعرفه الآخرون عنه . و« المنكر » هو الذى ينكره الناس ويخجلون منه ، فمظاهر الخير يحب كل إنسان أن يعرفها الآخرون عنه ، ومظاهر الشر ينكرها كل إنسان .

إن مظاهر الخير محبوبة ومحمودة حتى عند المنحرف ، ومظاهر المنكر مذمومة ومكروهة حتى عند المنحرف . فاللص نفسه عندما يوجد فى مجلس لا يعرفه فيه أحد ، ويسمع أن فلانًا قد سرق فإنه يعلن استنكاره لفعل اللص ، إنه أمر منكر ، حتى وإن كان هو يفعله . وهكذا تعرف أن « المعروف » و« المنكر » يخضعان لتقدير الفطرة . والفطرة السليمة تأتى للأمور الخيرة ، وتجعلها متعارفا عليها بين الناس ، وتنكر الفطرة السليمة الأمور المنكرة ، حتى ممن يفعلها .

ويورد الله مسألة الإيمان بالله من بعد الأمر بالمعروف والنهى المنكر ، لماذا ؟ لأنه من الجائز أن يوجد إنسان له صفات الأريحية والإنسانية ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويصنع الخير ، ويقدم الصدقات ، ويقيم مؤسسات رعاية للمحتاجين والعاجزين سواء كانت صحية أو اقتصادية ، لكنه يفعل ذلك من زاوية نفسه الإنسانية ، لا من زاوية منهج الله ، فيكون كل ما فعله حابطا ولا يُعتَرفُ له بشىء لأنه لم يفعل ذلك فى إطار الإيمان بالله ، ولذلك فلا تظن أن الذى يصنع الخير دون إيمان بالله له أجر عند الله ؛ فالله يجازى من كان على الإيمان به ، وأن يكون الله فى بال العبد ساعة يصنع الخير . فمن صنع خيرا من أجل الشهامة والإنسانية والجاه والمركز والسمعة فإنه ينال جزاءه ممن عمل له ، ومادام قد صنع ذلك من أجل أن يقال عنه ذلك فقد قيل ، وهو ما بيّنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله :

« إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال : ما عملتَ فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ،

ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب . ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها فقال : ما عملت فيها قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن ، قال:كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : قارىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت فى سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقتُ فيها . قال : كذبت ولكنك فعلت ليُقال:هو جواد ، فقد قيل ، ثم أمر فسحب على وجهه ثم ألقى فى النار »(١) .

إنه ينال جزاء عمله من قول الناس ، لكن الله يجازى فى الآخرة من كان الله فى باله ساعة أن عمل . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة فصلت)

إن المؤمن يفعل العمل الصالح ، ويعلن أنه يفعل ذلك لأنه من المسلمين ، إنه لا يفعل الخير ، لأنه شيوعى ، أو وجودى ، أو إنسانى إلخ ، فمهما صنع إنسان من الخير ، وترك الاعتراف بالله فخيانة الكفر تفسد كل عمل . لأنه جحد وأنكر خالقه وكفر به ، والذى يعمل خيرا من أجل أحدٍ فلينل من هذا الأحد جزاء هذا العمل .

وهنا فى هذه الآية ، أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، وإيمان بالله . ولكن ما الذى يجعلهم لا يؤمنون بالله وإن عملوا معروفا ؟ إنه حرصهم على الجاه الزائف ، فلمّا جاء الإسلام ، ظن أهل الجاه فى الديانات الأخرى أن الإسلام سيسلبهم الجاه والسلطة والمكانة والمنافع التى كانوا يحصلون عليها ، وكان من حماقة بعضهم أن باعوا الجنة على الأرض وخافوا على المركز والجاه والمنافع ، وكان ذلك من قلة الفطنة ، فالحق يقول :

﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه .

فلو آمنوا لظل لهم الجاه والسلطة فى ضوء الإيمان بالله ، فلا تجارة بالدين ، وكانوا سيحصلون على أجرهم مرتين ، أجر فى الدنيا ، وأجر فى الآخرة ، أو أجر على إيمانهم بنبيهم ، وأجر آخر لإيمانهم برسول الله ، ولكن هل معنى هذا القول أن أهل الكتاب لم يؤمنوا ؟ لا ، إن بعضهم قد آمن ، فالحق سبحانه وتعالى يؤرخ لهم تاريخا حقيقيا فيقول سبحانه : « منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » وكان القياس أن يأتى وصف بعضهم بالإيمان ، وأن يكون غيرهم من أبناء ملتهم كافرين ، لأن الإيمان يقابله الكفر ، لكن الحق يحدد المعنى المناسب لفعلهم فيقول : « وأكثرهم الفاسقون » .

إنه الحق سبحانه وتعالى الذى يتكلم فيورد كل كلمة بمنتهى الدقة ، فهناك فرق بين أن تكفر وليس عندك مقدمات الإيمان وأدلته ، وأن تكفر وأنت تعرف مقدمات الإيمان كقراءة التوراة والإنجيل .

لقد قرأ أهل الكتاب التوراة والإنجيل ورأوا الآيات البينات وعرفوا البشارات ؛ لذلك فهم عندما كفروا برسول الله ، فسقوا أيضا مع الكفر . إن الذين كفروا برسول الله من أهل الكتاب هم فاسقون حتى فى كفرهم ، لأن مقتضى معرفتهم للبشارات والآيات أن يعلنوا الإيمان برسالة رسول الله ، فالواحد منهم ليس كافرا عاديا ، بل هو فاسق حتى فى الكفر ؛ لأنه عرف الحق ، ثم خرج وفسق عنه .

ومادام الحق قد قال : « منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » إذن ماذا يفعل المؤمن منهم مع الفاسق ؟ سيتربص الفاسقون وهم الأكثرية فى اليهودية والنصرانية بالأقلية المؤمنة ليوقعوا بهم الأذى والضرر ، ويقول الحق سبحانه :

﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

لكن الحق سبحانه يطمئن هذه الأقلية من أضرار الأكثرية بهم فيقول : « لن يضروكم إلا أذى » . أى يا أيتها الأقلية التى آمنت من أهل الكتاب ـ مثل عبدالله بن سلام الذى أسلم وترك اليهودية ـ إياكم أن تظنوا أن الأكثرية الفاسقة قادرة على إنزال العذابكم ؛ فالحق ـ سبحانه ـ يعلن أن محاولة الأكثرية لإنزال الضرر بالأقلية التى آمنت منهم لن يتجاوز الأذى .

ما هو الضرر ؟ وما هو الأذى ؟

إن الأذى هو الحدث الذى يؤلم ساعة وقوعه ثم ينتهى ، أما الضرر فهو أذى يؤلم وقت وقوعه ، وتكون له آثار من بعد ذلك ، فعندما يصفع الإنسان إنسانا آخر صفعة بسيطة فالصفعة البسيطة تؤلم ، وألمها يذهب مباشرة ، لكن إن كانت الصفعة قوية وتتسبب فى كدمات وتورم فهذا هو الضرر . إذن فالأذى يؤلم ساعة يُباشَر الفعل فقط ، وقد يكون الأذى بالكلمة كالاستهزاء ، فالفاسق قد يستهزىء بالذى آمن ، فينطق بكلمة الكفر أو الفُجْر ، هذه الكلمة ليس لها ضرر فى ذات المؤمن ولكنها تؤذى سمعه . إن الحق سبحانه يطمئن المؤمنين على أن أهل الكفر لن يضروا المؤمنين إلا أذى ، وهذا أقصى ما فى استطاعتهم ، وليس لهذا الأذى أثر .

إذن فقول الحق : « لن يضروكم إلا أذى » يعنى أنهم لن يستطيعوا أن ينالوا منكم أبدا اللّهم إلا الاستهزاء أو الغمز واللمز ، أو إشارة بحركة تؤذى شعور المؤمن ، أو تمجد الكفر ، وتعظمه أو ينطق كلمة عهر أو فجر لا يوافق عليها الدين ، هذا أقصى ما يستطيعه أهل الفسق ، وهم لا يملكون الضرر لأهل الإيمان . وبعد ذلك نرى أن واقع الأمر قد سار على هذا المنوال مع الدعوة المحمدية ومع جنود سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد أطلقها الله كلمة : « لن يضروكم إلاّ أذى » فصارت الكلمة قانونا . فقد وقعت الوقائع بين جند رسول الله وأهل الفسق ، وثبت أن أهل الفسق لم يستطيعوا ضرر أهل الإيمان إلا أذى .

ولننظر إلى ما حدث لبنى قينقاع ، ولما حدث لبنى قريظة ، ولما حدث لبنى النضير ، ولما حدث ليهود خيبر ، هل ضروا المؤمنين إلا أذى ؟ لقد قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوما أغرارا لا علم لهم بالحرب فانتصرت عليهم ، فإذا أنت حاربتنا فستعرف مَن الرجال . وكان ذلك هو مجرد كلام باللسان .

إن التاريخ يحمل لنا ما حدث لهم جميعا ، لقد هزمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعد هذا أرادوا أن يرتفعوا عن الأذى إلى الضرر الحقيقى فلم يمكنهم الله ؛ لأن الحق يقول : « وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ، ثم لا ينصرون » ، فإن أراد أهل الفسق أن يُصَعِّدوا الأذى للمؤمنين ليوقعوا ضررا حقيقيا ، فإن الكافرين يولون الأدبار أمام المؤمنين ، فهزيمتهم أمر لا مناص منه . ونحن نعرف فى اللغة أن هناك ما نسميه « الشرط » وما نسميه « الجواب » فـ « إنْ » حرف شرط تجزم فعل الشرط وجوابه فإنْ كان الفعل من الأفعال الخمسة فإنّنا نحذف النون ، ولذلك نجد القول الحق : « وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار » .

إن « يقاتلوكم » فعل شرط محذوفة منه النون . و« يولوكم الأدبار » أصلها يولونكم الأدبار . وهى جواب شرط حذفت منه النون ، وعندما يأتى العطف بعد ذلك ، فهل يكون بالرفع أو بالجزم ؟ إن العادة أن يكون العطف بالجزم !! لكن الحق يعطف بالرفع فيأتى قوله : « ثم لا يُنصرون » . إنها كسرة إعْرَابِيَّة تجعل الذهن العربى يلتفت إلى أن هناك أمرا جللا ، لأن المتكلم هو الله سبحانه . كيف جاءت « النون » ؟

هنا نقف وقفة فَلننطق الآية ككلام البشر : إن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصروا . وهذا القول يكون تأريخا لمعركة واحدة ، لكن ما الذى سوف يحدث من بعد ذلك ؟ ماذا يحدث عندما يقاتل المؤمنون أهل الكفر والفسق ؟ وتكون الإجابة هى : « ثم لا ينصرون » إن هذا القول الحكيم يحمل قضية بعيدة عن الشرط والجزاء ، إنها حكم من الله على أهل الفسق بأنهم لا يُنصرون أبدا سواء أقاتلوا أم لم يقاتلوا إنها قضية ثابتة منفصلة ، وليست معطوفة على الشرط ، فعلة عدم النصر ، ليست القتال ، ولكنها الكفر .

وإذا دققنا الفهم فى العبارة حروفا ـ بعد أن دققنا فيها الفهم جملا ـ لوجدنا معنى جديدا ، فقد يظن إنسان أن القول كان يفترض أن يتأتى على نحو مغاير ، هو « يولوكم الأدبار فلا ينصرون » لأن الذى يأتى بعد الـ « فاء » يعطى أنهم لا ينتصرون عليكم فى بداية عهدكم ، وهذا ما تفيده الفاء لأنها للترتيب والتعقيب . لكن الحق أورد حرف « ثم » وهو يفيد التراخى ، وهذا يعنى أنهم لا ينتصرون عليكم أيها

المؤمنون حتى لو استعدوا بعد فترة لمعركة يَرُدُّونَ بها على توليهم الأدبار . إنه حكم تأبيدى ، لأن « ثم » تأتى للتعقيب مع التراخى ، والفاء تأتى للتعقيب المباشر بدون تراخ . ولذلك فعندما نقرأ القرآن نجد وضع الفاء كالآتى :

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة عبس)

لأن دخول القبر يكون بعد الموت مباشرة ، وبعدها يقول الحق :

﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة عبس)

فإذا كان هناك تعقيب بعد مدّة زمنية فالحق يأتى بـ « ثم » ، وإذا كان هناك تعقيب فورى بلا مدّة يأتى الحق بـ « ف » . والتعقيب فى الآية التى نتناولها يأتى بعد « ثم » ، وكأن هذا حكم مستمر من الحق بأن أهل الفسق لن ينتصروا على أهل الإيمان ، ولو بعد انتهاء المعركة القائمة الآن بينهم ، إنها هزيمة بحكم نهائى ، هذا هو القول الفصل : « ثم لا يُنصرون » وهو أشد وقعا مما لو جاء « لا ينتصرون » لماذا ؟ لأن من الممكن ألّا ينتصر أهل الكفر بذواتهم ، ولكن الإيضاح يؤكد أنهم ـ أهل الكفر ـ لا ينتصرون لا بذواتهم ، ولا يُنصرون بغيرهم أيضا .

إن « ثم لا ينصرون » قضية دائمة فليست المسألة مقصورة على عهد رسول الله فقط ، ولكنها ستظل إلى أبد الآبدين .

ومن السطحية فى الفهم أن نقول : إن الآية كانت تتطلب أن يكون القول « ثم لا ينصروا » لأن الاعراب يقتضى ذلك . لكن المعنى اللائق بالمتكلم وهو الحق سبحانه وتعالى الذى يعطى الضمان والاطمئنان للأمة المسلمة أمام خصومها لابد أن يقول : « ثم لا ينصرون » وهى أكثر دقة حتى من « لا ينتصرون » لأن « ينتصرون » فيها مدخلية الأسباب منهم ، أما « ثم لا ينصرون » فهى تعنى أن لا نصر لهم أبداً ، حتى وإن تعصب لأهل الفسق قوم غيرهم وحاولوا أن ينصروهم فلن يستطيعوا ذلك .

فإن رأيتم ـ أيها المسلمون ـ نصرا للكافرين عليكم منهم أو بتعصب قوم لهم

فاعلموا أنكم دخلتم معهم على غير منهج الله . وقد يأتي إنسان ويقول : كيف ينتصر علينا اليهود ونحن مسلمون ؟ ونقول : هل نحن نتبع الآن منهج وروح الإسلام ؟ وماذا عندنا من الإسلام ومن الإيمان ؟ هل تحسب نفسك على ربك أثناء هزيمتك ؟ وهل دخلت معركتك كمعركة إسلامية ؟

لا ، لقد انتبهنا إلى كل شيء إلاّ الإسلام . قدمنا الانتماء لعصبية وقومية وعرقية على الإيمان فكيف نطلب نصرا من الله ؟ لا يحق لنا أن نطلب نصرة الله إلا إذا دخلنا المعركة ونحن من جند الله . والهزيمة تحدث عندما لا نكون جنداً لله ؛ لأن الله ضمن النصر والغلبة لجنوده فقال :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

فإذا لم نغلب فتأكدوا أننا لسنا من جنود الله . . ويقول الحق من بعد ذلك .

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ
ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ
عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا
عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

ونحن نستخدم كلمة « ضرب » في النقود ، عندما نقول : ضرب هذا الجنيه في مصر ، ومعنى ذلك أن الصانع يقوم بصنع قالب من مادة أكثر صلابة ، من المادة التي يصنع منها النقد ويرسم فيها الحفريات التي تبرز الكتابة والصور على وجهي الجنيه ،

ثم يصب المادة فى ذلك القالب ، وتخضع للقالب فتبرز الكتابة والصور ، ولا تتأبى المادة على القالب . كأن « ضُرب » معناها « أُلزم » بالبناء للمجهول فيهما ، وكأن المادة المصنوعة تَلْزَمُ القالبَ الذى تصب فيه ولا تتأبى عليه ولا يمكن أن تتشكل إلاّ به .

إذن فالضرب معناه الإلزام والقسر على الفعل . وعندما يقول الحق : « ضربت عليهم الذلة » أى لزمتهم الذلة لا يستطيعون الانفكاك عنها أبدا ، كما لا يستطيع المعدن المضروب نقدا أن ينفك عن القالب الذى صك عليه ، وكأن الذلة قبة ضربت عليهم ، وقالب لهم ، وقول الحق : « أينما ثقفوا » تفيد أنهم أذلاء أينما وُجدوا فى أى مكان . ولكن هناك استثناء لذلك ، ما هو؟

إنه قول الحق : « إلاّ بحبل من الله وحبل من الناس » إنهم لا يعانون من الذلة فى حالة وجود عهدٍ من الله أو عهد من أناس أقوياء أن يقدموا لهم الحماية . فلما كانوا فى عهد الله أولا وعهد رسوله ساعة دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وأعطاهم العهد ، فكانوا آمنين ، ولما خانوا العهد ، ولم يُوفوا به ؛ ماذا حدث ؟ ضُربت عليهم الذلة مرة أخرى .

إذن لقد كانوا فى عهد الله آمنين لكنهم خانوا العهد ، وانقطع حبل الله عنهم ، فهيجوا الهيجة التى عرفناها ونزل بهم ما نزل ، وهو ما حدث لبنى قينقاع ولبنى النضير وبنى قريظة ويهود خيبر .

إذن فهم قبل ذلك كانوا فى عهد مع الله . وأنتم تعرفون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما نزل المدينة بنى المسجد وعقد العهد بينه وبين اليهود وعاشوا فى اطمئنان إلى أن خانوا العهد ، فضربت عليهم الذلة . وطُردوا من المدينة ، كما يقول الحق : « ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس » .

لقد أخذوا العهد من الله من خلال من له الولاية على الناس ، فالرسول فى عهده كان قائما على أمر المسلمين ، وكذلك يكون الأمر معهم فى ظل القائمين على أمر الإسلام ، ويحدث هذا عندما تسير الأمور بمنهج الإسلام .

أما عن حبل الناس فذلك لأنهم لا يملكون أى عزة ذاتية ، إنهم دائما فى ذلة إلا أن يبتغوا العزة من جانب عهد وحبل من الله ، أو من جانب حماية من الناس . ونحن نراهم على هذا الحال فى حياتنا المعاصرة ، لابد لهم من العيش فى كنف أحد ؛ لذلك فعندما حاربنا « إسرائيل » فى حرب أكتوبر ، انتصرنا عليهم إلى أن تدخلت أمريكا بثقلها العسكرى . فقال رئيس الدولة المصرى : « لا جَلَدَ لى أن أحارب أمريكا » .

إذن لو كانت الحرب بيننا وبينهم فقط لانتهت قوتهم ؛ فهم بلا عزة ذاتية ، وتكون لهم عزة لو كانوا فى جانب حبل من الله ، أو حبل من الناس . يقول الحق سبحانه عنهم من بعد ذلك : « وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة » ولنا أن نلاحظ أن الذلة لها استثناء ، فهم ينالون العزة لو كانوا بجانب حبل من الله أو حبل من الناس ، أما المسكنة ، فلا استثناء فيها ، وقد قال الحق عنهم فى موضع آخر فى القرآن الكريم :

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

لأن المسكنة أمر ذاتى فى النفس ، إنهم مساكين بأمر من الله ، أما الذلة فقد يأتى لهم من ينصرهم ويقف بجانبهم ؛ فالذلة أمر من خارج ، أما المسكنة فهى فى ذاتيتهم ، وعندما تكون المسكنة ذاتية ، فلا إنقاذ لهم منها ؛ لأنه لا حبل من الله يأتيهم فينجيهم منها ، ولا حبل من الناس يعصمهم من آثارها . ويقول الحق : « وباءوا بغضب من الله » وهل رأى أحد منا غضبا أكبر من أن الحق قد قطعهم فى الأرض ؟ ولنقرأ قول الله :

﴿ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى الْأَرْضِ أُمَمًا ﴾

(من الآية ١٦٨ سورة الأعراف)

المكان الوحيد الذى آواهم فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الجزيرة العربية فى يثرب ، واستقروا قليلا ، وصارت لهم سيادة علمية ؛ لأنهم أهل كتاب ، وصارت لهم سيادة اقتصادية ، وكذلك سيادة حربية ، وهذا المكان الذى أواهم من الشتات فى الأرض هو المكان نفسه الذى تمردوا عليه . لقد كان السبب الذى من أجله قد جاءوا إلى يثرب هو ما كانوا يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة ؛ ففى التوراة

جاء ما يفيد أن نبيا سيأتي في هذا المكان ولابد أن يتبعوه كالميثاق الذي قلنا عليه من قبل :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهذا الميثاق يقضي بأن يتولى الرسل بلاغ الأمم التي بُعثوا إليها ، وأن يُبلغ أهلُ الإيمان القادمين من بعدهم بأن هناك رسولا قادما من عند الله بالمنهج الكامل . ـ واليهود ـ لم يأتوا إلى يثرب إلا على أمل أن يتلقفوا النبي المنتظر ليؤمنوا به ، ومن بعد ذلك يكونون حربا على الكافرين بالله ، لكن ما الذي حدث ؟ إنه سبحانه يخبرنا بما حدث منهم في قوله :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

فماذا بعد أن باءوا بغضب من الله . وبعد أن ختم الله قالبهم بالمسكنة ؟ وما السبب ؟ تكون الإجابة من الحق سبحانه : « ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق » لقد أرسل الله لهم آيات عجيبة ولكنهم كفروا بها ، تلك الآيات التي جاءنا ذكر منها في قوله الحق :

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة البقرة)

كثير من الآيات أرسلها الحق لبني إسرائيل ، منها ما جاء في قوله الحق :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ولكنهم تولوا عن الإيمان وأمامهم ضرب موسى عليه السلام الحجر بالعصا فانفجرت منه عيون المياه ليشربوا .

﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة البقرة)

وبرغم ذلك فقد قاموا بقتل الأنبياء بغير حق . وادعوا الكذب على أنبيائهم وقتلوهم ، وفى شأنهم يقول الحق : « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » كان العصيان سبباً لأن تُضرب عليهم الذلة ، وأن يبوءوا بغضب من الله ، وأن تُضرب عليهم المسكنة ، وكل ذلك ناشىء من فعلهم . وهناك فرق بين أن يبدأهم الله بفعل ، وبين أن يعاقبهم الله على فعل ، وحتى نفهم ذلك فلنقرأ قوله الحق :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

لقد حرم الله عليهم الطيبات بظلم منهم لأنفسهم ، لأن معنى تحريم الطيبات أن الله حرمهم متعة فى طيب ، وذلك لأنهم استحلوا متعة فى غير طيب ؛ لأن مرادات الشارع تأتى على عكس مرادات الخارجين عن أمر الشارع . وكما قلنا من قبل : إنّ الحق سبحانه وتعالى يؤرخ للحق وللواقع ولا يشملهم كلهم بحديث يجمعهم جميعا ، فقد كان منهم أناس تراودهم فكرة الإيمان بالرسول ، وفكرة الإيمان بالقرآن ، ومنهم من آمن فعلا ؛ لذلك كان من عدل الله أن يفصل بين الذين يفكرون فى الإيمان والمصرين على الكفر . لذلك يقول سبحانه :

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

وهذا ما حدث بالفعل ، لكن أى آيات الله كانوا يتلونها ؟ إنها الآيات المهيمنة ، آيات القرآن ولماذا يقول الحق : « وهم يسجدون » وهل هناك قراءة للقرآن ساعة السجود ؟ حتى نعرف تفسير ذلك لابد لنا أن نعرف أن اليهود لا يصلون العتمة ، أى الصلاة فى الليل ، وحتى يعطيهم الله السمة الإسلامية قال عنهم : « يسجدون » ويُعَرِّفهم بأنهم يقيمون صلاة العتمة ، ـ العشاء ـ وهى صلاة المسلمين ، وماداموا يصلون صلوات المسلمين ويسجدون ، إذن فهم مسلمون أو نفهم من قوله : « وهم يسجدون » أن الصلاة عنوان الخضوع ، والسجود أقوى سمات الخضوع فى الصلاة . وماداموا يصلون فلا بد أنهم يتلون آيات الله آناء الليل وهم يؤدون الصلاة بخشوع كامل . ونعرف أن من حسن العبادة فى الإسلام ، ومن السنن المعروفة قراءة القرآن ليلا ، وصلاة التهجد ، وهذه فى مدارج العملية الإيمانية التى يدخل بها الإنسان إلى مقام الإحسان .

و« آناء » جمع « إنى » مثلها مثل « أمعاء » جمع « معى » . و« الآناء » هى مجموع الأوقات فى الليل ، وليست فى «إنى» واحد . فهناك مؤمن يقرأ القرآن فى وقت من الليل ، ومؤمن آخر يقرأ القرآن فى وقت آخر ، وكأن المؤمنين يقطعون الليل فى قراءة للقرآن ، والذى يدخل مع ربه فى مقام الإحسان ، فهو لا يصلى فقط صلاة العتمة وهى ستأخذ « إنى » واحدا ، أى وقتا واحدا ، ولكنه عندما يصلى فى آناء الليل فذلك دليل على أنه يكرر الصلاة ، وزاد عن المفترض عليه ، ومادام قد زاد عن المفترض ، فهو لا يكتفى بتلاوة القرآن لأنه يريد أن يدخل فى مقام الإحسان ، أى أنه وجد ربه أهلا لأن يصلى له أكثر مما افترض عليه ، كأنه قد قال لنفسه : أنت كلفتنى يارب بخمس صلوات لكنك يارب تستحق أكثر من ذلك وكأن هذا البعض من أهل الكتاب لم يكتفوا بإعلان الإيمان بالإسلام فقط ، ولكنهم دخلوا بثقلهم ، فصلوا آناء الليل . وأحبوا أن ينطبق عليهم قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

ما معنى « محسن » ؟ إنها وصف للإنسان الذى آمن بربه فعبد الله بأكثر مما افترض

تعبدنا الله بخمس صلوات فنزيدها لتصل إلى عشرين مثلاً ، ونحن تعبدنا الله بصيام شهر فى العام ومنا من يصوم فى كل شهر عددا من الأيام .

العام ومنا من يصوم فى كل شهر عددا من الأيام .

وتعبدنا بالزكاة بالنصاب ، ومنا من يزيد على النصاب ، وتعبدنا سبحانه بالحج مرة ، ومنا من يزيد عدد مرات الحج . فحين يريد العبد أن يدخل فى مقام الإحسان فبابه هو أداء عبادات من جنس ما تعبده الله به ؛ فالعبد لا يخترع أو يقترح العبادة التى يعبد بها الله ، ولكنه يزيد فيما افترضه الله . وهؤلاء الذين آمنوا بالله من أهل الكتاب ويتحدث عنهم القرآن ، لقد دخلوا بثقلهم فى الإسلام فصلوا آناء الليل وقرءوا القرآن ، ودخلوا مقام الإحسان ، وأرادوا أن يطبقوا القول الحق :

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

أى أنهم ماداموا قد صلوا فى الليل ، وقليلا ما هجعوا فلا بد أنهم قد أدوا الصلاة فى آناء كثيرة من الليل . ونحن حين ندخل فى مقام الإحسان ونصلى فى الليل ، ونكون بارزين إلى السماء فلا يفصلنا شىء عنها،وننظر فنجد نجوما لامعة تحت السماء الدنيا ، وأهل السماء ينظرون للأرض فيجدون مثلما نجد من النجوم المتلألئة اللامعة فى الأرض ، ويسألون عنها فيقال لهم : إنها البيوت التى يصلى أهلها آناء الليل وهم يسجدون ، وكل بيت فيه هذا يضىء كالنجوم لأهل السماء . ويضيف الحق فى صفات هؤلاء : « وبالأسحار هم يستغفرون » وهل فرض الله على خلقه بأن يصلوا آناء الليل فلا يهجعون إلا قليلا من الليل ؟ لا ، ولكن من يريد أن يدخل فى مقام الإحسان ، فهو يفعل ذلك . أما المسلم العادى فيكتفى بصلاة العشاء ، وعندما يأتى الصبح فهو يؤدى الفريضة . لكن من يدخل فى مقام الإحسان فقليلا من الليل ما يهجع . وينطبق عليه القول الحق :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وهذه دقة البيان القرآني التي توضح مقام الإحسان ، فيكون في مالهم حق للسائل والمحروم ، وليس هناك قدر معلوم للمال الذي يخرج ، لأن المقام هنا مقام الإحسان الذي يعلو مقام الإيمان ، ومقام الإيمان ـ كما نعرف ـ قد جاء ذكره في قوله الحق :

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة المعارج)

فالإنسان في مقام الإيمان قد يقيد الإخراج من ماله بحدود الزكاة أو فوقها قليلا ، لكن في مقام الإحسان فلا حدود لما يخرج من المال . وهكذا نعرف أن أهل الكتاب ليسوا سواء ؛ فمنهم من دخل الإسلام من باب الإحسان ، فقال فيهم الحق : « ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون » ، وكأن الحق بهذا الاستثناء الواضح . يؤكد لنا أننا لا يصح أن نظن أن أهل الكتاب جميعهم هم الذين جاء فيهم قوله : « ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » لا ؛ فأهل الكتاب ليسوا سواء ، ولذلك لا يكون حكم الله منسحبا عليهم جميعا ، فمن أهل الكتاب جماعة قائمة بتلاوة القرآن آناء الليل وهم يسجدون ، إنهم أمة قائمة ، وكلمة « قائم » هي ضد « قاعد » ، والقعود غير الجلوس ، فالجلوس يكون عن الاضطجاع فيقال : كان مضطجعا فجلس .

لكن عندما نقول : « كان قائما » فإننا نقول فقعد «فالقعود يكون بعد القيام . والقعود في الصلاة مريح ، أما القيام فهو غير مريح ، ونحن نعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقف في الصلاة حتى تتورم قدماه ؛ لأن الثقل كله على القدمين ، ولكن عندما نقعد فنحن نوزع الثقل على جملة أعضاء الجسم . وعندما يصفهم الحق : « من أهل الكتاب أمة قائمة » فمعنى ذلك أنهم أخذوا أمانة أداء الفروض بكل إخلاص ، وكانوا يؤدون الصلاة باستدامة وخشوع . ويستمر الحق في وصفهم في الآية التالية :

﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ

﴿ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

وهم بالإيمان بالله واليوم الآخر ، وبالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، إنما يتصفون بالصفات التى أوردها الله صفة لخير أمة أخرجت للناس وهى أمة محمد صلى الله عليه وسلم . لقد دخل هذا البعض من أهل الكتاب بثقلهم ـ ومن أول الأمر ـ فى مقام الإحسان ، وماداموا قد دخلوا فى مقام الإحسان فهم بحق كانوا مستشرفين لظهور النبى الجديد . وبمجرد أن جاء النبى الجديد تلقفوا الخيط وآمنوا برسالته ، وصاروا من خير أمة أخرجت للناس . ويكمل الحق سبحانه صفاتهم بقوله : « ويسارعون فى الخيرات » وهذا كمثل قوله سبحانه وتعالى فى حق المؤمنين :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ونحن نعرف أن هناك فرقا بين « السرعة » و« العجلة » فـ« السرعة » و« العجلة » يلتقيان فى تقليل الزمن بالنسبة للحدث ، ومثال ذلك أن يقطع إنسان المسافة من مكان إلى مكان فى زمن معين،والذى يسرع فى قطع المسافة هو الذى يستغرق من الزمن أقل وقت ممكن ولكن هناك اختلاف بين السرعة والعجلة ، وأول خلاف بينهما يتضح فى المقابل ، فمقابل السرعة الإبطاء ، ويقال : فلان أسرع ، وعلان أبطأ ومقابل « العجلة » هو « الأناة » فيقال : فلان تأنى فى اتخاذ قراره . فالسرعة ممدوحة ومقابلها وهو « الإبطاء » مذموم ، « والعجلة » مذمومة ، ومقابلها وهو التأنى ممدوح ؛ لأن السرعة هى التقدم فيما ينبغى التقدم فيه ، والعجلة هى التقدم فيما لا ينبغى التقدم فيه ، ولذلك قيل فى الأمثال : « فى العجلة الندامة ، وفى التأنى السلامة » وقال الحق :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة آل عمران)

وهو سبحانه : هنا يقول « ويسارعون فى الخيرات » أى كلما لمحت لهم بارقة فى الخير فهم يسرعون إليها ، أى أنهم يتقدمون فيما ينبغى التقدم فيه ، إنهم يعلمون أن الإسراع إلى الخير حدث ، وكل حدث يقتضى حركة ، والحركة تقتضى متحركا ، والمتحرك يقتضى حياة ، فما الذى يضمن للإنسان أن تظل له حياة ، لذلك يجب أن تسرع إلى الخيرات ، وسيدنا عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه وأرضاه كان ينام القيلولة ، وكان حاجبه يمنع الناس من إيقاظ الخليفة ، فجاء ابن عمر بن عبدالعزيز وقال للحاجب :

أريد أن أدخل على أمير المؤمنين الساعة ، فمنعه الحاجب قائلا : إنها ساعة يستريح فيها وهو لا يستريح من الليل أو النهار إلاّ فيها ، فدعه ليستريح . وسمع سيدنا عمر بن عبدالعزيز الضجة ، فسأل الحاجب . قال الحاجب : إنه ابنك ، ويريد أن يدخل عليك وأنا أطالبه ألا يدخل حتى تستريح . قال عمر بن عبدالعزيز للحاجب : دعه يدخل . فلما دخل الابن على أبيه ، قال الابن : يا أبى بلغنى أنك ستخرج ضيعة كذا لتقفها فى سبيل الله . قال عمر بن عبدالعزيز : أفعل إن شاء الله . غدا نبرمها . قال الابن متسائلا : هل يبقيك الله إلى غد ؟ فقال عمر بن عبدالعزيز وهو يبكى : الحمد لله الذى جعل من أولادى من يعيننى على الخير .

لقد أراد الابن من أبيه أن يسارع إلى الخير ، فمادامت هبة الخير قد هبَّت عليه فعلى الإنسان أن يأخذ بها ؛ لأن الإنسان لا يدرى أغيار الأحداث فى نفسه ، لذلك فعليه أن يسارع إلى اقتناص هبة الخير ، وها هو ذا ابن عمر بن عبدالعزيز يعين والده على الخير ، لكننا فى زماننا قد نجد من الأبناء من يطلب الحَجْر على أبيه إن فكر الأب فى فعل الخير ، متناسين قول الحق : « ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين » .

وهنا يبرز سؤال هو : لأى عمل هم صالحون ؟

والإجابة تقتضى قليلا من التأمل . إننا نقول فى حياتنا : « إن فلانا رجل صالح » ومقابله « رجل طالح » . والإنسان صالح للخلافة ، فقد جعل الله آدم وذريته خلفاء فى الأرض ، والرجل الصالح يرى الشىء الصالح فى ذاته فيترك هذا الشىء على ما هو عليه أو يزيده صلاحا . أما الرجل الطالح أو المفسد فهو يأتى إلى الشىء الصالح فيفسده ، ولا يفعل صلاحا .

إن الرجل - على سبيل المثال - قد يجد بئرا يأخذ منه الناس الماء ، فإن لم يكن من أهل العزم فإنه يتركه على حاله . وإن كان طالحا فقد يردم البئر بالتراب . أما إن كان الرجل من أهل الصلاح والعزم فهو يحاول أن يبدع فى خدمة الناس التى تستقى من البئر ، فيفكر ليبنى خزانا عاليا ويسحب الماء من البئر بآلة رافعة ، ويخرج من الخزان أنابيب ويمدها إلى البيوت ، فيأخذ الناس المياه وهم فى المنازل ، إن هذا الرجل قد استخدم فكره فى زيادة صلاح البئر .

إذن فكلمة « رجل صالح » تعنى أنه صالح لأن يكون خليفة فى الأرض وصالح لاستعمار الأرض أى أن يجعلها عامرة ، فيترك الصالح فى ذاته ، أو يزيده صلاحا ، ويحاول أن يصلح أى أمر غير صالح . الرجل الصالح عندما يعمل فهو يحاول أن يجعل عمله عن عمق علم ، فلا يقدم على العمل الذى يعطى سطحية نفع ثم يسبب الضرر من بعد ذلك .

ومثال ذلك حين اخترعوا المبيدات الحشرية ظنوا أنهم تغلبوا على الآفات فى الزراعة ، لكنهم لم يعرفوا أنهم قد أضروا بالزراعة وبالبيئة أكثر مما أفادوا ، لذلك عادوا يقولون : لا تستعملوا هذه المبيدات ، لأنها ذات أضرار جمة ؟ ولهذا لابد أن يكون كل عمل قائما على قواعد علمية سليمة ، ولنقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وقوله سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فقد أكرم الله من آمن من أهل الكتاب فوصفهم الوصف الحقيقى ، فهم يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، ويؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويسارعون فى الخيرات ، ثم يحكم الحق عليهم حكما عاما بأنهم من الصالحين لعمارة الكون والخلافة فى الأرض .

ومن بعد ذلك يضيف الحق :

﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

إنه سبحانه يعطيهم الجزاء العادل ، وإن شيئا لا يضيع عنده وهو الحق ؛ فالخير الذى يفعلونه لن يُجحد لهم أو يُستر عن الناس ؛ لأنه سبحانه عليم بالمتقين ، فمن الجائز أن يصنع إنسان الأعمال ولا يراها أحد ، أما الحق فهو يرى كل عمل ، وهو الذى يملك حسن الجزاء . وبعد ذلك يعود الحق لتبيان حال الذين كفروا فيقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾

يظن الكافرون أن الأموال والأولاد قد تغنى من الله ، إنهم لا يحسنون التقدير ، فالأموال والأولاد هما من مظان الفتنة مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

ومادامت الأموال والأولاد فتنة فلا بد أن نفهم الأمر على حقيقته ؛ فالفتنة ليست مذمومة فى ذاتها ؛ لأن معناها اختبار وامتحان ، وقد يمر الإنسان بالفتنة ، وينجح .

كأن يكون عنده الأموال والأولاد ، وهم فتنة بالفعل فلا يغره المال بل إنه استعمله فى الخير ، والأولاد لم يصيبوه بالغرور بل علمهم حمل منهج الله وجعلهم ينشأون على النماذج السلوكية فى الدين ، لذلك فساعة يسمع الإنسان أى أمر فيه فتنة فلا يظن أنها أمر سيىء بل عليه أن يتذكر أن الفتنة هى اختبار وابتلاء وامتحان ، وعلى الإنسان أن ينجح مع هذه الفتنة ؛ فالفتنة إنما تضر من يخفق ويضعف عند مواجهتها . والكافرون لا ينجحون فى فتنة الأموال والأولاد ، بل سوف يأتى يوم لا يملكون فيه هذا المال ، ولا أولئك الأولاد ، وحتى إن ملكوا المال فلن يشتروا به فى الآخرة شيئا ، وسيكون كل واحد من أولادهم مشغولا بنفسه ، مصداقا لقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة لقمان)

إن كل امرىء له يوم القيامة شأن يلهيه عن الآخرين ، والكافرون فى الدنيا مشغولون بأموالهم وأولادهم وعندما نتأمل قوله : « لن تغنى عنهم » نجد أننا نقول : أغناه عن كذا أى جعله فى استغناء فمن هو الغَنِىّ إذن ؟ الغنى هو من تكون له ذاتية غير محتاجة إلى غيره ، فإن كان جائعا فهو لا يأكل من يد الغير ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس »(١) .

والمقصود بالعَرَض هو متاع الحياة الدنيا قلّ أو كثر ، ومتاع ، وعرض الدنيا كالماء المالح ، كلما شربت منه ازددت ظمأ . إن الكافر من هؤلاء يخدع نفسه ويغشها ، ويغتر بالمال والأولاد وينسى أن الحياة تسير بأمر من يملك الملك كله ، إن الكافر يأخذ مسألة الحياة فى غير موقعها ، فالغرور بالمال والأولاد فى الحياة أمر خادع ، فالإنسان يستطيع أن يعيش الحياة بلا مال أو أولاد . ومن يغتر بالمال أو الأولاد فى الحياة يأتى يوم القيامة ويجد أمواله وأولاده حسرة عليه ، لماذا ؟ لأنه كلما تذكر أن المال والأولاد أبعداه عما يؤهله لهذا الموقف فهو يعانى من الأسى ويقع فى الحسرة .

(١) رواه أحمد فى المسند ، والبخارى ، ومسلم ، والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة .

ويقول الحق سبحانه عن هذا المغتر بالمال والأولاد وهو كافر بالله : « وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » وهذا مصير يليق بمن يقع فى خديعة نفسه بالمال أو الأولاد . وكيف يكون الإنسان صاحباً للنار؟ لنعرف أولا معنى كلمة « الصاحب » ، إن الصاحب هو الملازم ؛ فنحن نقول : فلان صاحب فلان أى ملازمه ، لكن من أين تبدأ الصحبة ؟ . إن الذى يبدأ الصحبة هو « فلان » الأول ، لـ« فلان الثانى » الذى يقبل الصحبة أو يرفضها ، وهذا أمر قد نعرفه وقد لا نعرفه ، وعن الصحبة مع النار نرى أن الإنسان يلوم نفسه ويؤنبها على أنه اختار النار وصاحبها .

ألسنا نرى فى الحياة إنسانا قد ارتكب ذنبا وأصابه ضرر ، فيضرب نفسه ويقول : أنا الذى استأهل ما نزل بى وأستحقه ، وكذلك الإنسان الكافر يجد نفسه يوم القيامة ، وهو يدخل النار ، ويقول لنفسه : أنا أستحق ما فعلته بنفسى ، وتقول النار لحظتها ردا على سؤال الحق لها :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة ق)

وفى الآخرة نرى أبعاض الإنسان الكافر وهى تبغض صاحبها ، فإذا كان للإنسان ولاية على أبعاضه فى الدنيا ، وهى خاضعة لإرادته إلا أن هذه الأبعاض تأتى يوم القيامة وصاحبها خاضع لإرادتها . إن الظالم يقول ليده فى الدنيا ، « اضربى فلانا وشددى الصفعة » فلم تعصه يده فى الدنيا ؛ لأن الله خلقها خاضعة لإرادته ، والظالم لنفسه بالكفر يأمر لسانه أن ينطق كلمة الكفر ، فلا يعصاه اللسان فى الدنيا ، لماذا ؟ لأن أبعاضه خاضعة لإرادته فى الحياة الدنيا ، لكن ذلك الكافر يأتى يوم القيامة وتنعزل عنه إرادته ، فتتحرر أبعاضه ، ولا تكون مرغمة على أن تفعل الأفعال التى لا ترتضيها ، وتتمرد الأبعاض على صاحبها ، وتشهد عليه . قد يقول قائل : ولكن الأبعاض هى التى تتعذب . نعم ، ولكنها تقبل العذاب تكفيرا عما فعلت .

إذن فالصحبة تبدأ من الأبعاض للنار « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » فإن رأينا كفارا يعملون خيرا فى الدنيا فليحذر كل منا نفسه قائلا : إياك يا نفس أن

تتخدعى بذلك الخير . لماذا ؟ لأن الكافر يعيش كفر القمة ، وكل عمل مع كفر القمة هو عمل حابط عندالله ، وإن كان غير حابط عند الناس . وبعد ذلك يقول الحق عن هؤلاء الكافرين :

﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

إن الحق يصف ما ينفقه هؤلاء الكافرون فى أثناء الحياة الدنيا وهم بعيدون عن منهج الله إنه ـ سبحانه ـ يشبهه بريح فيها صر ، أى شدة ، فمادة « الصاد والراء » تدل على الشدة والضجة والصخب ، ومثال ذلك ما قاله الحق عن امرأة إبراهيم :

﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

إنها أتت وجاءت بضجيج ؛ لأنها عجوز وعقيم ويستحيل عادة أن تلد . ومثل قوله الحق :

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الحاقة)

والريح الصرصر هى التى تحمل الصقيع ولها صوت مسموع .

وقوله الحق : « كمثل ريح فيها صر » أى أن الريح جعلت البرد شائعا وشديدا ، فالبرد قد يكون فى منطقة لا ريح فيها ، ويظل باقيا فى منطقته تلك ، وعندما تأتى

الريح فإنها تنقل هذا البرد من مكان إلى مكان آخر ، فتتسع دائرة الضرر به . وماذا تفعل الريح التي فيها شدة برد ؟ إنها تفعل الكوارث ، ويقول عنها الحق : « أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته » وساعة نسمع كلمة « حرث » فنحن نعرف أنه الزرع ، وقد سماه الله حرثا ، ليعرف الإنسان إنه إن لم يحرث فلن يحصد ، يقول الحق :

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

كأن الريح العارمة تفسد الحرث ، وهو العملية اللازمة للإنبات ؛ فالحرث إثارة للأرض ، أي جعل الأرض هشة لتنمو فيها الجذور البسيطة ، وتقوى على اختراقها ، وأخذ الغذاء منها ، وهذه الجذور تستطيع ـ أيضا ـ من خلال هشاشة الأرض المحروثة أن تأخذ الهواء اللازم للإنبات .

إن الحق سبحانه يريد أن يضرب لنا المثل وهو عن جماعة غير مؤمنين أنفقوا أموالهم في الخير ، لكن ذلك لا ينفعهم ولا جدوى منه . مصداقا لقوله تعالى : « كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » وهكذا يكون مصير الإنفاق على نية غير مؤمنة ، كهيئة الحرث الذي هبت عليه ريح فيها صوت شديد مصحوب ببرد ، فالـ « صر » فيه الشدة والبرودة والعنف ، وحاتم الطائي كريم العرب يقول لعبده :

أوقد ؛ فإن الليل ليل قر
والريح يا غلام ريح صر
عل يرى نارك من يمر
إن جلبت ضيفا فأنت حر

إن هذا الرجل الكريم يطلق سراح العبد إذا ما هدى ضيفا إلى منزل حاتم الطائي . « والليل القر » : هو الليل الشديد البرودة . و« الريح الصر » : هي

الريح الشديدة المصحوبة بالبرد . ونعرف فى قُرآننا أن الصقيع ينزل على بعض المزروعات ، فيتلفها . ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه قد جاء بهذه الآية الكريمة بعد أن أوضح لنا فى الآية السابقة عليها أن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئا ومصيرهم النار ، وهو سبحانه يدفع أى شبهة تطرأ على السامع ، وهى أن هذه الأموال التى أنفقها الكافرون لعمل الخير ، لن تغنى عنهم شيئا فى الآخرة ؛ لأنهم لا يملكونها . لماذا ؟

لأن العمل إنما يراد للثواب عليه ، والنية دائما هى التى تحدد الهدف من كل حركة . . فهل كان فى نية الكفار حين أنفقوا أموالهم فى الخير الذى يعلمه الناس كالمساعدات ، وتفريج الكرب ، وإنشاء المستشفيات هل كان فى بال هؤلاء الكفار رَبُّ هذه النعم ، أو كانوا يعملونها طمعا فى جاه الدنيا ، وتقدير التاريخ وذكر الإنسانية ؟

لاشك أنهم كانوا يعملونها للجاه ، أو للتاريخ ، أو للإنسانية ؛ لأنهم لا يؤمنون بما وراء ذلك ، فهم لا يؤمنون بوجود إله ، ولا يؤمنون بوجود يوم آخر يُحاسبون فيه على ما قدموا . وقلنا من قبل : إن الذى يعمل عملا فليطلب أجره ممن عمل له ، ومادامو قد عملوا للدنيا وذكرها ، وجاهها ، والفخر فيها ، فقد أعطتهم الدنيا كل شىء .

الحق سبحانه وتعالى يضرب لنا مثلا ، وهو الذى يضرب الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومعنى المثل : أن يأتى إلى أمر معنوى قد يغيب عن بعض العقول فهمه ، فيشخصه ويمثله بأمر حسى يعرفه الجميع ، ونحن نعرف أن المحسات هى أصل المعنويات فى الفهم . ونعرف أن الطفل أول ما تتفتح إدراكاته يدرك الشىء المحس أولا ، ثم بعد ذلك يكوّن من المحسات المعقولات .

فالطفل ـ على سبيل المثال ـ يرى نارا فيمسكها فتحرقه ، فيتكون عند الطفل اقتناع بأن النار محرقة . ويشرب الطفل عسلا ، فيجده حلوا ، فيتكون عنده اقتناع بأن العسل حلو الطعم ، ويأكل الطفل شيئا مرا كالحنظل ، فتتكون عنده قضية معلومة وهى أن هذا الشىء مر الطعم ، فكل المعلومات التى يعرفها الإنسان بوسائل

إدراكه المتعددة إنما تأتى من الأمور المحسة أولا .

والأمور المحسة ـ كما علمنا ـ وسائلها الحواس الخمس الظاهرة ، وهى : العين لترى ، والأذن لتسمع ، والأنف ليشم ، واللسان ليذوق ، والأنامل لتلمس ، وهكذا نعرف أن كل حاسة ظاهرة لها غاية فى الإدراك . والإنسان يتمتع بحواس أخرى ندرك أعمالها ، ولكنا لا ندرك أجهزتها أو آلاتها .

مثال ذلك : حاسة البعد وهى أن يعرف الإنسان هل الشيء الذى يراه قريب منه أو بعيد عنه ؟ وكذلك حاسة الثقل فيحمل الإنسان الشيء فيعرف مدى ثقله ، إنه يدرك ذلك الثقل بحاسة غير الحواس الخمس الظاهرة ، هذه الحاسة هى حاسة الثقل يكتشف بها الإنسان أن شيئا أثقل من شيء آخر ؛ ذلك أن العضلات التى تحمل الشيء تعرف قدر الجهد المبذول فى الحمل . وهناك حاسة أخرى غير ظاهرة هى حاسة « البَين » فيمسك الإنسان القماش بأنامله ليعرف هل سمك هذا القماش أكبر من سمك قماش آخر ؟ ولمعرفة سمك الشيء لابد أن يكون واقعا بين لامسين . إذن فهناك حواس كثيرة تربى المعانى عندنا ؛ فكل الإدراكات بنت الحس ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

هذه هى الوسائل للإدراك ، وقد أورد سبحانه السمع والأبصار أولا لأنهما الوسيلتان الأساسيتان ، وأورد من بعد ذلك « الأفئدة » وهى المختصة بالمعانى والقلبيات وغيرها . فإذا أراد الله أن يضرب مثلا فى أمر معنوى قد تختلف فيه العقول فهو سبحانه يأتى بأمر حسىّ تتفق فيه الحواس . ونعلم أن فى اللغة أمرا اسمه « التشبيه » ، فعندما يجهل إنسان شيئا يقول لمعلمه : شبه لى الأمر الذى أجهله بأمر أعرفه . والإنسان منا قد يسأل صاحبه : أتعرف فلانا ؟ فيقول الصاحب : لا أعرفه ، فيقول الإنسان منا لصاحبه : إن فلانا الذى لا تعرفه يساوى فلانا فى الطول ، ويساوى فلانا فى اللون . وهكذا ينتقل الإنسان من أمر

لا يعرفه إلى أمر يعرفه . والحق سبحانه يضرب لنا المثل بالأمور الحسية ، لنفهم الأمور المعنوية ، والله يوضح لنا أن الذين كفروا ساعة تكون لهم آلهة متعددة فملكاتهم تصاب بالاضطراب يقول ـ سبحانه ـ :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الزمر)

إنه سبحانه يوضح لنا بالمثل الواضح مصير وحال رجل مملوك لعدد من الشركاء ، والشركاء الذين يملكون هذا العبد ليسوا متفقين ، بل بينهم نزاع وشقاق ، وبطبيعة الحال لابد أن يكون هذا العبد مرهقا ، وهكذا تكون قضية الشرك بالله ، إن العبد في مثل هذه الحالة يكون مُشتتاً وموزع النفس بين الذين يملكونه وهم متشاكسون ، أما قضية التوحيد فالحق يشبهها بالقول : « ورجلا سلما لرجل » .

وهكذا ينقلنا الحق سبحانه ـ رحمة بنا ـ من المعنى العقدى العالى إلى معنى محس من الجميع ، لنرى أن الرجل المملوك لسيد واحد يتلقى أوامره من واحد فقط ، وكذلك يريد الله في هذه الآية أن يضرب مثلا لمن ينفق شيئا على غير نية إرضاء الله في طاعته ، فمهما أنفق هذا الإنسان فإن إنفاقه حابط . ونحن عندما نقرأ أمثال القرآن الكريم علينا ألا نأخذ جزئية فقط ، لا ، لكن يجب أن نأخذ الجملة كلها لنفهم المثل كله كصورة مؤتلفة مثلما ضرب الله لنا مثلا بالشركاء المتشاكسين الذين يملكون رجلا ، فعلينا إذن ألا نأخذ المثل بحرفيته ، ولكن نأخذ الأمر بمجموع المثل . مثال آخر ، يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فهل الحياة الدنيا كالماء ؟ لا ، ولكن قصة الحياة كلها ، تشبه القصة التي يضربها الحق كمثل ، الماء حين ينزل يختلط بالأرض ، وبعد ذلك تهتز ، فتعطى نباتا ، والنبات ينتج الزهر الجميل ، وبعد ذلك ينتهى إلى هشيم ، هكذا هى الدنيا فى

زخرفتها ؛ فالبداية مزهرة ، فيها نضارة وخضرة وبهجة ، ونهاية مؤلمة ومدمرة .

إذن فالحق سبحانه ينقل لنا معنى الحياة الدنيا ويشبهها بالأزهار والنبات ونهايته أن يصبح هشيما تذروه الرياح ، وهو ما يقوله فى موضع آخر من القرآن الكريم .

﴿ فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة يونس)

وعندما نمعن النظر فى قوله الحق :

﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

نجد فى هذه الآية « مشبها » و« مشبها به » ، المُشَبَّه هم القوم الذين ينفقون أموالهم بغير نية الله ، أى كافرون بالله ، والمُشَبَّه به : هو الزرع الذى أصابته الريح وفيها الصر ، والنتيجة أنه لا جدوى هنا ، ولا هناك .

ولماذا تصيب الريح حرث قوم ظلموا أنفسهم ، وهل لا تصيب الريح حرث قوم لم يظلموا أنفسهم ؟

إن الذين ظلموا أنفسهم تنزل بهم هذه الكارثة كعقوبة ، مثلهم فى ذلك مثل أصحاب الجنة الذين يقول فيهم الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة القلم)

لقد جزاهم الله بظلمهم ، ولكن ألا نرى رجلا لم يظلم نفسه وتصيب زراعته كارثة ؟ إننا نرى ذلك فى الحياة ، والرجل الذى لم يظلم نفسه وتصيب زراعته كارثة ، ويصبر على كارثته ، يأخذ الجزاء والثواب من الله ، ولعل الله قد أهلك بها مالا كانت الغفلة قد أدخلته فى ماله من طريق غير مشروع .

هكذا تكون الكارثة بالنسبة للمؤمن لها ثواب وجزاء ، أو تكون تطهيرا للمال . أما الذى ينفق على غير نية الله وهو كافر ، فلا ثواب له .

ويذيل الحق الآية بقوله « وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » فهو سبحانه لم يظلم الكافرين حين جعل نفقتهم بدون جدوى ولا حصيلة لها عنده ، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ، لأنهم أنفقوا النفقة على غير هيئة القبول ، وهم الذين صنعوا ذلك عندما ظلموا أنفسهم بالكفر فَحَبطت أعمالهم ، وتلك هى عدالة الحق سبحانه وتعالى :

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾

راجع أصله وخرّج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .